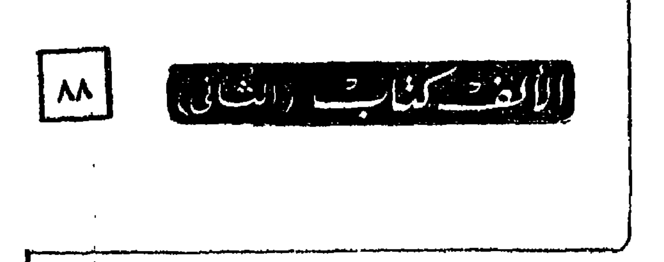
كتب غيّرت الفكر الإنسانى

أحمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٠



كتب
غيرت الفكر الإنسانى

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

مراد نسيم

● الإخراج الفنى :

● فاتن أحمد رضا

كتب غيرت الفكر الإنسانى

- الكتب الخمسة — لكونفوشيوس
- الجمهورية — لأفلاطون
- أصول الهندسة — لاقليدس
- القانون — لابن سينا
- المقدمة — لابن خلدون
- الأمير — لميكافيلى
- التأملات — لديكارت
- المبادىء — لنيوتن
- روح القوانين — لمونتسكيو
- ثروة الأمم — لآدم سميث
- أصل الأنواع — لداروين
- راس المال — لماركس
- النظرية النسبية — لآينشتين

تقـديم

بقلم الأستاذ / صبرى أبو المجد

● ابدت الكتب قوة هائلة من اجل الخير ومن أجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشرى ، هذه مناقشة فاحصة لثلاثة عشر كتابا من أهم المؤلفات في جميع العصور ، كان لها تاثير عظيم على الفكر الانسـاني من اقدم العصور الى يومنـا هـذا .

وصفت هذه الكتب وصفا دقيقا واضحا فى هذا الكتاب الممتع سهل القراءة ، ومؤلفه هو ابنى وتلميذى أحمد محمد الشنوانى الكاتب الصحفى بدار الهلال ، يبين بوضوح ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب .

وها نحن ذا نقدم هذا الكتاب الذى قدم عرضا موضوعيا لكتب من عدة عصور تبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة وأثرها على التقدم البشرى .

والغرض من هذا المؤلف الذى بين أيدينا هو توضيح القوة العاتية للكتب عن طريق مناقشة أمثلة معينة ، ولم تكن فى نية مؤلفنا تقـديم قائمة « بأحسن الكتب » أو « أعظم الكتب » ولكن كان هدفه هو اكتشاف الكتب التى كان لها أعظـم الأثر وأعمقه على الفكر الانسـانى منذ أقدم العصور الى يومنا هذا .

والمؤلفات الرائدة فى التراث الفكرى العالمى كثيرة ومتنوعة ، ففى أى فرع من فروع التاليف فى الفكر الانسانى نجد كتبا كان لها فضل الارتياد فى ميدانها ، وفضل المبادرة الى التاليف فيها ، على مدى التاريخ الانسانى الطويل .

ورواد المؤلفين منذ ظهر أول انتاج فكرى مسطور مدون لا يحصى عددهم ولكل واحد منهم مجال اشتهر به ، ونبغ فيه ، وكان فيه أولا . جاء بعده أخلافه فزادوا عليه ، وعمقوا أفكاره ووسعوا مجالاته ، ولكن فضل الكتاب الرائد بقى كما هو لم يحجبه من جاءوا بعده ، وساروا فى الدرب الذى سار فيه .

وكما قلنا ليس المجال مجال احصاء وحصر لهذه المؤلفات الرائدة ، فان هذا العمل تنوء أثقـــاله بالعصـــبة أولى القوة ، ولكنى عشت فى هذا الكتاب مع ثلاثة عشر من الكتب الرائدة تمثل عصورا مختلفة من تاريخ الفكر الانسانى وتمثل ألوانا مختلفة من الثقافة والفكر .

وعندما يستعرض المرء هذه الكتب الثلاثة عشر المحملة بالحركة . يطرأ على بالنا دائما هذا السؤال : هل الكتاب الذى أحدث أثرا هائلا كان بسبب ما فيه أم لأن الوقت كان أرضا خصبة له ؟ ويغلب على الظن ان الزمن عامل هام فى صنع القوة المؤثرة للكتاب .

وبين أيدينا كثير من الأمثلة : فقد وضع ميكافيلى كتاب « الأمير » لتحرير وطنه الحبيب ايطاليا من الاعتداء الأجنبى ، وكانت انجلترا على استعداد لتوسيع اقتصادها التجارى والصناعى الى أقصى حدود تستطيعها عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب « ثروة الأمم » ولولا الأحوال القاسية السائدة فى الصناعة الأوروبية ولاسيما نظـــام المصـــانع الانجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر لما أحدث كتاب « رأس المال » لكارل ماركس كل هذا الدوى .

وهناك كتب لم تحدث تأثيرها الكامل الا بعد سنوات وسنوات من نشرها ، فمثلا كان آدم سميث وكارل ماركس فى عداد الأموات عنـــدما أدرك العالم أهمية كتابيهما !

ويتردد فى ذهنى سؤال عنـــدما أتأمل قائمة الكتب التى اختارها مؤلفنا ، ألا وهـــو : كيف يمكن قيـــاس التأثير ؟ ولما كان هدف المؤلف اختيار الكتب التى يمكن الحكم على آثارهـــا بمصطلحات النتائج الثابتة أو الأفعال ، فالمقياس الصحيح لمدى التأثير هو ما أحدثه الكتاب من قوة معارضة أو قوة تأييد ، فاذا أثار كتاب ما معارضة عنيفة وشعورا مماثلا من التأييد لوجهة نظره ، فالاحتمالات انه قد أثر تأثيرا عميقا فى تفكير الناس .

وأيضا عندما يستعرض المرء الكتب الثلاثة عشر بحســـب ترتيبها التاريخى ، يدهش لاســـتمرار العلوم والمعارف ــ حلقة الاتصـــال التى

تربطها معـا . حقيقة لقد عبر عن هذا « هيتشينز » بقوله : يوجد هنا تقـدم « المحادثة العظمى » وقد أخذ كوبرنيكوس الايحاء من قدامى فلاسفة الاغريق ، ونيسوتن بدوره (وقف على أكتاف العمـالقة) كوبرنيكوس وجاليليو وكبلر وغيرهم ، وبدونهم ما كان لأنيشتاين أن يحدث أثرا . أما داروين فقد أعلن فى صراحة أنه مدين الى عدد كبير من علماء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا ، بنى على مؤلفاتهم نظريته عن أصل الأجناس .

ان فائدة هذا الكتاب الذى بين أيدينا ان به تعريفـا لأهم الكتب والكتاب يغرى جمهور المثقفين بقراءة الأصول ، ويتيح الفرصة لأصحاب المشاغل الجمة الذين لا يتسع وقتهم لقراءة أصول أمهات هذه الكتب أن يلموا بها الماما جيدا وكذلك يسعف ذاكرة قارىء الأصول على تذكر ما وعى منها ودرس .

ان القارىء العربى فى حاجة ماسة الى هذا الكتاب الذى يقدم عصيرا مفيدا لكل تلك الكتب التاريخية ، كما يقدم زبدة المعارف الانسانية التى لا غنى عنها فى تكوين المثقف الذى يعيش فى القرن العشرين وما بعده ، ونأمل أن المؤلف الشاب يتحفنا بجولات أخرى مع كتب أخرى أحدثت فى التاريخ آثارا قوية .

وبعد ..

فهذا كتاب هو فى ذاته كتب جمعها المؤلف من خزائن الدنيا بنية الخدمة والنفع . وما أحوج المكتبة العربية الى كتب تصدر من أمثال هذا المؤلف الموضوعى المفيد ...

فليكن هذا الكتاب أول بذرة تلقى فى هذه الأرض الطيبة .

وأقصى ما أتمناه أن يتلقاه القراء بالقبول لينتفعوا بقراءته . وأملى كبير فى أن يتلقف القراء هذا الكتاب الذى نجح فى أن يقدم ألوف الصفحات من الكتب التاريخية فى هذه الصفحات . وللمؤلف الشاب منى فى النهاية كما فى البداية كل شكر وتقدير لهذا الجهد البناء المخلص الذى أريد به الخير للناس ..

المقـــدمة

● ● كانت الكلمة بداية الانسان ، لانه بالكلمة أصبح الانسان انسانا٠٠فاللغة٠٠هي التي جعلت الانسان يتميز على بقيـــة الكائنات ، فهي أعظم آلة ذهنية اخترعها الانسان أو يمكن أن يخترعها في أى يوم من الأيام ، فهي أداة التخاطب والمعرفة والتفكير ، التي مكنت الانسان من أن يتعلم ويعلم ، ويتذكر ويتخيل ، ويبدع ويبتكر ، فنحن نقوم بهذه العمليات كلها من خلال اللغة التي تتألف من كلمات كل منها لمسمى من المسميات المادية أو المعنوية ٠

هذه اللغة بكل هذا الجلال والخطر في حياة الانسان أى انسان هي واحدة من تراث الانسانية ٠

ولكى يعرف الانسان لابد أن يقرأ ، والمطبعة هى أم المعرفة : لها ثمانية وعشرون جنديا هي حروف من الرصاص ، تنفذ الى المعانى ، فتنفتح مغاليق الجهالة ٠ وهذه الحروف تذوب في كتاب ، ثم ترسل اشعاعها عن طريق العين الى العقــل والقلب ، فاذا الاشـــعاع نور الدنيـا ، ولألأة الحضـــارات ٠

والكتاب في تحـديده المـادى هو مجمع الحروف والكلمات ، وفي تحديده المعنوى هو الوسيط بين ذهنين ينقل من هذا الى ذاك عصـــارة الفكر ، ويجعل بين الكاتب والقارىء مشاركة روحية يختلف أثرها باختلاف قوة طرفيها ٠

وأقدم الكتب هو هذا الكون الذى ألفه الخالق وما برح الناس على

مدى الأزمان يقرءون سطوره ويتملون معانيه ويتلقون عنه الوحي يسمو بأرواحهم الى عبادة ربهم الذى علم بالقلم .

وشاء الله بعد ذلك أن يوحى الى عباده بآيات الهداية والرشاد فكان الكتاب مجموعة وصاياه اليهم خطوها على ألواح من الحجر وعلى رق الحيوان [illegible] البردى ثم خطوا على هذه الصفحات كلها علومهم وآدابهم

ان — وما زال — للكتاب شأن وأى شأن فى جميع العصور فهو حرز لا يتداوله الا الكهنة وخدام المعابد ، ثم هو شيء نفيس لا يقتنيه الا الأمراء والزعماء ، ثم هو أداة للتثقيف والتهذيب تزخر به المكتبات العامة والخاصة ويحتفى به طلاب العلم أولئك الذين تضع الملائكة أجنحتها لهم .

وبالكتابة أخذ الانسان يدون على الحجر وعلى جلد الحيوان وعلى أوراق النبات وعلى ما صنعت يداه من نسيج صوف أو كتان ، محصوله من المعرفة : ما تلقاه مشافهة ، وما تعلمه من تجربته ، وما هداه اليه تفكيره ، وبالقراءة لم يعد فرضا على كل انسان (أو كل جماعة من البشر) أن يبدأ معرفته من الصفر ، بل أصبح بوسعه أن يستأنف من حيث انتهى من سبقه . وهكذا أصبحت المعرفة البشرية نسيجا متصلا عبر القرون ، يتعاقب النساجون وتتفاوت مهاراتهم ويتباينون تقليدا وابداعا ، ولكن النسيج لا ينقطع أبدا ما دب على سطح البسيطة بشر .

●●●

وهناك العديد من الكتب الهامة فى تاريخ الفكر البشرى والتي كان لها أكبر الأثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللعالم من حوله ، بل كان لبعض هذه الكتب أكبر الأثر فى ظهور ثورات غيرت الفكر الانسانى ، كما كانت أيضا بمثابة اضافات للحضارة الانسانية .

ومن بين هذه الكتب نجد الثلاثة عشر كتابا التى نتحدث عنها فى هذا الكتاب والتى كان لها تأثير كبير على التاريخ والاقتصاد والثقافة والفكر العلمى ... عبر العصور ، وهناك بالطبع العديد من الكتب الأخرى ذات الأهمية الفكرية الا اننا اخترنا عينات من هذه الكتب الهامة التى ألقت أضواء جديدة على الانسان وعلى الكون .

فمن خـلال هذه المؤلفات الكبيرة والتى ظهرت فى أوقات متبـاينة تتجسد القوى الهائلة لعالم الفكر والرأى على تقدم البشرية ٠

فكم من كتاب غير مسير الانسان

وكم من عظة أنجت أمة من ورطة

وكم ٠٠ وكم ٠٠

ولهذا عمدت الى جمع بعض هذه الكتب النافعة للبشرية فى هذا الكتاب ٠

والله المستعان أن يحقق به الفوائد وهو حسبى وكفى ٠



(١) الكتب الخمسة

كونفوشيوس

الكتب الخمسة
لكنفوشيوس
٥٥١ ق٠م ـ ٤٧٩ ق٠م

● **صاحب المدرسة الأخلاقية التى ساد نفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرنا !**

يعد كونفوشيوس واحدا من الرجال القليلين الذين أثروا تأثيرا عميقا فى التاريخ البشرى بقوة مواهبهم الشخصية والعقلية وبقوة انجازاتهم ٠ فقد كان حكيما وفيلسوفا سياسيا وأخلاقيا ودينيا ، وكان مؤسسا لمدرسة دينية ساد نفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرنا أو منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل القرن العشرين ٠

ولا يمكن تفسير حقيقة ظهور مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ على مسرح التاريخ البشرى تفسيرا كاملا ، ولكن بفحص ظروف حياتهم نستطيع على الأقل أن نزيد من قدرتنا على فهمهم ٠

ومما يصعب محـــاولتنا فهم كونفوشيوس هـو ضخامة الأساطير والأحاديث المنقولة التى تجمعت حول اسمه طوال القرون حتى صار من الصعب أن نعرف الحقيقة ٠ وتنبعث مثل هذه التعقيدات ٠ ان لم نقل

التحريفات ، عن عاملين اثنين مختلفين تمام الاختلاف ، فمن ناحية يلاحظ ان المؤمنين به رغبوا فى أن يمجدوه ، ومن ثم قاموا بتلك الأعمال المخلصة مثل وضع تاريخ دقيق لتسلسل نسبه يرجعه الى الأباطرة · ومن ناحية أخرى فقد عمل أولئك الذين كانوا يرون أن مصالحهم مهددة من جانب هذا المفكر الثائر على احباط هجماته على الامتيازات الحصينة بتحريف وتمويه ما كان عليه أن يقوله ، وقد نجحوا فى ذلك نجاحا جزئيا ، ومن ثم فان سبيلنا الآن هو أن نتغاضى تماما عن القصنة التقليدية عن حياته وعن فكره وأن نثق فى الأدلة القليلة التى يمكن انتزاعها من الوثائق التى يمكن اقامة الدليل على انها قديمة ويمكن الاعتماد عليها ·

● سيرة كنفوشيوس وبيئته الاجتماعية والثقافية

يتكون اسم كنفوشيوس وهو الاختصار اللاتينى Confecious لاسم الحكيم الذى نتحدث عنه ، من لفظين : كنج Kung وهو اسم القبيلة التى ينتمى اليها الحكيم ، ثم فوتسى Fu-tze ومعناه الرئيس أو الفيلسوف ، فاسم كنفوشيوس اذن يعنى رئيس قبيلة كنج وفيلسوفها أو حكيمها ، ولقد ولد هذا الحكيم سنة ٥٥١ قبل الميلاد فى ولاية « لو » Lu وكانت الصين فى ذلك الوقت تسير على النظام الاقطاعى ، فكانت منسمة الى ولايات وعلى رأس كل ولاية دوق أو وال يخضع للامبراطور كما كانت كل ولاية مقسمة الى مقاطعات على رأس كل منها نبيل · وكانت المقاطعات تؤلف كل ولاية فى تطاحن مستمر فيما بينها ، فكل منها كانت تحاول التوسع على حساب الأخرى ، وكذلك كانت الحال بين الولايات : عراك مستمر بين الولاة الذين كان يحاول كل منهم التوسع على حساب الآخرين · وكانت الحوادث تؤرخ بالنسبة لحكم الولاة والنبلاء ، فمثلا ولد كنفوشيوس فى السنة الثانية والعشرين من حكم هسيانج أمير ولاية « لو » ، وهى تقابل سنة ٥٥١ ق·م· ونشأ كنفوشيوس فقيرا فى خدمة أحد الأمراء الذى كلفه برعى الأغنام · وتفانى كنفوشيوس فى هذه الحرفة مما أدى الى زيادة انتاج الثروة الحيوانية فى الولاية ، ومن ثم رقى بعد ذلك الى منصب مشرف على الحدائق العامة بالولاية ، ثم اضطر الى ترك مسقط رأسه لكى يتنقل فى بعض الولايات المجاورة لانه شعر ان هذه الأعمال لا تناسب مواهبه ، وأخيرا أنشأ فى سن الثانية والعشرين مدرسة لتعريف الشبان ذوى المواهب الخاصة بأصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية ·

وكان تعليمه فى تلك المدرسة كتعليم سقراط شفهيا لا يلجأ فيه الى الكتابة ، ولهذا فان أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل الينا عن طريق اتباعه ومريديه ، وقد ترك الى الفلاسفة مثـــلا قل أن يعبأوا به ـ وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب اليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله فى هذا المعنى : « اذ لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى فى هذا ؟ فانى لا أستطيع أن أفعل له شيئا » . « انى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالافصاح عما يكنه فى صدره . واذا ما عرضت ركنا من موضوع ما على انسان ، ولم يستطع مما عرضته أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فانى لا أعيد عليه درسا » . ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس وهما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء ، وان لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الانسانية بأمانة واخلاص دون أن تصلح دراستها من خلقه وعقله . «وليس من السهل أن نجد انسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح انسانا صالحا » .

وسرعان ما التف الناس حوله حتى استطاع أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا مدرسته ليشغلوا مراكز خطيرة وليصبحوا من قادة الفكر والسياسة فى الصين القديمة ، كما كانوا هم الذين نقلوا آراءه فيما بعد . ولقد اتصل بفضل بعض تلامذته حوالى سنة ٥٢٤ ق.م بفيلسوف صينى آخر كان معاصرا له وهو « لا أوتسى » laotze وهو من أشهر فلاسفة الصين القدامى وهو الذى يعزى اليه المذهب أو الدين التاوى Taoism الذى يقوم على وجود Tao وهو القانون السماوى الأعظم ، وأصل الحياة والنشاط والحركة فى السماء والأرض وهو الذى يبعث الحياة فى الموجودات . ثم عاد كنفوشيوس الى « لو » مسقط رأســه ليستأنف التدريس هناك .

وكان كنفوشيوس معلما من الطراز القـديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبـذل ما فى وسعه للحـد من قوة الغرائز والشـهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح انه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقالة فيها بعض التواضع : « قد يوجد فى كفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى واخلاصى ولكنه لن يكون

مولعا بالعلم مثلى » . وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساويا لغيرى من الناس ، ولكن « خلق » الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل اليه بعد » . « من وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهرا بأعمال جليلة ، ، ولبلغت « الحكومة » درجة الكمال فى ثلاث سنين » . على أننا نقول بوجه عام انه كان متواضعا فى عظمته . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب ، كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيدا أو أنانيا » . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشىء » . وكان يدعى ان كل ما يفعله هو أن ينقل الى الناس ما تعلمه من الامبراطورين العظيمين « يو » و « شون » وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يترامى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكم من مرة رفض منصبا رفيعا عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الانسان أن يقول « لست أبالى مطلقا اذا لم أشغل منصبا كبيرا ، وانما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقا بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى ولكننى أعمل على أن أكون خليقا بأن يعرفنى الناس » .

★★★

وواتته الفرصة حين عين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة جونج — دو وتقول الرواية الصينية ان المدينة فى أيامه قد اجتاحها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان اذا سقط شىء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد الى صاحبه . ولما رقاه الدوق دنج دوق « لو » الى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة وأدخل اصلاحات جمة فى الشئون الزراعية ، ويقال انه لما رقى بعدئذ وزيرا للجرائم كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافيا لقطع دابر الجريمة . وفى ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلا برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والاخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى . وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب » .

ان هذا الاطراء سواء كان خليقا به أو لم يكن فانه كان أرقى من أن يعمر طويلا . وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للايقاع به . ويقول المؤرخ الصينى : ان الولايات القريبة

من « لو » دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضــة · ودبر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفرق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشــار على دوق تشى بأن يبعث الى تنج بسرب من حسان « الفتيات المغنيات » وبمائة وعشرين جوادا تفوق الفتيات جمالا· وأسرت الفتيات والخيل قلب الدوق فغفل عن نصيحة كنفوشيوس (« وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادىء الحكم الصالح هو القدوة الصالحة) ، فأعرض عن وزرائه وأهمل شئون الدولة اهمالا معيبا واضطر كنفوشيوس للاستقالة حاقدا على النساء اللائى أدين الى القضاء على مجهوداته فى اصلاح الولاية ، اذ قال فيهن فى كتاب الأغانى قبل تركه « لو » :

احذر لسان المرأة

انك لا شك ستلدغ منه ان عاجلا وان آجلا

واحذر زيارة المرأة

انها ستصيبك ان عاجلا وان آجلا

هى هو !! هى هو !! (علامة على التأوه من ألم ما أصابه من النساء)

اننى سأرحل الى مكان آخر

ثم بدأ كنفوشيوس فى الارتحال والتجوال بين الولايات الصينية ، وبدأ يتصل بالولاة ويقدم النصائح ويدرس للناس ويناظر العلماء والأدباء· ولما بلغ التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش « لو » وأرسل ثلاثة من موظفيه الى الفيلسوف يحملون اليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم ويدعـونه الى موطنه · وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززا مكرما ، وكثـيرا ما كان يتردد عليه زعماء « لو » يستنصحونه ، ولكنه أحسن كل الاحسان بأن قضى معظم وقته فى عزلة أدبية منصرفا الى أنسب الأعمال وأحبها اليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين · وكان يسلى نفسه فى وحدته بالشعر والفلسفة ، ويسره أن غرائزه تتفق وتتئذ مع عقله ، ومن أقواله فى ذلك الوقت : « لقد كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مكبا على العلم ، وفى الثلاثين وقفت ثابتا لا أتزعزع ، وفى سن الأربعين زالت عنى شكوكى ، وفى الخمسين من عمرى عرفت أوامر السماء ، وفى الستين كانت أذنى عضوا طيعا لتلك الحقيقة ، وفى السبعين كان فى

وسعى أن أطيع ما يهواه قلبى دون أن يؤدى بى ذلك الى تنكب طريق الصواب والعدل » ٠

ولم يكد كنفوشيوس يختم حياته ـ توفى عام ٤٧٩ ق٠م ـ حتى انتشر تلاميذه فى أحياء الصين ينشرون مبادئه وتعاليمه ، التى لم تلبث أن أخذت طابع القداسة وأصبحت دينا للصينيين ٠

⊕ مؤلفات المدرسة الكنفوشيوسية

لقد كانت الدراسات التاريخية أهم الدراسات السائدة فى الصين فى القرن السادس قبل الميلاد ٠ ذلك ان الصين كان بها حضـارة يانعة مزهرة فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية فى القرن العشرين قبل الميلاد ٠ وحدث بعد ذلك ان انحطت الأحوال فى الصين ابتداء من القرن العاشر ، كما تغيرت اللغة الصينية تغيرا كبيرا فى تلك الفترة بحيث أصبح رجل القرن السادس قبل الميلاد غير قادر على قراءة مؤلفات الحضارة الصينية العتيقة ، مما أدى الى شبه انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة وبين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد ، لذلك ركز كنفوشيوس جهوده فى نقل هذا التراث القديم الى لغة الصين الجديدة آنذاك مضيفا اليه أجزاء لا شك فى أصالتها من الحكمة والمعرفة ٠ وعلى ذلك درس كنفوشيوس وعلم كتب السابقين عليه فى التاريخ والتغييرات التى طرأت على الأرض وما عليها منذ أقدم العصور ٠٠ اعتمد فى هذا على الكتاب القديم المسمى Yiking أو كتاب التغيرات ، واستمر سنين عديدة يدرس هذا الكتاب الذى يرجع لسنين سحيقة ولا يعرف مؤلفه ٠ ان جهد كنفوشيوس الأكبر يظهر فى نقله التراث الصينى السحيق فى لغة بسيطة سهلة حتى يفيد منها الصينيون فى عصره ويعيدوا مجد أسلافهم القدامى ٠ لذلك كان يتنقل ويرتحل باحثا عن الآثار والوثائق القديمة ومنقبا عن كل ما عسى أن يساعده فى تقديم معلومات جديدة عن التاريخ الصينى السحيق ٠ كان يدرس التقاليد والعادات الدينية فى ولايات الصين المختلفة محاولا أن يصعد بها الى أصولها الأولى ، ولقد أدت مجهوداته فى النهاية الى تأليفه للكتب الخمسة أو الكلاسيكيات الخمسة Five classics ٠ وهى مؤلفاته التى يعرض فيها تاريخ الصين القديم وأصول ديانات الأسر الصينية القديمة وعشائرها وأصول الحكم السياسى فيها والمبادىء التى كان يقوم عليها

النظام السياسى • كما درس ونقل مجموعات الأغنيات التى صدرت عن تشى اس ثم هو تشى ، وهما يمثلان الأجداد الخرافيين لأباطرة دولة تشو الصينية • كما درس فروع المعرفة الستة التى كانت سائدة فى عصره ، وهى التى كانت تسمى بالفنون الستة وهى : الطقوس والموسيقى والرماية، وقيادة العربات والجياد ، والقراءة وأخيرا الرياضة والحساب • وكان تلاميذ كنفوشيوس يلقبونه باسم « معلم الجنس البشرى » بل كانوا يعدونه أعظم معلم « أنجبته العصور » • وكانوا ينقلون آراء أستاذهم ويعلقون عليها ويشرحونها • وتألف عن ذلك مدرسة كبرى هى المدرسة الكنفوشيوسية التى خدمت الصين أكثر من ألفى عام • لذلك تنقسم مؤلفات المدرسة الكنفوشوسية الى قسمين : قسم يسمى « الكتب الخمسة » وهى الكتب التى كتبها كنفوشيوس نفسه أو نقلها عن العصور السحيقة وأضاف اليها اضافات أصلية وهى كتب تحتوى على مذاهب السابقين على كنفوشيوس فى السياسة والفلسفة والدين والموسيقى • أما القسم الثانى ، فهو مؤلفات تلاميذ كنفوشيوس فى حياته أو بعد وفاته ، وفيها يعرض هؤلاء التلاميذ لآراء أستاذهم وفلسفته مع شرح وتعليق • وهذه الكتب الأخيرة مهمة جدا لانها تعد المرجع الرئيسى للفلسفة الكنفوشية وان كانت معظم أجزائها منقولة عن الكتب التى ألفها كنفوشيوس • ولكن أهميتها ترجع الى أنها تهتم بآراء كنفوشيوس اكثر من اهتمامها بالآراء والتقاليد التى كانت سائدة فى العصور السحيقة • كما أنها تشرح الفلسفة الكنفوشية بشكل مبسط سهل يرقى اليه تفكير الرجل العادى •

وسنعرض فى شىء من التفصيل لهذه المؤلفات ثم ننتقل الى شرح منهجه وأسلوبه فى هذه الكتب والمؤلفات وبعد ذلك نتعرض لنواحى فلسفته كما وردت على لسانه فى كتبه الخمسة •

أولا : الكتب الخمسة القديمة التى ألفها كنفوشيوس بنفسه وهى المسماة باسم الكلاسيكيات الخمسة :

١ ــ **كتاب الأغانى أو الشعر** : وهو يحتوى على ثلاثمائة وخمس من الأغنيات والتواشيح الدينية ، وذلك بجانب ستة تواشيح تغنى بمصاحبة الموسيقى ، وهى تعطى فكرة عن الأديان التى كانت سائدة فى الصين والفولكلور أو المرددات الشعبية الصينية فى العصور السحيقة •

٢ ــ **كتاب التاريخ** : وهو يشتمل على الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها السحيقة ولا سيما الأوامر والمراسم الملكية والامبراطورية • وقد جمع كنفوشيوس فى هذا الكتاب أهم وأرقى ما وجده

فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأقاصيص التى تسمو بها الأخلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين امبراطورية موحدة الى حد ما ، وحين كان زعماؤها ، كما كان يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أنانية لتمدين الشعب ورفع مستواه ·

٣ ـ **كتاب التغيرات** : وهو يبين فلسفة تطور الحوادث ، وقد ألف فى الأصل للافادة منه فى التنجيم ومعرفة الحوادث المستقبلة ، ولكن كنفوشيوس استطاع أن يحول « علم » التنجيم الى دراسة علمية للسلوك الانسانى وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن عن طريق هذه الدراسة التنبؤ علميا بسلوك الفرد فى المستقبل · وكان كنفوشيوس يرى فى هذا الكتاب خير ما أهدته الصين الى ذلك الميدان الغامض ، ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلج بابه في فلسفته ·

٤ ـ **حوليات الربيع والخريف** : وهو كتاب للتاريخ بمعنى الكلمة ، اذ قد عالج كنفوشيوس فى هذا الكتاب تاريخ الصين بالتفصيل أثناء قرنين ونصف من الزمان أو فيما بين سنتى ٧٢٢ و ٨٤١ قبل الميلاد ·

٥ ـ **كتاب الطقوس أو التقاليد** : وهو يعالج النظام السياسى لأسرة تشو القديمة ، وهى من الأسر الملكية الشهيرة التى لعبت دورا هاما فى تاريخ الصين فى العصور السحيقة ، كما يعالج عددا كبيرا من العادات والتقاليد الدينية والسياسية الهامة فى حياة الصين فى العصور التاريخية البعيدة وذلك لاعتقاده ان هذه التقاليد والقواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس القديمة التى لابد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام ·

ثانيا : الكتب التى كتبها تلاميذ كنفوشيوس :

١ ـ فصول من كتاب الطقوس « الأخلاق والسياسة » ·

٢ ـ فصول من كتاب الطقوس « الانسجام المركزى » ·

وهذان الكتابان عبارة عن أقوال مأثورة عن كنفوشيوس وأتباعه ومرجعهما الأساسى كتاب الطقوس مع تفسير هذه الأقوال ·

٣ ـ المنتخبات وبه ملخص لأقوال كنفوشيوس فى المناسبات المختلفة كما سجلها تلاميذه ·

٤ ــ منسيوس mencius وهو مؤلف كبير يحتوى على سبعة كتب تعالج مذهب كنفوشيوس · ومن المحتمل أن يكون مؤلف هذه الكتب السبعة منسيوس نفسه وهو تلميذ روحى لكنفوشيوس وقد تتلمذ فعلا على تزيتس حفيد كنفوشيوس ·

ولما كان كتاب المنتخبات يشتمل على ملخص لفلسفة كنفوشيوس بشكل أوضح منه نسبيا من الكتب الأخرى فقد انتشر بين تلاميذ المدرسة وأتباعها حتى عرف باسم انجيل الكنفوشية ·

● منهج كنفوشيوس فى كتبه الخمسة

واذا رجعنا الى مؤلفات كنفوشيوس والمدرسة الكنفوشية ، أى الى الكتب الكلاسيكية الخمسة ثم الكتب الأربعة التى كتبها تلاميذه ، لوجدنا انها فى الجزء الأكبر منها مكتوبة على صورة أمثلة سائرة وحكم ومواعظ منفصلة بعضها عن بعض ولا تربطها أية رابطة · وهذا هو الفرق الجوهرى فى أسلوب الكتابة بين كنفوشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة، فأفلاطون مثلا يكتب على طريقة المحاورات ويستطيع القارىء لمحاورة منها كالجمهورية أن يتبين آراءه ومذهبه ، وأرسطو يكتب على طريقة المحاضرة فيعالج موضوعا أو عدة موضوعات متكاملة · أما كنفوشيوس فهو يذكر أمثلة وقصصا مسرودة الواحدة بعد الأخرى ولا رابطة بينها ، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التى يحتوى عليها كل كتاب · لذلك قد عرف كثير من العلماء كنفوشيوس بانه الرجل الذى لا يتكلم الا بحكم وأمثال قصيرة منفصلة ، كما كان بعضهم يرى استحالة استخلاص مذهب فلسفى أو اجتماعى من تلك الكتب التى هذه حالها · ولكن العلماء الصينيين فى كل عصر من العصور ، ثم العلماء الأوروبيين قد استطاعوا بعد دراسة هذه الكتب استخلاص المذهب الفلسفى الكنفوشي واتجاهاته فى السياسة والاقتصاد والدين ··· وفى غيرها من المجالات الأخرى ، تلك هى السمة الأولى من سمات كنفوشيوس فى كتبه وسنورد بعضا من حكمه وأمثاله ·

« الرجل الذى يخطىء ولا يصلح خطأه يرتكب خطأ جديدا ، الرجل الذى يعشق الحق أفضل من الذى يعرف الحق ، وذلك الذى يجد سعادته فى الوصول للحق أفضل مما يعشق الحق ، اذا وجدت شخصا يستحق

أن تتحدث معه ولم تخاطبه فانك تكون قد افتقدته ، واذا وجدت شخصا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته فانك تكون قد أضعت كلامك سدى ٠ والرجل العاقل هو من لا يفتقد الرجال ولا يضيع كلامه سدى ، وسئل الحكيم مرة عن حكمه على شخص يحبه كل أفراد القرية ، فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم سئل عن رأيه فى شخص يكرهه كل أفراد القرية فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم أضاف « ان الشخص الفاضل هو من يحبه الصالحون من أفراد القرية ويكرهه منهم الطالحون » ٠ « ان الانسان هو الذى يجعل الصدق عظيما ، وليس الصدق هو الذى يجعل الانسان عظيما » ٠ وقال عن الكلام الجيد « ان الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول الا كلاما جيدا ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لا يكون دائما ذا أخلاق كريمة » ٠ أى قد يكون منافقا ٠ ويقول « ان الرجل العاقل لا يمدح الناس على أساس أقوالهم (بل على أســاس أفعالهم) ولا ينكر الحقيقة اذا كانت صادرة عن شخص لا يرتاح اليه ، اذ الحقيقة جميلة أيا كان مصدرها » وسئل مرة عن صفات الحكم المثالى فأجاب « بأنه الحكم الذى يجد الناس تحت ظله غذاء كافيا ، وجيشا جرارا يحميهم ، وثقة عظيمة فى حكامهم » وسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة اذا دعت ضرورة الى ذلك فقال « أفضل أولا الاستغناء عن القوة أو الجيش » ثم سئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك فأجاب « أفضل الاستغناء عن الطعام ، اذ ما أكثر من ماتوا جوعا من الأفراد فى كل جيل منذ أن وجد الانسان ، ولكن لم يحدث أن عاشت أمة بدون ثقة فى حكامها » ٠ ويقول عن الفضائل وما يعتريها من نقائص « حب الانسانية بدون حب للدراسة يولد الجهل ، وحب العلم بدون حب الدراسة يؤدى الى الضلال وعدم التثبت ، وحب الاخلاص بدون حب للدراسة يؤدى بصاحبه الى آن يكون ضحية الخداع ، وحب الاستقامة بلا دراسة يؤدى الى الرعونة التى لا حدود لها ، وحب الشجاعة بلا دراسة يؤدى الى التمرد ، وحب العزم والمثابرة بلا دراسة ينتهى بصاحبه الى الخبل أو التعلق بفكرة متسلطة » ٠ ويقول عن ثقافة الشعب : عندما أدخل قطرا من الأقطار أستطيع آن أعرف بسهولة نوع الثقافة السائدة فيه ، اذ عندما أجد فى الناس رقة الطبع والشفقة والبساطة فان هذا يدل على تعلقهم بالشعر ، وعندما يكون الناس واسعى الأفق ، عارفين لماضيهم فان هذا يدل على تمسكهم بالتاريخ ٠ أما اذا كانوا كرماء متفاهمين بعضهم مع بعض ، فان هذا يدل على سيادة الموسيقى ٠ واذا كان الشعب هادئا مفكرا ذا قوة وملاحظة فان هذا يدل على سيادة فلسفة التعبير ٠ ولكن اذا ساد التواضع والاحترام والقناعة فى عادات الأفراد فان هذا يدل على سيادة تعاليم الله » ٠

أما السمة الثانية فى أسلوب كنفوشيوس فهى استخدامه نوعا من القياس المسمى بالقياس المتتابع ، اذ اتضح أنه ليس أرسطو هو أول مفكر استخدم منهج القياس المنطقى المتتابع ، وهو يقوم على عدة أقيسة متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التى انتهى اليها القياس السابق عليه • وهذا المنهج يسيطر على جزء كبير من كتاباته ، ومن أمثلة ذلك القياس قوله : « اذا فهم الانســان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فانه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردى والأخلاقى ، واذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردى فانه سيفهم كيف يحكم الناس ، واذا فهم كيف يحكم الناس فانه سيفهم كيف يحكم الأمم والامبراطوريات » • أو قوله عن الصدق : « ان الحق المطلق غير قابل للتحطيم ، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد ، ولما كان خالدا فانه موجود بذاته ، ولما كان موجودا بذاته فهو لا نهائى ، ولما كان لا نهائيا فهو واسع وغميق ، ولما كان واسعا وعميقا فهو متعال وروحى ••• » • ويصف الطريق السليم الذى يجب أن يسلكه الحاكم حتى يكون فاضلا بقوله : « لا مناص للرجل الذى ينتمى لطبقة الحكام من أن يكون ذا سلوك منظم فاضل ولكن لكى يكون ذا سلوك فاضل عليه أن يؤدى واجباته نحو ذوى القربى ولكى يؤدى واجباته نحو ذوى القربى عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الانسانى والقواعد التى يقوم عليها التنظيم الاجتماعى ، ولكى يفهم طبيعة المجتمع الانسانى عليه أن يفهم القوانين الالهية » •

● جوهر الفلسفة الأخلاقية عند كنفوشيوس

الأخلاق ـ فيما يرى كنفوشيوس هى المبدأ الرئيسى الذى يجب أن يكون أساسا لأى نظام اجتماعى وسياسى مستقر ، فلا يتحقق نظام سليم الا اذا كان الأفراد الخاضعون له متحلين بالأخلاق الكريمة • ولا يستطيع حاكم أن يقيم نظاما اجتماعيا كاملا الا اذا عمل أولا على تكميل أخلاق الأفراد أنفسهم ، فاذا شعر كل انسان بالانسجام الداخلى والراحة النفسية تسيطر على ذاته عمل على تثقيف نفسه وتجميلها بالمعارف التى تجعل منه مواطنا يفهم العادات والتقاليد والقوانين التى تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم يعامل مواطنيه وفق هذه القوانين ويسود الانسجام بين الناس • ولا تتم الأخلاق الكريمة للفرد الا بالتعليم والتربية التى تخلق منه مواطنا صالحا والتى يكون عليها الاعتماد الأكبر فى تهذيب الأخلاق • وثمة شرط ثان

لانتشار الأخلاق الفاضلة التى هى عماد الحكم الصالح ، وهو أن يكون الحاكم نفسه ذا أخلاق سليمة لأنه مثال لمواطنيه ، فاذا وصلت أخلاق الأفراد الى الكمـال قامت الأخلاق مقام القانون ، لذلك كان الكنفوشيون يمقتون التشريعات والقوة كأساس للحكم السياسى • فهم يرون أن تهذيب أخلاق الناس عن طريق التعليم يجعلنا نستغنى عن القوة وعن القـانون والتشريعات والقضاء • ويقول كنفوشيوس : « انك اذا قدت الناس وفق قوانين اجبارية وهددتهم بالعقاب ، فقد يحاولون اتقاء العقاب ، ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف ، ولكنك اذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شئونهم بالتربية فان علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام » • وبذلك خالفوا المدرسة القانونية التى كانت ترى ان القوة لازمة لتنظيم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، كما خالفوا المذهب التاوى وهو مذهب « لا أوتسى » الذى كان ينادى بالسلبية المطلقة ، أى أن يعيش الفرد لنفسه وبنفسه بدون أدنى تفكير فى الآخـرين • وسـنرى كيف اسـتخدم كنفوشيوس الموسيقى والفنون فى علاج نفسيات الأفراد وفى تقريب مشاعرهم بعضهم من بعض ، كما اهتم بالطقوس الدينية والعادات والتقاليد لأنها تقرب بين الأفراد وتؤلف بينهم وتجعلهم يشعرون بوحدتهم وتضامنهم ••• وكل ذلك يؤدى الى وجود الحب والانسجام بين المواطنين ، مما يؤدى بهم بدوره الى الاستغناء عن القوة وعن القانون فى فض المشكلات وفى الزام الأفراد بالقانون الأخلاقى •

ولكن ما هو القانون الأخلاقى فى فكر وفلسفة كنفوشيوس ؟

ان هذا القانون هو قاعدة السلوك السليم القويم ، وهى القاعدة التى يلتمسها كل انسان فى سلوكه ، ومصدر هذه القاعدة هو الله أو السماء فهو الذى شرعها ونظمها ، ومن ثم فهى لا تقبل التغير والتبدل • ولقـد وضعت السماء جوهر هذه القاعدة فى كل بناء بشكل كامل • ذلك ان الله قد منح كلا منا طبيعته العقلية ، وهى الطبيعة التى تجعلنا أحياء مفكرين • والقاعدة الأخلاقية ليست شيئا آخر الا توجيه أفعالنا الانسانية بما يتفق وطبيعتنا العقلية الالهية • ومجموع القواعد الأخلاقية التى تنظم سلوكنا وهى ما نسميها باسم الواجبات موجودة فينا ، ونشعر بها عندما تريد فعلا من الأفعال اذ نشعر انه أخلاقى وغير أخلاقى ، فالانسان اذا رجع الى نفسه عرف القانون الأخلاقى بكل جلاء ، ولكن قد يخطىء بعض الناس لجهلهم التفرقة بين الخير والشر ، لذلك كان التعليم ضروريا حتى يتقى الانسان الخلط بين الخير والشر اذا رجع الى نفسه يستشف منها القواعد الأخلاقية •

والقواعد الأخلاقية عند كنفوشيوس هى وسط بين الافراط والتفريط ، لان الطبيعة الانسانية تقوم على عنصرين : الذات الانسانية الحقة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقى كما يسميه كنفوشيوس ، ثم الانفعالات التى تستيقظ فى النفس الانسانية . وهذه الانفعالات اذا استيقظت ونمت فى الانسان بحيث لا تتعدى حدا معينا فى شدتها فانها تصل مع الذات الانسانية المحضة الى حالة من الانسجام والاستقرار النفسى ، فالشخص قد يخشى الرذيلة ويبالغ فى هذا الى حد التريث حتى يصل الى درجة تعلو على مستوى القانون الخلقى ويقع فى الرذيلة ، فالقانون وسط بين المغالاة والتهاون . وهنا نجد كنفوشيوس قريبا مما سيقوله أرسطو عن الفضيلة وانها وسط بين رذيلتين .

والحياة الأخلاقية عند كنفوشيوس أشبه شىء بسفرة طويلة يقطعها الانسان بادئا بأقرب نقطة فيها ، وعلى ذلك فالأخلاق الفاضلة تبدأ بين أبناء الأسرة الواحدة حيث يعامل الأب أبناءه بنفس المعاملة التى كان ينتظرها من والده . وكذلك تكون معاملة الأبناء للآباء والأمهات ، فالأسرة هى المكان الأول للتجربة الأخلاقية وهى النقطة الأولى التى تبدأ منها الأخلاق الفاضلة . وكما يقول كنفوشيوس فى كتاب الشعر :

عندما تسود الألفة بين الزوج والأولاد والزوجة
فما أشبه المنزل بربابة وعود قد تآلفت أنغامهما !
وعندما يعيش الاخوة فى تآلف وسلام
فحينئذ يظل المنزل الى الأبد فى وحدة وانسجام .

فاذا حسنت أخلاق أفراد الأسرة ، ومعاملاتهم حسنت أخلاق المجتمع لأن المجتمع ليس الا امتدادا للأسرة ، ولاننا « اذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فان المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، واذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على الشفقة والعطف ، واذا عملت كل أمة على اصلاح حالها فان الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الانسانى بأسره » .

● ● ●

اذن كانت الأخلاق مطلب كنفوشيوس وهمه الأول ، وكان يرى ان الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الايمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ . ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة الى العقائد القديمة وانما علاجها هو البحث

الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم · والفقرتان الآتيتان المنقولتان من كتبه تعبران أصدق تعبير وأعمقه عن المنهج الفلسفى الكنفوشى :

« ان القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الامبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدأوا بتهذيب نفوسهم ، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم الى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لا يكون الا بالبحث عن حقائق الأشياء ·

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ، ولما صلح حكم ولاياتهم أضحت الامبراطورية كلها هادئة وسعيدة »[٥]·

تلك هى مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفى وسع الانسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعانى التى هى « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الانسانية · ويقول كنفوشيوس : « ان العالم فى حرب لأن الدول التى يتالف منها فاسدة الحكم ، والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة · والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعى الطبيعى ، لان الناس ينسون انهم لا يستطيعون تنظيم اسرهم من غير أن يقوموا نفوسهم ، وهم يعجزون عن أن يقوموا نفوسهم لانهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ، وقلوبهم غير طاهرة لانهم غير مخلصين فى تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها ، وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لان أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم الى أقصى حد مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثا منزها عن الأهواء ، فليسع الناس الى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا فى تفكيرهم ، وليخلصوا فى تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ، ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ، ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ، وليس

الذى تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التى تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذى يصلحها هو ما للقدوة الحسنة من قوة صامتة . ولتنظيم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والاخلاص والقدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسها نظام اجتماعى يتيسر معه قيام حكم صالح » .

● طريقة الرجل الأعلى

واذن فالحكمة فى فلسفة كنفوشيوس تبدأ فى البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الأسرة المنظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته فى أن الرقى الذاتى أساس الرقى الاجتماعى ، ولما سأله تزه ــ لو « ما الذى يكون الرجل الأعلى ؟ » فأجابه بقوله : « أن يثقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام » ، ونحن نراه فى مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالى كما يراه هو جزءا جزءا ــ والرجل المثالى فى اعتقاده هو الذى تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منها الحكيم . والانسان الكامل الاسمى فى رأى كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونيتشه والمسيح كما يرى الكمال كل الكمال فى كل واحدة منها بمفردها ، وتلك هى الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفى ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل الى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع الفكر غير متشيع الى فئة ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شىء غير صحيح » .

ولكنه ليس رجلا ذكيا وحسب ، وليس طالب علم ومحبا للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ، « فاذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفا ، واذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ، أما اذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيلة » . فالذكاء هو الذهن الذى يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الاخلاص ، « وليس الاخلاص الكامل وحده هو الذى يميز الرجل الأعلى » . « انه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل » « ولدينا فى فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك ان الرامى اذا لم يصب مركز الهدف رجع الى نفسه ليبحث فيها عن سبب عجزه » .

« ان الذى يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما فى نفسه . أما الرجل المنحط فيبحث عما فى غيره ··· والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ألا يعرفه الناس » ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر فى ألا يذكر اسمه بعد موته » وهو متواضع فى حديثه ولكنه متفوق فى أعماله ·· قل أن يتكلم ، فاذا تكلم لم يشك قط فى انه سيصيب هدفه ·· والشىء الوحيد الذى لا يدانى فيه الرجل الأعلى هو عمله الذى لا يستطيع غيره من الناس أن يراه » · وهو معتدل فى قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط » فى كل شىء ذلك ان « الأشياء التى يتأثر بها الانسان كثيرة لا حصر لها ، واذا لم يكن ما يحب ويكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته الى طبيعة الأشياء التى تعرض لها » « والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركاته فى جميع الأجيال طريقا عاما ، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانونا عاما ، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه فى جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ » ·

●●●

وعلى الحاكم أن يتحلى أيضا بالأخلاق لأنه مثال للأفراد ، وعليه فى هذا الصدد التزامات تسعة :

١ ـ أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق للأفراد العاديين ·

٢ ـ أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه ·

٣ ـ أن يتودد الى من تربطه بهم صلة القربى وأن يقوم بالتزاماته ازاءهم كاملة ·

٤ ـ أن يجل وزراء ولايته وامبراطوريته ·

٥ ـ أن يعامل موظفى دولته بالحسنى ·

٦ ـ أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصى وأن يجعل من نفسه أبا للشعب ·

٧ ـ أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بهـا ·

٨ ـ أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين فى دولته ·

٩ ـ أن يهتم برفاهية أمراء الامبراطورية ·

ويجب ألا ينسى الامبراطور أو الوالى أن يستمع الى نصيحة الشعب لأن « ما تراه السماء وتسمعه ليس شيئا آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه، وما يعتبره الشعب جديرا بالثواب والعقاب هو ما تعتبره السماء جديرا بالثواب والعقاب ، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب • وعلى من يدبرون شئون الشعب أن يرعوا ذلك ويتدبروه » • وكثيرا من العلماء وجد فى هذا الكلام أساسا للديمقراطية السياسية التى نادى بها كنفوشيوس ، ونستطيع أن نقارن بين هذا القول وبين ما جاء على لسان الفلاسفة اليونان والرومان من أن صوت الشعب من صوت الله Vox Populi, Vox Dei • بل كان كنفوشيوس يعتبر أن الحكم تفويض من السماء أو الله للحاكم فهو خليفة استخلفه الله على الأرض ، وهذا التفويض ليس أبديا بل يمكن أن يسحب منه فى أى وقت لا يلتزم فيه بالقانون الأخلاقى لأن السماء لا تمنح التفويض الا للحكام الذين يتمسكون بالمثل الأخلاقية • ويقول فى هذا المعنى فى كتاب التاريخ : « ان توكيل السماء للحاكم ليس أبديا ، وهذا يعنى أن الحاكم يظل متمتعا بهذا التوكيل الالهى طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير ، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم » • ثم يضيف الى ذلك : « ان بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة الله أو ارادته ، وارادة الله هى ارادة الشعب فاذا نال الحاكم عطف الشعب وحبه فان الله العلى السامى ينظر اليه بعين الرضا ويوطد عرشه • أما اذا فقد حب الشعب وعطفه فان العلى السامى يصب غضبه عليه ، ومن ثم يفقد دولته » •

ذلك تلخيص الفلسفة السياسية والأخلاقية الكنفوشية ، ولكن المجتمع الذى نادى كنفوشيوس بوجوده مجتمع طبقى اذ كان يريد مجتمعا يوضع فيه كل انسان فى الطبقة التى تؤهله لها كفاياته ، فالناس مختلفون فمنهم الغبى والذكى ومنهم حسن الخلق وسيئه ، ويقتضى العدل الكنفوشى ألا يكون الناس فى منزلة واحدة • والقانون الأخلاقى يلزمنا أن نضع كل انسان فى مكانته ووفق صفاته وكفاياته وأخلاقه لأن « الله اذ وهب الحياة لمخلوقاته لا شك وهبها من النعم ما يتناسب مع صفاتها فهو ينمى الشجرة الممتلئة بالحيوية ، على حين انه يطيح بتلك التى قد يتطرق اليها الفساد ••• » ولكن طبقات كنفوشيوس ليست طبقات مقفلة على أصحابها بل هى طبقات مفتوحة يستطيع كل انسان أن يصل اليها ما دامت أخلاقه تؤهله لذلك • ولكل طبقة طقوس وعادات وتقاليد خاصة بها وأنواع من الاحترام والتبجيل خاصة بها ولها وضعها فى السلم الاجتماعى وذلك هو الـ Li (لى) أو النظام الاجتماعى الذى نادى كنفوشيوس بتحقيقه •

● أهمية الموسيقى عند كنفوشيوس

ولقد اهتم كنفوشيوس بالموسيقى وكان يعتبرها من العمد الرئيسية التى يقوم عليها نظامه الاجتماعى ، وكان يستخدمها فى علاج الأمراض النفسية كما فعل كثير من الفلاسفة القدامى وكما يفعل كثير من العلماء اليوم • فالموسيقى خاصة والفنون عامة ليست ترفا عقليا ، بل هى تلعب دورا اجتماعيا فعالا فى اصلاح الحياة الاجتماعية • فالنفس الانسانية (والنفس والقلب عند كنفوشيوس شىء واحد) اذا تأثرت بالعالم الخارجى وما به من ظواهر طبيعية واجتماعية فانها تعبر عن هذا التأثير بأصوات تختلف فى درجتها ونوعها حسب كل حالة على حدة ، أى تعبر عن التأثر بصوت ، واذا رتبت الأصوات بشكل معين نتج عنها النغم ، واذا رتبت الأنغام نتجت عنها الموسيقى • وفى القلب الانسانى أوتار مختلفة كل منها مرتبط بانفعال نفسى خاص ، فعندما تمس الحوادث الجارية وترا فى القلب فان الانسان يعبر عنه بنغم معين ، فالنغم الذى ينتج عن وتر الحزن الموجود فى القلب يكون بائسا حزينا ، والنغم الذى ينتج عن وتر الاطمئنان يكون هادئا والنغم الذى ينتج عن وتر الغضب يكون خشنا ، والنغم الذى ينتج عندما تمس الحوادث وتر الحب يكون رقيقا ••• وهكذا • وهذه الأنغام تنتج اذن من التقاء الحوادث بالقلب الانسانى ، فالموسيقى اذن تعبر عن النفس الانسانية وما يعتريها من انفعالات • ونستطيع بشكل عكسى أن نؤثر على الحالات النفسية عن طريق الموسيقى ، فنهدىء النفوس أو نثيرها أو نقلقها أو نحزنها أو نفرحها عن طريق الأنغام الموسيقية ، وعلى ذلك نستطيع اصلاح النفوس بالموسيقى وترقيق مشاعر الأفراد وتحسين علاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض عن طريقها ، ومن ثم يستطاع تدعيم التضامن الاجتماعى بين الأفراد عن طريقها ودراسة نفسية أى شعب ومدى تقدمه وتأخره ، اذ أن موسيقى الشعوب التى يعمها الرخاء والسلام موسيقى هادئة ، وبالعكس نجد موسيقى الشعوب التى تعمها الفوضى موسيقى مضطربة صاخبة ، تؤدى الى القلق وعدم الاطمئنان ، وموسيقى الشعوب المغلوبة على أمرها موسيقى حزينة كئيبة مليئة بالمرارة والأسى • ولا تعكس الموسيقى النفس الانسانية فحسب ، بل هى تعكس النظام الكونى كله •

وقصارى القول هنا ان الموسيقى تمثل بأنغامها المختلفة كل شىء فى الوجود والمجتمع ، ويستطاع عن طريقها اصلاح ما اعتل من شئون هذا العالم سواء الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية أو الفردية • لذلك _ كما

يقول كنفوشيوس – يجب على الأفراد أن يتعلموا الموسيقى لأنها تؤدى بهم الى مداواة أنفسهم من الأدواء وتجعلهم أقرب الى فهم القانون الالهى والقانون الأخلاقى ومن ثم تجعلهم أقرب الى الفضيلة ٠

●●●

تلك لمحة سريعة عن كتب كنفوشيوس الخمسة وما أدت اليه من كتب أربعة كتبها تلاميذه ومحتويات هذه الكتب ، وهكذا نرى أن كنفوشيوس يعتبر من أعظم من كتب في سياسة الأمم والجماعات ووضع القواعد التى يراها مؤدية لسعادة الجنس البشرى ٠ فقد رسم بكل تفصيل ودقة كل ما ينبغى للفرد ، كل فرد ، أن يحصله ويتعلمه ويجيده لكى يجعل من نفسه « الانسان الكامل » ورسم بكل دقة وتفصيل ، كل ما يلزم لتنظيم علاقات أفراد الأسرة الواحدة ، لكى تكون أسرة سعيدة وناجحة ٠

ورسم أيضا باسهاب وفى غير ملل أو كلل ، كل ما يلزم للحاكم وجهاز الحكم ، من مبادىء وقواعد ونظم لكى يتحقق ما نسميه اليوم مجتمع الرفاهية والعدل ٠ ويمكننا تلخيص تعاليم كنفوشيوس التى ملأت عشرات المجلدات ومئات الكتب فى كلمة واحدة هى « الانسانية » ٠

فالفضيلة بالنسبة للانسان هى أن تحب الناس ، والحكمة فى أن تفهمهم ٠ واذا كانت الأسرة هى صورة المجتمع ، فان الجنس البشرى كله يؤلف أسرة واحدة ، ويقول أحد تلامذته : ما بين البحار الأربعة ، جميع الناس اخوة ٠

● « أثر كنفوشيوس فى الأمة الصينية »

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحا كاملا ٠ لقد كان يضرب فى فلسفته على نغمة سياسية عملية حببتها الى قلوب الصينيين بعد أن زال بموته كل احتمال لاصراره على تحقيقها ٠

واذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضـون أن يكونوا أدباء فحسب ، فان أدباء القـرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد الاستمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا الى السلطان وتسنم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الامبراطورية بأجمعها ٠ وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس

فلسفة كنفوشيوس التي تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونماها منشيس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام • وأضحت هـذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من الوجهة السياسية ، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقـافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعى فى العصور المظلمة التى تلت سقوط روما •

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة « القانونيين » استطاعت أن تناهض وقتا ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسة ، وأن تسير الدولة حسب مبادئها فى بعض الأحيان •

ومن أقوالهم فى الرد على كنفوشيوس ان نظام الحكم على المثل الذى يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين ، يعرض الدولة لأشد الأخطار ، اذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادىء المثالية • وهم يقولون ان الحكم يجب أن يستند الى القوانين لا الى الحكام ، وان الناس يجب أن يرغمـوا على طاعة القوانين حتى تصبح اطاعتها طبيعـة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين • ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغا يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فانهم لا يصيبون الرخاء الا تحت حكم جماعة من الأشراف •

هذه الآراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت الى الظهور مرة بعد مرة فى تاريخ الحكومة الصينية •

ولكن فلسفة كنفوشيوس كتب لها النصر آخـر الأمر • وسنرى فيما بعد كيف سعى شى هوانج ــ دى صاحب الحول والطول يعـاونه رئيس وزراء من طائفة القانونيين ، للقضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجودا وقتئذ من الكتابات الكنفوشية • ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان •

ولم يكن لعداء « الامبراطور الأول » من نتيجة الا أن يجعل الكتب التى أراد أن يعدمها كتبا مقدسة قديمة ، وأن يستشهد الناس فى سبيل المحافظة عليها • حتى اذا انقضى عهد شى هوانج ــ دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش امبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابئها وعين العلماء الكنفوشيين فى مناصب الدولة ، وثبت حـكم أسرة « هان » ، وقوى دعائمه ، بأن أدخـل آراء كنفوشيوس وأساليبه

الحكيمة فى برامج تعليم الشبان الصينيين وفى الحكومة ٠ وقربت القرابين تكريما لكنفوشيوس ، وأمر الامبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمى ٠

ولما جلس على العرش تاى دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس فى كل مدينة وقرية فى جميع أنحاء الامبراطورية ، وأن يقرب له فيها القرابين العلماء والموظفون ٠ وفى عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أضافت شروحا وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته اليها من شروح مختلفة فى بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت فى اليابان نهضة فلسفية قوية ٠ وظلت مبادىء كنفوشيوس من مبدأ قيام أسرة هان الى سقوط أسرة منشو ــ أى ما يقرب من ألفى عام ــ تسيطر على العقلية الصينية وتصوغها فى قالبها ٠

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ، ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلا بعد جيل النصوص المقررة فى مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبى يتخرج فى تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التى يمتاز بها الحكيم القديم فى قلوب الصينيين ، وسرت فى دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقا فى التفكير لا نظير لهما فى غير تاريخهم أو فى غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متآلفة ، وأن تبعث فى نفوس أبنائها اعجابا شديدا بالعلم والحكمة ، وأن تنشر فى بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التى اجتاحت بلادها ٠

فهل فى مقدور انسان أيا كان شأنه أن يسيطر بفكره وفلسفته على تفكير أمة كالأمة الصينية أكثر من عشرين قرنا من الزمان كما فعل كنفوشيوس العظيم ٠



(٢) الجمهورية

أفلاطـون



الجمهورية
لأفلاطون
ح ٤٠٠ ق٠م

« البحث عن سعادة البشرية »

لقد كثر الفلاسفة المتشائمون من وصف الحياة وذمها ، فقالوا : انها حياة شقاء أولها عناء ، وآخرها فناء ، حتى انه قيل لأرسطو مرة : « صف لنا الدنيا ! » فقال : « ما أصف من دار أولها فوت ، وآخرها موت ؟ كأن الحياة هي سجن العاقل وجنة الجاهل وكأنها جسر نعبره ولا نعمره ، أو كأنها مزرعة ابليس ، والأشرار لها حراثون » ٠ فالمتشائم لا يعتقد ان المدينة السعيدة موجودة على الأرض ، ولا يثق بصلاح الانسان بل يزهد في الحياة لكثرة شرورها ، ويعرض عنها ، ويرغب في سعادة الآخرة ، وعدالة ملكها القادر على فصل الخير عن الشر » ٠

على أن طائفة من الفلاسفة المتفائلين تصوروا امكان هذه المدينة السعيدة ، فحلموا بها ، وتخيلوها تحت تأثير الشرور والمفاسد التي

شاهدوها فى زمانهم ، فعــدد أفلاطون فى جمهوريته شرائط الفردوس الأرضى ، ونسج كثيرون من المفكرين على منواله ، فألف الفارابى مدينته الفاضلة فى القرن العاشر للميلاد ، وتصور توماس مور مدينته الخيالية فى القرن الســادس عشر ، واتبعهم كامبانيللا (١) فى مدينة الشمس ، باحثين كلهم عن شرائط الحياة المثلى ، التى تقرب حياة الدول والأفراد من أسباب السعادة الحقيقية ، فهم يعتقدون ان فى وسع الانسان أن يجد شيئا من السعادة فى هــذه الدنيـــا ، وان فى وسع الدول أن تصــلح شرائعها ، وتبنى قوانينها على العدالة وتعطى كل ذى حق حقه ٠

ومن أوائل المفكرين الذين تصدوا للبحث عن المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية كان أفلاطون مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده وهو كتاب « الجمهورية » ٠

والواقع أن أفلاطون من أنبغ نوابغ الفكر ، وأول الفلاسفة ، وأشهر الحكماء ، وهو أول من أنشأ المدارس الفلسفية العظيمة فكانت الأكاديمية احدى مدارس أربع أثرت أعظم الأثر فى الحضارة القديمة ٠ وقد ظلت مدرسته قائمة فى أثينا حيث أنشأها تسعة قرون حتى أغلق الامبراطور جستنيان أبوابها وطرد فلاسفتها ، ثم استمرت الأفلاطونية مؤثرة فى الفكر حتى الوقت الحاضر ٠ وقد قيل ان الفلسفة قد بنيت على يديه واكتملت فى حياته ، وذلك لأنه ضرب من كل فن ، وطرق كل باب ، وبحث فى كل علم ، وأرسى قواعد الفلسفة ، وشيد قوائم العلم ، وهو أول من كتب فى المدينة الفاضلة ، وأول من حاول اصــلاح المجتمع بتطبيق الفلسفة على السياسة ، وأول من حلل النظم الاجتماعية وعرف طبائعها ٠

والاجماع منعقد على أن الحضارة الغربية ثمرة الأفلاطونية ، فقد تسربت الى المسيحية وصبغتها بالمثالية ، وثبتت قواعدها ، وتعلمها جاليليو فوضع علم الفلك الحديث ، وسار العلم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم على سنة التفسير الرياضى الذى ذهب اليه أفلاطون ٠

وكذلك تسربت الأفلاطونية الى الحضارة الاسلامية ، واتجهت فى أول أمرها وجهة أفلاطونية قوية تبدو فى الكندى وفى الفارابى صاحب الجمع بين رأيى الحكيمين ، والذى كتب فى المدينة الفاضلة متأثرا خطى

---

(١) كامبانيلا : فيلسوف ايطالى (١٥٦٨ ــ ١٦٣٩ م) ٠

صاحب الأكاديمية · واليوم تجد الأفلاطونية شائعة بين الناطقين بالضاد ، فنحن نقرأ عن الحب الأفلاطونى ، والبحث الأكاديمى ، والتفكير المثالى ، وغير ذلك مما يجرى على كل لسان ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنه قد لا يعرف ما وراء ذلك فى فلسفة تنادى بهذا الضرب من الحب ، أو هذا اللون من البحث ، أو هذا اللون من التفكير ·

● حيـــاة افلاطون

ولد أفلاطون فى شهر مايو سنة ٤٢٧ قبل الميلاد ، وعاش حتى بلغ الثمانين وتوفى سنة ٣٤٧ ق·م ، وكان مولده فى جزيرة قريبة من شاطىء أتيكا لا تبعد كثيرا عن أثينا تسمى « ايجيتا » حيث استقر فيها مؤقتا أبوه أرسطون ·

ويزعم قدماء الرواة أن اسمه كان فى الأصل أرسطوقليس ، ثم لقب بعد ذلك بلقب اشتهر به هو أفلاطون : أى عريض الجبهة ، أو الأكتاف، أو الصدر ، أو الفكر والأسلوب ·

وهو من ناحية الوالدين شريف النسب ، فأبوه أرسطون ينحدر من صلب قودرس آخر ملوك أثينا الأقدمين والذى حقق النصر لشعبه على الدوريين وهزمهم فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ويزعمون أنه من نسل الاله بوزيدون · أما أمه « فاريقطيونى » فهى من أسرة حكام أثينا ومشرعيها وتمت بالصلة الى صولون(٢) المشهور ، وكان أفلاطون يعتز بنسبه فسجله فى محاوراته ، تعرفنـــا الشىء الكثير عن آبائه من هـــذا الطريق ·

وقد عاش أفلاطون طيلة حياته مؤمنا بأن صلاح الدولة فى اقتران الفلسفة بالسياسة واتصـــاف الحاكم بالحـــكمة · وقد نشأ فى بيت من الحـــكام ، وكان أجـــداده من الملوك والمشرعين ، فلا غـــرابة أن ينسج على منوالهم ، ولكنه أضاف الى السياسة المأثورة شيئا جديدا هو الفلسفة ·

---

(٢) صولون : مشرع أثينى ذاع صيته كشاعر حتى أصبح واحدا من حكماء الاغريق (٦٣٩ ق·م ــ ٥٥٩ ق·م) ·

وينبغي أن يستقر في أذهاننا من أول الأمر أن أفلاطون لم يكن من الفلاسفة الذين كانوا يعيشون في برج عاجي ، أو يفهمون الفلسفة على أنها البحث عن الحقائق الميتافيزيقية المجردة بصرف النظر عن صلتها بالحياة العملية •

ومع أن الرواة يمرون في صمت على طفولة أفلاطون ، الا أننا نستطيع أن نتصور أنه تعلم كغيره من صبيان الاغريق القراءة والكتابة ، وحفظ شعر هوميروس ، ومبادىء الحساب والهندسة والموسيقى ، وأنه تعلم الغناء والعزف على القيثارة وكذلك الألعاب الرياضية •

ويقـال انه هوى من الفنــون الجميلة ومارس في صباه النقش والتصوير والنحت وقرض الشعر وكتابة التمثيليات ، فهو في كثير من محاوراته يستعمل لغة الفنانين واصطلاحاتهم وينقدهم نقد الخبير • ويروى القدماء انه حين قابل سقراط أحرق التمثيليات التي كان قد كتبها وانقطع منذ ذلك الحين الى الفلسفة •

وأهم شخصية أثرت في تفكير أفلاطون هو سقراط ، فقد كان من جملة أصحابه وأصدقائه لان سقراط لم يكن صاحب مدرسة بالمعنى المفهوم من كلمة « مدرسة » • وقد بين لنا أفلاطون مدى علاقته بأستاذه فقال : « حين كنت شابا توقعت كما يتوقع في الغالب الشباب أن أشارك في الحياة العامة للمدينة عندما أبلغ الرشد • وقد شهدت من التطورات في الموقف السياسي السخط العام على الدستور القائم • ثم حدث تغيير أدى الى استيلاء واحد وخمسين شخصا على السلطة ، بقي عشرة منهم في أثينا ، وأحد عشر في بيرايوس ، ولم تقف سلطتهم على مباشرة الحال في الأسواق فقط بل على العناية بجميع شئون المدينة كذلك • أما الثلاثون الآخرون فكانت لهم على الجميع سلطة مطلقة ، وكان منهم بعض أقربائي وأصدقائي، فدعوني الى الاشتراك معهم باعتبار أن هذه الأعمال من جملة ما يشتغل به أمثالي ••• ولكنني تبينت بعد قليل أن مسلكهم جعل الدستور القديم بالنسبة الى حكمهم ذهبيا ، هذا الى أنهم أرسلوا صديقي القديم سقراط الذي لا أتردد في القول بأنه أعدل رجل في عصره ••• للقبض على مواطن في المدينة •••• فلما رأيت جميع هذه الأحداث وغيرها من الجرائم التي لا يمكن غض النظـر عنهــا اشمأزت نفسي وانسحبت من شرور ذلك الزمان »••

ويذكر أفلاطون بعد ذلك كيف رغب بعد سقوط حكومة الثلاثين في المشاركة في السياسة وفي الحياة العامة لولا أن عمل بعض الحكام على تقديم « سقراط صديقي وصاحبي الى المحاكمة باتهام من أفظع الاتهامات

وأبعدها عن الانطباق على سقراط ، اذ حوكم بتهمة الالحاد ، وحكم عليه بالموت ، ونفذ الحكم فيه » •

ويصور لنا أفلاطون الأحوال السياسية التى ساءت فى تلك الأيام وموقفه منها ، واشمئزاز نفسه من مفاسدها ، سواء من جهة الاحكام أم من جهة القوانين والتقاليد ، ولم تكن الحال فى أثينا أحسن من غيرها من المدن فجميعها فى الفساد سواء ، ولذلك فهو يقول : « لن يخلص الجنس البشرى من متاعبه الا بأن يستولى المشتغلون اشتغالا حقيقيا بالفلسفة على السلطان السياسى أو بأن يصبح أصحاب السلطان فى المدن فلاسفة حقيقيين » • وهذا هو المحور الذى دارت عليه فلسفة أفلاطون وهو العمود الفقرى فى مدينته الفاضلة نعنى : الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم •

رحل أفلاطون بعد موت سقراط الى أقليدس(٣) فى ميجارا ومكث عنده طويلا ، وتواترت الروايات على أنه رحل بعد ذلك الى مصر ، فهذا شيشرون(٤) يذكر أنه زارها مما يدل على أن الرواية قديمة وانها كانت متداولة فى الأكاديمية بعد موت صاحبها بمائتى عام • ويذكر سترابون(٥) أنه زار المنزل الذى كان يعيش فيه أفلاطون فى مصر ، وذلك بعد ثلثمائة عام من موته • ومما يؤكد هذه الروايات اهتمام أفلاطون بمصر بوجه خاص ، ومعرفته الشىء الكثير عنها ، ووصفه لأمور تدل على الرؤية والمعاينة ، مثل آثارها وفنونها ، ونظم التعليم السائدة فيها ، والعلوم التى اشتهرت بها وبخاصة الرياضة •

ثم رحل من مصر الى تورينا فى شمال افريقيا حيث لقى ثيودورس الرياضى الذى ذكره أفلاطون فى ثلاث من محاوراته ، وتوجه بعد ذلك الى تارنتوم فى جنوب ايطاليا ، وكانت معقل الفيثاغوريين حيث لقى زعيم المدرسة الرياضى أرخيتاس الذى لعب دورا كبيرا فى تفكير أفلاطون ، فرأى فيه الصورة العملية للحاكم الفيلسوف ، وأخذ عن مدرسته كل ما يخرج عن مسائل السلوك والأخلاق ، وهذه المسائل هى خلود النفس والرياضة بفروعها : العدد والهندسة والموسيقى • وهكذا أشبع أفلاطون رغبته فى الاتصال بالفيثاغوريين والارتشاف من مناهل علومهم •

---

(٣) اقليدس : رياضى يونانى نشا بالاسكندرية فى عهد بطليموس • وازدهر ح ٣٠٠ ق٠م •

(٤) شيشرون : خطيب وكاتب وسياسى رومانى (١٠٦ ق٠م ــ ٤٣ ق٠م) •

(٥) سترابون : جغرافى ومؤرخ يونانى (٦٤ ق٠م) •

وفى عام ٣٨٧ ق٠م وقد بلغ أفلاطون الأربعين ، أسس فى أثينا أول وأقدم جامعة فى العالم ، وهى الأكاديمية التى ظل يشرف عليها عشرين عاما ، وكان يبغى من تعليمه فى هذه الأكاديمية هدفا سياسيا هو تكوين فئة من الفلاسفة المستعدين لنشر نظريات اجتماعية وسياسية فى أنحاء بلاد اليونان ٠

ويذهب بلوتارخ أن أفلاطون لم يترك لنا مجرد مذهب نظرى فى السياسة بل تعدى ذلك حين أخرج سياسيين ومشرعين أمثال « ديون » من صقلية و « بتون » و « هيراقليد » فى ترافيا و « أودوكس » وأرسطو اللذين شرعا قوانين لكنيدوس واسطاغيرا ٠

ولقد عنى الباحثون بمحاورات أفلاطون وصنفوها تصنيفات مختلفة ٠ غير أن أهم هذه التصنيفات ما اعتمد على تطور لغة أفلاطون على مدى حياته الطويلة فرتبت الى ثلاث مجاميع ، مجموعة محاورات الشباب ويدور أكثرها حول حياة سقراط وآرائه ومجموعة النضج ومجموعة الشيخوخة وفيهما تطورت نظرياته عما كانت عليه فى عهد الصبا ٠

أما محاورة الجمهورية فتعد أهم ما كتب أفلاطون لما تضمنته من نظريات مختلفة ارتبطت لتكون نظرة عامة لحياة الانسان والمجتمع ، وكان لها فى تاريخ الفلسفة فيما بعد تأثير لم ير مثله كتاب من كتب الفلسفة ٠

● موضــوع محاورة الجمهورية

غاية بحث أفلاطون فى هذه المحاورة هو تحديد صورة الدولة المثالية التى تتحقق فيها العدالة ٠

ولما كانت العدالة فضيلة النفس الفردية كما هى نظام يتعلق بالدولة فقد اقتضى بحثه تفسير طبيعة الانسان وتكوين الدولة على حد سواء حتى يمكن تحديد الظروف الواجب توافرها لكى تتحقق العدالة فى كل منهما ٠

ويجد قارىء محاورة الجمهورية ان البحث عن العدالة وشروط تحققها فى المجتمع المثالى يستغرق سبعة أبواب من الأبواب العشرة التى يتكون منها الكتاب ٠

ثم يعرض أفلاطون لتفسير مصادر الفساد الذى يصيب الدولة والفرد ويقابل بينه وبين دولته المثالية وأخلاق مواطنها المثالى وبين الدولة الفاسدة التى تفسد فيها أخلاق المواطنين ، ويضع أفلاطون قانون تدهور التاريخ من الدولة الصالحة الى الصورة الفاسدة ، ويستغرق بحث هذا الموضوع البابين الثامن والتاسع من الكتاب ·

وفى الباب العاشر والأخير من الكتاب يختتم أفلاطون حديثه عن العدالة بتأكيد قيمتها وما يترتب على وجودها من خير للمجتمع وللفرد ويقدم نقده للفن ويبين الأسباب التى من أجلها حكم على شعراء التراجيديا وهوميروس بالطرد من مدينته الفاضلة ويصف ما ينتظر النفوس من حساب عادل فى العالم الآخر ·

هذا مجمل الموضوعات التى وردت فى محاورة الجمهورية ويمكن تلخيصها فيما يلى :

- تعريف العدالة وشروط تحققها فى الدولة وفى الفرد ويستغرق تقريبا من الباب الأول الى الباب السابع ·
- مصادر الفساد فى الدولة وفى الفرد ويستغرق البابين الثامن والتاسع ·
- آراؤه فى الفن وفى النفس الانسانية ويستغرق الباب العاشر ·

العدالة وشروط تحققها فى الدولة والفرد

(أ) الآراء المختلفة فى العدالة :

يعد الباب الأول من الجمهورية بمثابة مقدمة للمحاورة ، وحين يستطرد الحديث الى السؤال عن العدالة تتضح لنا ثلاثة آراء مختلفة تعبر عن مواقف ثلاثة متباينة من مشكلة العدالة هى رأس كيفالوس الشيخ وابنه بوليمارخوس ويمثل الرأى السائد عند عامة الناس ، ثم رأس تراسيماخوس السفسطائى ويمثل المذاهب الجديدة فى الأخلاق والسياسة

وهو الرأى الذى يعارضه سقراط والذى يمثل رأى أفلاطون وموقفه المثالى الأرستقراطى فى العدالة ٠

ويدور الحديث فى محاورة الجمهورية بأسلوب رواية يرويها سقراط لمستمعين غير معروفين عما جرى فى اليوم السابق عند بوليمارخوس بن كيفالوس حيث التقى هناك بعدد من الشخصيات بعضها معروف وبعضها غير معروف مثل كيفالوس الشيخ الثرى وأبنائه ومنهم بوليمارخوس الذى سيروى حديثه فى المحاورة ، ومن الحضور أيضا السفسطائى تراسيماخوس اخوا أفلاطون أديمانتوس وجلوكون ابنى أريستون ٠

وحين يتطرق الحديث عن العدالة يتقدم بوليمارخوس بن كيفالوس بتعريف استمده من الشاعر سيمونيدس فيقول ان العدالة تقضى بأن يرد الانسان لكل ماله ٠

ويوضح هذا التعريف فيقول ان العدالة هى معاملة كل حسب ما يستحق ، أو معاملة الأصدقاء بالخير ان كانوا أخيارا والأعداء وهم الأشرار بالشر ٠

ورغم التعديلات التى يضيفها بوليمارخوس تحت ضغط مناقشة سقراط يرفض الجميع هذا التعريف لانه ينطوى على تناقض ، اذ كيف يضر العادل أعداءه وبمعنى آخر كيف يقترف العادل ظلما بعدالته ؟

وسرعان ما يتدخل فى الحديث تراسيماخوس الذى يمثل الآراء الجديدة المتطرفة فى السياسة ، فيعترض معلنا ضيقه من جدل سقراط وتلاعبه بالألفاظ ويقدم تعريفا ثانيا للعدالة ، وهو تعريف ينطوى على مبدأ سياسى أخذت به دولته الأثينية التى توسعت فى سياسة الاستعمار وفرضت الحق بالقوة على جميع مستعمراتها ، فيقول : « ان العدالة ليست سوى العمل بمقتضى مصلحة الأقوى ٠ ويفسر تراسيماخوس معنى الأقوى بقوله ان الحاكم يفرض على المحكوم مصلحته والعدالة هى ما تفرضه ارادة الحاكم أو الأقوى ٠ لكن مثل هذا التعريف انما يفيد أن العدالة متغيرة بتغير نظم الحكم وانها نسبية لظروف الحكام فى الدول المختلفة ، ومثل هذا التفسير انما يقترب كل الاقتراب من فلسفة السفسطائيين معارضى سقراط وأفلاطون وعلى رأسهم بروتاجوراس القائل ان الانسان هو مقياس كل شىء ٠

وفى مقابل هذه المذاهب النسبية الواقعية من الأخلاق يأتى سقراط وتلميذه أفلاطون بفلسفة مثالية تؤكد أن للقيم الأخلاقية وجودا ثابتا

لا يتغير من زمان لزمان أو مكان لمكان كما أنها مطلقة لا تحتمل أى تغير أو تبديل ٠

ويبدأ الباب الثانى بتدخل شخصية أخرى تؤيد مذهب تراسيماخوس هى شخصية جلوكون الذى يسترسل فى بيان ما يعتقده عامة الناس عن العدالة ، فيقول ان الناس لا ترغب فى العدالة لذاتها ولا يلتزمون بهـا الا مجبرين حتى لا يصيبهم أذى من غيرهم ان عرفوا بالظلم ٠

وهنا يتحفز سقراط للرد على هذا الرأى لكى يثبت لهم العكس وهو أن للعدالة فى ذاتها قيمتها وانها الخير الوحيد للنفس الانسانية وبهـا وحدها يدرك الانسان السعادة ٠

ويحثه جلوكون وباقى الحاضرين على اقناعهم بأن العدل خـير من الظلم وأليق بالانسان ٠ وتخطر لسقراط فكرة قمينة بأن تهديه الى سبيله فى شرح رأيه فى العدالة فيقول لنفرض ان قوما من ضعاف البصر أرادوا أن يقرأوا لوحة مكتوبة بالأحرف الصغيرة وأن أحدهم وجد المكتوب فيها مكبرا فى لوحة كبيرة ، ألا يشير عليهم بأن يقرأوا الكتابة مكبرة ثم يعودون الى مقارنتها فى النقش الصغير ؟ اننى سأتبع نفس الطريقة فى بحثى عن العـــدالة ٠

أليست العـدالة موجودة فى الدولة كمـا هى موجودة فى الفرد ؟ أليست الدولة أكبر من الفرد ؟ وما دام الأمر كذلك فسيكون من السهل علينا أن نتبين سماتها وطبيعتها عندما ننظر اليها فى الدولة وبعد ذلك تقارنها بالعـداالة فى الفرد لنجـد التشابه بين الصورة المكبرة والصورة المصغرة ٠

(ب) العـــدالة فى الدولة :

لنبحث أولا كيف تنشأ الدولة لنرى بأى الطرق يمكن للعدالة أن تتحقق فيها ولقد سبق ان ذكر أفلاطون كيف نشأ المجتمع الانسانى وتطور وأظهر فى محاورتى السياسى والقوانين حنينه الى العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه الانسان فى بساطة لا تعرف التعقيد ويعول على الطبيعة فى كل شىء ٠ وفى محـــاورة بروتاجوراس يذكر على لســان السفسطائى بروناجوراس أسطورة يفسر بها كيف تطور الانسان من الحياة البدائية الى الحياة المدنية فيروى ان الآلهة بعد أن وزعت المواهب على أنواع الحيوان المختلفة لم تبق للانسان شيئا من المواهب والقوى الطبيعية ، ولكن الاله بروميثيوس حامى الانسان وراعيه سرق له النار والفنون العملية وعلمه

استخدامها ليدافع عن نفسه ويستطيع البقاء · لكن المعرفة العملية لم تكفه فى ضغط حياته وكان لابد لكى تنتظم حياته الاجتماعية من معرفة أخرى لذلك وهبته الآلهة معرفة العدالة والعفة لتنتظم حياته الاجتماعية وترتقى علاقاته ومدنيته ·

والى مثل هذا التفسير يشير أفلاطون فى محاورة الجمهورية فيقول ان الفرد وحده ضعيف ومن ثم يكون الاجتماع ضرورة تحتمها الحياة الانسانية ·

وينشأ عن اجتماع الأفراد الحاجة الى تقسيم العمل فيما بينهم من أجل توفير كافة حاجاتهم الضرورية ، وتكون حياتهم فى بادىء الأمر بسيطة طبيعية لأنها تتجنب المشاكل التى تنجم عن ازدياد عدد السكان والتى تؤدى الى قيام المنازعات والحروب ·

وحاجات الانسان لا تقتصر على متطلبات الحياة المادية وانما ينبغى لأهل المجتمع أن يتذوقوا الفنون والآداب وبارتقائهم فى أساليب الحياة يطلبون الترف وتزيد حاجاتهم الى الكميات فتشتبك المصالح وتنشأ الحروب · ومن هنا ينبغى تكوين طبقة من المحاربين المحترفين يتولون حراسة المدينة والدفاع عنها عند الاعتداء عليها كما تحتاج المدينة الى طبقة من الحكام يوجهون الرعية الى العمل الصالح ويرشدون المدينة الى طريق الخير ويحققون لها العدالة ·

فما هى شروط هذه الطبقة التى ستتولى حماية المدينة وقيادتها ؟

يقول أفلاطون ينبغى اختيار أفراد هذه الطبقة منذ الصغر ، فيختبرون اختبارات متعددة لنتبين من كان منهم ذا نفس عالية ولياقة بدنية بل يرى تخويفهم بوسائل مختلفة ليرى أيهم أثبت جنانا وأشد مراسا ، يقول لنختبرهم كما يختبر الذهب بالنار ، وبعد أن يتلقوا تربية وتعليما طويلا يختار أصلحهم ليكون حاكما أما من يلونه فيكونون مساعدين له أو حراسا وجنودا ·

ولكى نتبين صفات هؤلاء الحراس يكفى أن ننظر الى كلاب الصيد والحراسة الأصيلة النوع فنجدهم أوفياء أرقاء لأصدقائهم وأصحابهم وأقوياء أشداء على أعدائهم وكذلك يكون حراس المدينة فيما بينهم ولأعدائهم · ولكنهم سيجمعون الى هذه الصفات الأخلاقية ، الروح الفلسفية التواقة للعلم والمعرفة · ولذلك يضع أفلاطون نظاما معينا فى التربية والتعليم ·

ويقول أفلاطون انه ينبغي مراقبة كل ما يصل الى أسماع هؤلاء الحكام فى طفولتهم من قصص أو فنون تؤدى الى انحراف ذوقهم وأخلاقهم، وانما ننمى فيهم القدرة على تذوق الجمال حتى يتوفر لنفوسهم التناسب والاتزان بواسطة الموسيقى والفنون الجميلة التى ترهف أذواقهم كما تقوى الرياضة البدنية أجسامهم ·

وان كنا نربى حكامنا من الصغر على الصدق وباقى الأخلاق الكريمة الا أننا سنبيح كذبة نلقنها لجميع المواطنين اذ نروى لهم انهم جميعا اخوة لأن الأرض هى أمهم جميعا ، لكن الاله الذى خلقهم قد مزج فى طبيعة بعضهم ذهبا ليكونوا حكاما وأدخل فى طبيعة بعضهم فضة ليكونوا حراسا وجندا وخلط الباقين بالحديد والنحاس ليكونوا فلاحين وصناعا منتجين حاجات الانسان المادية ·

كذلك يؤكد أفلاطون انقسام المجتمع الى ثلاث طبقات متمايزة بحكم الطبيعة ويرى ان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث وظيفة هيأتها الطبيعة لها وخصتها بها بحيث لا ينبغى لها أن تتدخل فى عمل الطبقة الأخرى ·

ويترتب على ذلك أن تختص الطبقة الممتازة فى المجتمع بالحكم ولا يشاركها فيه أحد من الطبقات الأخرى وخاصة الطبقة المنتجة لانها لا تملك الحكمة ولا التربية ولا التعليم الذى يهيؤها للاشتراك فيه ! لذلك نراه يخص كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث بفضيلة تناسب طبيعتها ففى حين يختص الحكام بفضيلة الحكمة ويختص الحراس بفضيلة الشجاعة يقول ان فضيلة الطبقة المنتجة من الشعب هى فى التزامها العفة أو الاعتدال تعنى بتنظيم ملذاتها وانفعالها بحيث تتحكم دائما فى شهوتها ·

هذه الفضائل الثلاث هى الشروط الواجب توافرها فى طبقات الشعب لكى تتوفر العدالة فى الدولة · وتعريف العدالة بناء على ذلك يتلخص فى تأدية كل فرد فى الدولة للوظيفة التى هيأته لها الطبيعة والتزامه بالفضيلة المناسبة بطبقته وعلى العكس يكون الظلم والشر حين يتعدى أحد الأفراد أو الطبقات على عمل غيره بعبارة أخرى تضيع العدالة فى رأى أفلاطون لو شارك الاسكافى أو النجار فى عمل الفيلسوف الحكيم الذى له وحده حق توجيه الحكم وبهذا يصدم أفلاطون أو مبادىء حكم الديمقراطية فى عصره وفى كل عصر ·

● الشيوعية فى طبقة الحكام

يقول أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » انه يتبع الطبيعة عندما ينادى بالشيوعية وبمساواة النساء والرجال فى طبقة الحكام ٠ ألا ترى الأنثى من كلاب الصيد والرعى تشارك الذكر كل شيء ؟ كذلك ستكون نساء دولتنا يربين تربية الرجال ويتلقين تعليم الرجال ثم يولين نفس المهام فى السلم والحرب كالرجال على السواء ٠ ذلك أن لهن ما للرجال من مهارات فى العمل أما اختلاف الجنس فليس سببا يمنعهن عن مزاولة ما هن جديرات به من أعمال ٠

ولما كانت المرأة ستشارك الرجل فى جميع الأعمال الخاصة بطبقة الحكام فقد ترتب على ذلك الغاء نظام الزواج والأسرة فى طبقة الحراس٠٠ فلن يختص أحد من هذه الطبقة بزوجة أو بولد وانما ستكون جميع النساء والأولاد مشاعا بينهم ٠ ويربى الأطفال فى دور حضانة ترضعهم الأمهات وتتركهم لمربيات مختصات حتى يتفرغن لأعمالهن ٠ ويحدد للنساء والرجال فى هذه الطبقة سنا لا ينبغى لأحد منهم أن ينجب قبل بلوغه ولا بعد تجاوزه حتى لا ينشأ الأطفال ضعفاء اذ يبغى أفلاطون بهذه الفكرة المحافظة على السلالة النقية التى يوليها الحكم ٠ ويحرم زواج الأخوة وينظم الزيجات فى الخفاء حتى يتحكم فى انجاب نسل ممتاز ٠

ولقد قصد أفلاطون بشيوعية النساء والأولاد ازالة أسباب الخلاف بين أفراد وطبقة الحراس ومن أجل ذلك ذهب الى تحريم الملكية الخاصة على أفراد هذه الطبقة وطالب بأن يعيشوا عيشة مشتركة تكفلها لهم الدولة ٠

ولا يخفى ما تنطوى عليه أفكار أفلاطون هنا من تأثر كبير بما كان يجرى فى عصره فى اسبرطة (٩) وكريت حيث كانت تحكم فى هذه البلاد طبقة من الأرستقراطية الدورية التى حافظت على نظمها الحربية لتضمن بقاءها فى أرض غزتها وبقى أهلها الأصليون مغلوبين على أمرهم زراعا يقومون على خدمتهم وكان الحكام فى هذه البلاد يربون تربية مشتركة ويعيشون فى معسكرات من سن العشرين الى الثلاثين ٠

● ● ●

---

(٦) أسبرطة : مدينة يونانية قديمة كانت عاصمة لاكونيا ٠

أما الموجة العاتية الثانية التى يلقى بها أفلاطون بعد قوله بشيوعية النساء فهى قوله :

« ما لم يتول الفلاسفة فى الدول أو أن يتحول من نسميهم ملوكا وحكاما الى فلاسفة حقيقيين ، وما لم نر القوة السياسية تتحد بالفلسفة وما لم تسن قوانين دقيقة تبعد من لم يجمعوا هاتين القوتين فلن تنتهى الشرور من الدول بل من الجنس البشرى » ٠

لكن ما الذى يعنيه أفلاطون بالفلسفة ؟

انها عنده محبة الحكمة أو محبة المعرفة والسعى الى الحقيقة ٠

ونجد الأبواب الثلاثة من الكتاب – من الخامس الى السابع – استطرادا يشرح فيه أفلاطون فلسفة الميتافيزيقية فى الوجود ذلك لأنه يعد دراسة الفلسفة أهم شرط من شروط تكوين الحكام فى الدولة العادلة وهى وحدها الدراسة الكفيلة بالارتفاع بهم من القيم والمبادىء الواقعية التى يأخذ بها أكثر رجال السياسة فى عصره ومن يماثلهم من الخطباء والسفسطائيين أمثال جورجياس وبروتاجوراس وايزوقراط الى القيم والمبادىء المثالية التى ينبغى أن تقوم عليها المدينة الفاضلة ٠

(ج) العدالة فى الفرد :

وبعد أن يكون أفلاطون قد انتهى من تعريف العدالة فى المجتمع وشروط تحققها يقول ان العدالة فى الفرد لا تختلف عنها فى المدينة لأنها ليست الا صورة مصغرة لها ٠

ان العدالة فى النفس الفردية ليست سوى ائتلاف قوى النفس المختلفة لتقوم كل منها بالوظيفة الخاصة بها وتتوفر لها الفضيلة المناسبة لها فالقوة الشهوانية فضيلتها العفة تلزمها حدودها وتمنعها من تجاوز حدود الاعتدال ، والقوة الغضبية فضيلتها الشجاعة تبين لها ما ينبغى لها المبادرة بفعله وما ينبغى لها تجنبه ، وللقوة العاقلة فضيلة خاصة بها هى الحكمة التى تبين لها الخير الأقصى الذى ينبغى أن تتجه له النفس ٠

فاذا انتظم عمل هذه القوى وتمت لها هذه الفضائل الثلاث تحققت العدالة لأنها تعنى فى النفس ما تعنيه فى الدولة من انصراف كل قوة من قواها الى عملها الخاص وانتظام كل هذه القوى بحيث تخضع القوة الشهوانية للقوة الغضبية وهذه بدورها للقوة العاقلة التى توجه عمل الجميع الى الخير بمقتضى ما لها من حكمة ٠

●●●

● مصادر الفساد فى الدولة والفرد

بعد أن انتهى أفلاطون من وصف دولته المثالية ومواطنها الحكيم العادل بقى عليه أن يبحث فى الدول الفاسدة وصفات مواطنيها وحكامها ، وغايته فى النهـاية أن يبين الفرق الشاسع بين سعادة المدينة الفاضلة وشقاء المدينة الظالمة ٠

ولقد كان بحثه هذا من جهة أخرى بحثا فى أسباب وعلم تدهور التاريخ فى سـيره من النظم المثالية الى النظم الأكثر نقصـا حتى الدول الفاسدة تماما ٠

ولكن ما هى الدساتير والنظم الناقصة فى رأى أفلاطون ؟

انها دساتير كريت واسبرطة الثيموقراطية (٧) ثم الاوليجارشية (٨) ومقـابلها الديمقراطية وأسوؤها جميعـا الطغيـان آخر درجات التدهور والفساد ٠ وهكذا يكون لدينا خمسة دساتير واحد فقط منها هو الدستور الصالح ودستور المدينة المثالية الأرستقراطية وأربعة دساتير فاسدة ، ويقابل هذه الدساتير خمسة أنماط لأخلاق الانسان لأن طباع الناس هى التى تكون الدساتير المختلفة ٠

ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذى بدأ فى هذه الدراسة للدساتير اذ كان الناس فى اليونان يتباهون بالديمقراطية الأثينية وخاصة الخطباء والسياسيون والسفسطائيون ٠ ولقـد ملأ انتصـار اليـونان على الفرس نفوسهم عزة وفخارا ، ألم يقهروا تلك الجمـاعات التى يحكمها سـوط الطـاغية ؟ ولكن من جهة أخـرى كان الصراع بين أثينـا واسبرطة على السيطرة على باقى بلاد اليونان يمثل من جهة أخرى صراعا بين نظـامين داخليين بين الديمقراطية الأثينية والأرستقراطية الحربية فى اسبرطة ، ولقد جند هذا الصراع الأقلام كما جند الجيوش وأريقت فيه الدماء والأموال على السواء وحدثنا هيرودوت عن النظم الثلاثة المعروفة فى اليونان وهى الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ٠

وعلى العموم يمكن أن نقسم حديث أفلاطون من خلال كتابه فى هذا الموضوع الى ثلاثة أجزاء هى :

---

(٧) التيموقراطية : هى حكومة الارستقراطية الحربية ٠

(٨) الأوليجارشية : هى حكومة الأقلية الغنية ٠

١ – من الثيموقراطية الى الديمقراطية :

ان الدستور المثالى عندما يتحقق فى الواقع يتعرض لظروف التغير والنقص فتتحـول المدينة الفاضلة من دولة أرستقراطية تحـكمها عقول الحكماء الى دولة ثيموقراطية تحكمها العاطفة والحماسة والقوة الغضبية ٠

وترجع أهم أسباب تغير الحـكم وفسـاده الى الفسـاد الذى يصيب حكام المدينة ٠ اذ يحدث نتيجة عـدم مراعـاة قوانين الوراثة والزيجات الخاطئة أن يعقب الحكام نسلا لا يماثل طبيعة آبائه فى الأصالة والامتياز، وعندئذ يختلط المعدن الذهبى والفضى بالحديد والنحاس فيقع الحكم فى يد طبقة يتغلب على طبيعتها الحقد والكراهية وتسودها الحماسة للحرب والنضال فتكون دولة الأرستقراطية الحربية أو الثيموقراطية ٠

أما عن أخلاق مواطن هذه الدولة فهى أخلاق المحارب الذى لا يتحمس لشيء قدر حماسته للرياضة والصيد والحرب ولا يقدر من الأعمال سوى الأعمال التى تجلب المجد والشرف وتراه فى صباه لا يكترث بالمال ولكنه بتقدمه فى العمر يأخذ فى تقدير الثروة ويتجه الى لذات الحياة ذلك لأن القوة العاقلة فيه قد تخلت عن القيادة للقوة الغضبية والحماسية ٠

واذا ساء حال الثيموقراطية تحولت الى أوليجارشية أى حكومة القلة التى تسعى الى جمع المال بحيث لا يكون للفقير فيها أى نصيب ولا للفضيلة أى حساب ٠ وينتهى الأمر بانقسام المدينة الى مدينتين : مدينة للأغنيـاء ومدينة للفقراء كل منهما تتآمر على الأخرى ويملؤها الشك منها ٠

ويحدث هذا حين يعقب الحاكم الثيموقراطى ابنا لا يقدر فى حياته الا المال ولا يكترث لما يكترث له الأب من مثل المجد والشرف والكرامة ، وانما تراه يكره كل هذه القيم ولا يجد لها فى قلبه مكانا الى جانب حب المال والثروة والشهوة للماديات لذلك يسجد العقل والشجاعة عنده على قدمى الشهوة ٠ ولكن اذا ساء الحال ودب الفساد فى الطبقة الحاكمة تحول من يد الأوليجارشية الى يد الديمقراطية ٠

اذ يأتى اليـوم الذى تضعف فيـه الطبقة الحاكمة لاهمالها تربية أبنائها وتضمينها بكل القيم فى سبيل شهوة المال فيجد الفقراء أنفسهم من حيث الفضيلة والقوة والعدد أقوى من حكامهم الأغنياء فينصرون عليهم ويساوون بين الجميع حتى يولوا الحكم والمناصب بالقرعة ٠

وفى هذه الدولة لا يقدس الانسان شيئا الا الحرية ولكن ما يظنه الناس حرية فى هذه الدولة لا يؤدى الا الى الفوضى اذ سيتبع كل فرد فيها

أهواءه فتتعدد المبادىء والقوانين ويبدو هذا النظام جميلا فى نظر البعض لانه سيصير أشبه بثوب مزركش بكل الألوان الزاهية ولكنه فى الحقيقة سوق لكل المبادىء وكل القوانين وفوضى تساوى بين المتساويين وغير المتساوين ٠

أما عن مواطنها الديمقراطى فهو ذلك الذى ترك العنان لكل شهواته ولقب المخازى فضائل حتى دعى السفاهة حسن تربية والفوضى حرية والتهتك رقيا والوقاحة شجاعة ٠

ذلك هو الديمقراطى الذى ينحسر عن فكره مبادىء الحق والاتزان والذى يساوى بين جميع الشهوات ويتقلب بحسب الأهواء يوما تشجيه الموسيقى وألحان الناى ويوما يعكف على الرياضة وما يعالج به بدنه ويكتسب به القوة ، وتراه كسولا حينا وغارقا فى العمل عاكفا على الفلسفة حينا آخر لا يعرف لنفسه نظاما ولا لسلوكه ضابطا وهذا هو محب المساواة ٠ ثم لننتقل بعد ذلك الى وصفه لنظام الطغيان الذى يعده أفلاطون ثمرة ونتيجة لنظام الديمقراطية ٠

٢ ـ وصف الطغيان :

ظهر نظام حكم الطغاة منذ القرن السابع قبل الميلاد فى مدن آسيا الصغرى خاصة المدن التجارية والصناعية ٪ ثم انتقل هذا النظام بعد ذلك الى بلاد اليونان نفسها فظهر فى سيكيون وكورنثا وأثينا ، وانتقل بعد ذلك الى جنوب ايطاليا وصقلية التى تولى الحكم فيها الطاغية ديونيسوس معاصر أفلاطون ٠

وكان الطغاة فى أكثر الأحيان يعارضون حكم الأغنياء وأصحاب الأراضى الزراعية ويحمون التجارة والصناعة ويناصرون طبقات الشعب الفقيرة وينشرون عبادة آلهتها وكان أكثرهم يرعى الفنون والآداب ويناصر أكثرهم مبادىء المساواة والحرية ومن أشهر هؤلاء فى أثينا بزيستراتوس وكلستينيس وبريكليس ٠ ولكن وجد من يعارض حكمهم ويصفه بأنه حكم الشهوة والأنانية الفردية وكان أفلاطون على رأس معارضى هذا النوع من الحكم وكانت تجربته الشخصية مع ديونيسوس طاغية سيراقوصة بصقلية من أهم الأحداث التى أثرت فى آراءه السياسية ٠

وكان أفلاطون يعد حكم الطغاة أسوأ أمثلة الحكم ويرى انه فى ظل حكم الطغاة تصل الفوضى باسم الحرية الى أسوأ درجاتها بحيث تنقلب

الأوضاع فيتحول الحاكم الى محكوم والمحكوم الى حاكم حتى نظام الأسرة يختل فلا يجرؤ الأب على توجيه ابنه بل يخشاه اذ يعد الابن نفسه مساويا لأبيه ويعد الغريب نفسه ندا للمواطن ، بل أسوأ من ذلك فى رأى أفلاطون أن يعد الرقيق نفسه مساويا فى الحرية لسيده وعندئذ تثور حتى الدواب على أوضاعها ٠

وتؤدى زيادة الحرية الى نقيضها الى العبودية وذلك حين يختار الشعب مدافعا عنه لكنه سرعان ما ينقلب الى طاغية يتخلص ممن نصبوه حاكما ويحيط نفسه بحراس من المرتزقة ويسوق شعبه الى الحروب ولا يجد من يمدحه الا العبيد والا شعراء التراجيديا الذين يحبذون حكم الديمقراطية والطغيان لذلك لا يتردد أفلاطون فى طردهم من مدينته الفاضلة ٠

٣ ـ سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية :

ولكن لننظر الى حياة الطاغية لنرى هل سيسعد أم سيشقى بطغيانه ؟ ولكى نتبين ذلك فلنبحث فى طبيعة النفس الانسانية ٠

فالنفس الانسانية شأنها شأن الدولة تنقسم الى ثلاث قوى تناسبها ثلاث لذات ٠ فقوة عاقلة لذتها الفكر والمعرفة وقوة غضبية تثور للكرامة وقوة شهوية تسعى الى كافة اللذات المادية ٠ والفيلسوف هو من سلم القيادة فى حياته لتوجيه القوة العاقلة فكان سعيه دائما وراء الحق وأصبحت لذته الكبرى فى المعرفة وفى الفكر أما الطاغية فهو من انقاد لأسفل قوى النفس للقوة الشهوية التى لا تنفك تطلب اللذات المادية وهى لذات وهمية زائلة تستعبد صاحبها وتشقيه لانها أشبه بوحش جهول فى باطنه يسوقه الى ارضاء شهواته وارتكاب كافة المخازى والمساوىء ٠

فاذا قارنا بين حياة الفيلسوف وحياة الطاغية فانما نتبين سعادة الفيلسوف وشقاء الطاغية ٠ فاللذات التى يطلبها الحكيم من نوع اللذات العقلية التى تهب النفس ائتلافا ونظاما يكسبها الفضيلة ويخضع قواها لتوجيه العقل وادراك الخير فى النهاية ٠

أما لذات الطاغية فهى من قبيل اللذات الحسية التى ليست فى الحقيقة لذات حقيقية بل لذات وهمية سالبة من يجرى وراءها كان كمن يقفو أثر شبح لا حقيقة له ٠

● رأى أفلاطون فى الفن والنفس الانسانية

وقد أرجأ أفلاطون حديثه عن الفن والنفس الى البـاب الأخـير من جمهوريته ، وذلك بعد أن كان قد انتهى من وضـع نظرياته الاجتمـاعية والسياسية ٠

ويبدو لقارىء جمهورية أفلاطون أن نقده للفن وحديثه عن مصـير النفس موضوعان بعيدان عن الموضـوع الرئيسى للمحاورة . لكنهما فى الحقيقة مكملان لبحثه فى العدالة ، لانه يهاجم الشعر والتصوير من أجل العدالة ٠ ولقد بنى نقده للفن على أساس هذه النظريات السالف ذكرها فى الجمهورية ، وهو يعارض شعر هوميروس وشعراء التراجيديا من وجهة نظر المصلح الاجتمـاعى ويعارضه أيضا باسم الفيلسوف الأخلاقى الذى يهدف الى اصلاح النفس واكتمال فضيلتها ٠ ولقد أفصح فى الجمهورية وفى غيرها من المحاورات الأخرى عن اعجابه بأنواع من الفن الذى رأى فيـه تعبيرا عن الأهداف الدينية والمثالية والأخلاقية ٠

وبحثه فى مصير النفس الانسانية انما يهدف الى تأكيد قيمة العدالة واثبات انها الخير الوحيد الذى يناسب النفس الانسانية ٠

وكان أفلاطون قد أكد طوال محاورة الجمهورية أن الفضيلة فى حد ذاتها خير للانسان وهو فى ختام المحاورة يرى أن العادل محبوب من الجميع الناس والآلهة على السواء وما يصيبه من شر ليس فى الحقيقة الا امتحانا ظاهريا لانه سيكون فى النهاية أسعد حالا من الظالم ٠ وتتضح قيمـة العدالة وتزداد اذا كان فى الآخرة حساب واذا كانت النفس ستظل خالدة بعد الموت لتتلقى جزاءها ٠

والخلاصة ان الحكمة والفضيلة هما سبيل الانسان الى السعادة ، لان العدالة تنطوى فى ذاتها على قيمتها وهى وحدها الخير الوحيد الذى يليق بالفيلسوف وبالنفس الانسانية ٠

وقد ختم سقراط حديث العدالة فى جمهورية أفلاطون وقال لسامعيه تلك العبارة الخالدة :

« لئن صدقتمونى فعلمتم ان النفس خالدة وحرة فى اختيارها الخير والشر فستهدون الى سواء السبيل وستلتزمون دائما بالعدالة والحكمة فى

أفعالكم لكى تمتلىء نفوسكم طمأنينة وأمنا فيما بينكم ومع الآلهة أيضا ليس فقط فى هذه الدنيا بل فيما بعد وفى يوم الحساب » ٠

هذه هى خلاصة جمهورية أفلاطون فى رسمها العدالة والمساواة واشتراك الجميع فى بناء صرح الدولة وتوفير الحاجات للناس دون تكالب على الكسب والتجارة وجمع المال ٠

والواقع ان أفلاطون هو الذى غرس أول دراسة للفلسفة السياسية من مناهله ، وضمن مؤلفاته جمهوريته وهى قمة ما كتب فى علم السياسة، ستخلد على مدى الزمن ، وهى مرشد للباحث فى هذا الحقل ، ويصعب أن يضيف المفكر على أسسها شيئا مذكورا الا اذا كان ذلك عن طريق الشرح والاستفاضة ، وهو يعتبر بلا منازع بنظرياته القائمة على دراسات فى المنطق والعقل والحكمة والمعرفة والخلق والسلام والاتحاد أبا الفلسفة الغربية ٠

ولقد عرف الغرب الترجمة اللاتينية الأولى لهذا الكتاب فى سنة ١٤٨٣ وقد نشرها مارسيل فيسان ، وذلك قبل أن ينشر النص الأصلى اليونانى فى فينسيا ، بعد ثلاثين عاما من الترجمة اللاتينية ٠

ثم انتشرت بعد ذلك الترجمات الأوروبية المختلفة لجمهورية أفلاطون، وكلها تتبارى فى اضافة الشروح والتعليقات عليها ٠ ولقد بلغت الترجمات الأخيرة لهذا الكتاب العظيم أعلى درجة من الدقة والاتقان ، وأشهر هذه الترجمات ، ترجمة ليون روبان الفرنسية وترجمة كورنفورد الانجليزية ٠

● جمهورية أفلاطون والفكر العربى والغربى

وقد تلهف الفكر العربى فى ازدهاره الى معرفة ما احتوته الحضارات التي سبقته أو عاصرته من العلوم والمعارف والحكمة والفلسفة ، وضمن ما عنى به نقل فلسفة اليونان القديمة وفى مقدمتها فكر أفلاطون ، ولا غرو فى عناية العرب بالفلسفات القديمة فحضارتهم واسعة الأفق تتقبل الجيد وما يقوم على المنطق والعقل والجدل ونظريتهم السياسية تأخذ بحرية الفكر واحترام حقوق الانسان ، فقد رأينا المثالية والجدل والحوار وتفسير الكون والوجود واقامة دولة صالحة صحيحة الجسد والعقل فى « الشفاء »

و « القانون » لابن سينا وكتاب « تهافت التهافت » لابن رشد وفى « المدينة الفاضلة » للفارابى الذى جمع فى كتاباته بين الشريعة والفلسفة وبين أفلاطون وأرسطو ٠

وقد نقل المفكرون الأوروبيون عن العرب فلسفة أفلاطون وواصلوا تحليلها وعدوه رائد الفكر الغربى ومرشد الفلاسفة ومنار التفكير الاشتراكى والاتحادى بما جاء به من تخطيط سياسى واجتماعى فى جمهوريته المثالية ، وهو الذى رسم الطريق بمنهاجه الجدلى والعقلى للفلاسفة الحديثين أمثال « دى كارت » و « سبينوزا » و « نيتشه » و « هيجل » و « بنتهام » و « ماركس » و « سان سيمون » ٠ وقد أجمع الى الجدل والحوار ومناقشة ما يحويه العقل والكون التخطيط ، فرسم السبيل لبنتهام ومدرسته فى سياسة اللذة والألم ، وفى مكافحة الفاقه ونشر التعليم واصلاح القانون ، وكان هدفه توفير الضمانات للمواطنين وبث الطمأنينة فى النفوس على أساس تحقيق الرفاهية للجماعات ٠ كما رأى أفلاطون فى مدينته الفاضلة أن تتولى السلطة الصفوة المختارة ٠

أيضا كانت جمهورية أفلاطون المرشد لقرون عديدة فيما بعد الى « سان سيمون » وهو بعد المخطط لسياسة اقتصادية للدولة تقوم على أساس الاختصاص والكفاية العلمية ، ونسج على منوالها «ماركس» بما حوته من تنظيم اشتراكي وخاصة فى الغاء الملكية الفردية والمساواة بين الناس على أساس توزيع الأعمال ، وكانت جمهورية أفلاطون أيضا المرشد للمفكرين فى مجال السياسة « لباريتو » و « ميشيلز » و « موسكا » الذين نهجوا سياسة حكم الصفوة بكفايتها وتخصصها باعتبار أن الحكم فعلا لا تباشره أغلبية بل يقوم به عدد من الصفوة الممتازة ٠

وساعدت « جمهورية » أفلاطون العلامة « ديجى » ورجل القانون الضليع « سيل » وغيرهما من الفقهاء والمشرعين فى دراسة توزيع الاختصاصات والأعمال كأساس لتكوين الدولة وفى تكوين الفكرة الاتحادية بين الدول ٠

وهكذا ابتدع أفلاطون فى دراساته وخاصة فى « الجمهورية » نظريته فى العالم ويصعد فيها الى القمة ليبدأ منها البحث عن الحقيقة وسعادة البشرية ويصبح بعقله وخياله فى أفق المعرفة الواسع ليكشف عن الحقائق والمترادفات ويرسل أضواءه الوضاحه الى أبسط التفاصيل ويبرز فى كتاباته أصل المادة وفلسفة الطبيعة والدين والخلق والسياسة وتناسق وجمال الأشياء والروح ، وكل ما يصل اليه الفكر عند أفلاطون يتحول

الى شعاع ويبعث فى صورة بناءة لا يمكن ملاحقتها ، وهو يهدف كما يتضح فى « جمهوريته » حرية الانسان المنظمة الى السعى فى بنــاء عالم ينعم فيه البشر بوسائل راحة مادية ونفسية نتيجة توزيع الأعمال ، والقضاء ما أمكن على الفوارق بين الناس وعلى أن تسود المعرفة والفلسفة والحكمة والتخصص حكم المدينة الفاضلة ، وبذا يقوم عالم مثالى يسوده السلام ، وستظل فلسفة أفلاطون ومدينته المثالية فى « الجمهورية » المحرك الأساسى للمعرفة والتطور الفكرى ٠

وفى النهاية يجب أن نذكر مقالة الفيلسوف الشهير أمرسون الخالدة عن كتابنا فقد قال عنه : « ان تراث الانسانية لو أحرق برمته وبقى هذا الكتاب لكان فيه الكفاية » !! ٠٠

قال امرسون هذا لأن الكتاب ملخص فلسفته ٠٠ فيه مذهبه فى السياسة ٠٠ والدين ٠٠ والأخلاق ٠٠ وعلم النفس ٠٠ والتربية ٠٠ والفن ٠٠ وفيما وراء الطبيعة ٠٠ وفى هذا الكتاب يضع أفلاطون الأسس التى يراها كفيلة لبناء مدينة فاضلة أو مدينة هى المثل الأعلى فى المدن ٠

● ● ●



(٣) أصول الهندسة

اقليدس

أصول الهندسة

لاقليدس

٣٠٠ ق٠م

الكتاب الذى ظل اساسا لدراسة مبادىء الهندسة
حتى هذا العصر

قليلون جدا من الخالدين استطاع أن يعيش طويلا مثلما عاش عالم الهندسة الاغريقى اقليدس ٠ فمن بين هؤلاء الخالدين أناس اشتهروا وهم أحياء مثل نابليون والاسكندر الأكبر ومارتن لوثر وغيرهم ٠ بينما عاش أقليدس هذا مجهولا فى حياته ، ولكن بعد مماته أصبح أشهر من الجميع وأبعدهم أثرا أى أطولهم عمرا !!

● سـيرة اقليدس

وعلى الرغم من شهرته هذه ، فان القليل جدا عن حياته هو الذى نعرفه ٠ ونحن نعلم انه عمل مدرسا فى الاسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ ق٠م٠

ولسنا على يقين من تاريخ مولده أو مماته ، ولا نعرف أيضا ان كان قد ولد فى أفريقيا أو فى أوروبا ، ولا فى أى مدينة !

ولكن جاء فى كتابات العرب عنه انه اقليدس بن نقراط بن زنارخوس، ولد بطبرة ، اغريقى الجنسية ، دمشقى الموطن ، فيلسوف من العصور الماضية ، عالم كبير فى الهندسة ، كتب أعظم وأنفع كتاب أسماه « أصول الهندسة » ، أو أسس الهندسة ، وهو عمل لم يسبق اليه ما هو أعظم منه . ترسم خطاه واعترف بفضله كل من جاء بعده ، ودأب القادمون من علماء الاغريق الرومان والعرب على شرح كتابه والتعليق عليه والاقتباس منه . وكان الفلاسفة الاغريق يضعون على أبواب مدارسهم العبارة الشهيرة : « لا يدخلها من لم يتعلم أصول هندسة اقليدس » .

ويقول ابن النـديم فى كتابه الفهرست : « اقليدس صـاحب جو مطريا ، ومعناه الهندسة ، وهو اقليدس بن نوقطرس بن برنيقس ، المظهر للهندسة ، أقدم من أرشميدس وغيره ، وهو من الفلاسفة الرياضيين » .

وذكر ابن النديم فى كتابه أيضا أن لاقليدس كتبا أخرى غير كتاب « أصل الهندسة » منها : كتاب الظاهرات ، كتاب اختلاف المناظر ، كتاب المعطيات ، كتاب النغم ، كتاب القسمة ، كتاب الفوائد ، كتاب القانون ، كتاب الثقل والخفة ، كتاب التركيب ، كتاب التحليل » .

وعلى الرغم من انه قد ألف كل هذه الكتب ، فان كتابا واحدا له هو الذى حظى بكل الشهرة . أعنى كتابه « مبادىء الهندسة » .

وقد ظن بعض كتاب العرب ان كتاب أصول الهندسة لم يكن من وضع اقليدس نفسه ، وان الكتاب كان لغيره ، وكان عمل اقليدس هو تهذيب وتفسير ما احتواه الكتاب ، اذ جاء فى كتاب « كشف الظنون » انه ورد من شرح الأشكال للفاضل قاضى زاده الرومى ، « ان بعض ملوك اليونان مال الى تحصيل ذلك الكتاب « الأصول » فاستعصى عليه حله ، فأخذ يتوسم أخبار الكتاب من كل وارد عليه ، فأخبره بعضهم بأن فى بلدة صور رجلا مبرزا فى علمى الهندسة والحساب ، يقال له اقليدس . فطلبه والتمس منه تهذيب الكتاب وترتيبه ، فرتبه وهذبه ، فاشتهر باسمه بحيث اذا قيل كتاب اقليدس يفهم منه هذا الكتاب دون غيره من الكتب المنسوبة اليه »

كما ورد فى رسالة الكندى فى أغراض كتاب اقليدس أن « هـذا الكتاب الفه رجل يقال له أبلونيوس النجار ، وانه رسمه خمسة عشر قولا ، فلما تقادم عهده ، تحرك بعض ملوك الاسكندرانيين لطلب الهندسة،

وكان على عهد اقليدس ، فأمره باصلاحه وتفسيره ففعل وفسر منه ثلاث عشرة مقالة ، فنسبت اليه ، ثم وجد اسقلاوس تلميذ اقليدس ، مقالتين وهما الرابعة عشرة والخامسة عشرة فأهداهما الى الملك ، فأضيفتا الى الكتاب » .

غير انه من المؤكد ان كتاب الأصول كان من الأعمال الرئيسية لاقليدس ، وان كان قد ضمنه نظريات بعض من سبقوه من فلاسفة الاغريق الرياضيين وذلك بعد أن أكملها واستوفى براهينها .

وتجمع كتابات العرب على أن جماعة منهم نقلوا كتاب اقليدس من الاغريقية الى العربية ، ويبدو أن أول من ترجم الكتاب الى العربية هو الحجاج بن يوسف بن مطر الذى ترجمه مرتين ، وأسمى الأول الهاروني نسبة الى هارون ، وأسمى الثانية المأموني نسبة الى المأمون ، ويوجد الآن نسخة من المخطوط الثاني في مكتبة ليدن ، وقد جاء في مقدمتها انه أثناء خلافة هارون الرشيد ، أمر يحيى بن خالد البرمكي الحجاج بترجمتها الى العربية . ولما تولى المأمون الخلافة رأى الحجاج أن ينال الحظوة عند الخليفة ، فأخرج ترجمة أخرى للأصول نحا فيها نحوا جديدا ، فأصلح ما فيها من خلل وشرح ما يحتاج الى شرح .

وليس هناك من شك في أن اسحق بن حنين قام بترجمة الأصول مرة أخرى من الاغريقية ، ويذكر صاحب الفهرست ، ان ثابت بن قرة أصلح هذه الترجمة وحسن فيها ، كما يذكر أن أبا عثمان الدمشقى ترجم بعض أجزاء الكتاب .

ويتفق الكثيرون على أن أشهر النسخ المنقولة الى العربية من كتاب اقليدس ، هما نسختا ثابت والحجاج ، وتلا ذلك قيام كثير من علماء العرب بشرح الكتاب وتفسيره والتعليق عليه مثل : اليزيدى ، والجوهرى ، والهاماني ، وأبو حفص الحارث الخرساني ، وأبو الوفا الجوزجاني ، وأبو القاسم الانطاكي ، والقاضي أبو محمد بن عبد الباقي البغدادي الشهير بقاضي مارستان ، وأبو على الحسن بن الحق بن الهيثم البصرى ، وأبو جعفر الخازن ، وأبو داود سليمان بن عقبة ، وغيرهم كثيرون .

كما تناول أيضا كثير من المتأخرين من كتاب العرب وعلمائهم ، تحرير الكتاب متصرفين فيه ايجازا وضبطا ، وايضاحا وبسطا . ولعل أشهرهم في ذلك نصير الدين بن محمد الطوسى .

● من كل ذلك يتضح لنا جليا أن كثيرا من علماء المسلمين عنوا

بالبحث فى كتاب اقليدس فى الهندسة ، وشارك فى هذا القدامى والمحدثون منهم ، وقد قاموا بترجمته ونشره واصلاحه وتفسيره والتعليق عليه ٠

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن بعض الكتاب الغربيين يقولون : ان كتاب « الأصول » لاقليدس وصل اليهم عن طريق العرب ٠ ومن ذلك تقول دائرة المعارف الأمريكية :

« وقد وصلت الينا أصول اقليدس من العرب عن طريق غير مباشر من الترجمات العديدة التى قاموا بها والتى لم تطبع منها الا احدى التراجم التى تمت فى القرن الثالث عشر ، وكان طبعها فى روما سنة ١٥٩٤ م ٠ ويقال ان أول من قام باعادة ترجمة الأصول من العربية الى اليونانية هو Adelard of Bath فى القرن الثانى عشر ٠ وقد كانت هذه الترجمة أساسا للطبعة اليونانية التى حررها Companus of novara (فينسيا ــ ١٤٨٢) ، ومع كل فلا يعتمد على هذه الطبعة الى حد كبير » ٠

● كتاب الأصـــول في الهندســـة

وكتاب اقليدس فى أصـــول الهندسة يعتبر أعظم الكتب المدرسية التى كتبت من أقدم العصور الى عصرنا هذا ، ويقع فى ثلاث عشرة مقالة ، تبدأ أولها بتعاريف ثم خمس مصادرات أو مسلمات (عمليات تفترض صحتها) ، ثم علوم متعارفة أو أشياء متعارف عليهـــا (حقائق واضحة بذاتها) وعددها خمس أيضا ، ثم تأتى بعد ذلك النظريات ٠

وتشمل التعاريف : النقطة ، والخط ، والخط المستقيم والسطح ، والسطح المســتوى ، والزاوية المســتوية ، والزاوية الخطية المستقيمة ، والزاوية القائمــة ، والزاوية المنفرجة ، والزاوية الحادة ، كمـــا تشمل الشكل ، والدائرة ومركزها وقطرها ونصف الدائرة ، والأشكال الخطية والمثلث المتساوى الأضلاع ، والمتساوى الساقين ، والمربع والمعين وشبه المعين ، وشبه المنحرف والخطين المتوازيين ٠

وأما المصادرات أو المسلمات فهى :

١ ــ يمكن رسم خط مستقيم من أية نقطة الى أية نقطة أخرى ٠

٢ ــ يمكن مد الخط المستقيم المتنـــاهى بصـــفة متصلة الى خط مستقيم ٠

٣ ـ يمكن رسم دائرة لها مركز معلوم ونصف قطر معلوم ٠

٤ ـ جميع الزوايا القائمة مساو بعضها البعض الآخر ٠

٥ ـ اذا سقط مستقيم على مستقيمين فجعل مجموع الزاويتين الداخليتين على جهة واحدة منه أقل من قائمتين ، فان هذين المستقيمين اذا مدا الى ما لا نهاية له ، يتلاقيات على نفس الجهة التى عليها مجموع الزاويتين أقل من قائمتين ٠

أما العلوم المتعارفة أو الأشياء المتعارف عليها فهى :

١ ـ الأشياء المساوية لنفس الشىء يساوى بعضها البعض الأخر ٠

٢ ـ اذا أضيفت أشياء متساوية الى أشياء متساوية فالحواصل متساوية ٠

٣ ـ اذا طرحت أشياء متساوية من أشياء متساوية فالبواقى متساوية ٠

٤ ـ الأشياء التى تنطبق الواحدة منها على الأخرى تساوى الواحدة منها الأخرى ٠

٥ ـ الكل أكبر من الجزء ٠

ونعود الى التعاريف وأولها تعريف النقطة الهندسية « النقطة ما ليس له أجزاء » ٠ ولا ترضى النفس عن هذا التعريف ، فهو يصف النقطة بما ليس لها ولا يصفها بما هى ، ولابد لنا من بيان حالة الهندسة وتعريف النقطة قبل اقليدس حتى نتبين الحكمة فى هذا التعريف ٠ فلقد اعتبر فيثاغورث النقطة الهندسية عنصرا أوليا فى الفراغ كوحدة الأعداد فى الحساب ، ولكنها تختلف عنها بأن لها صفة المكان ، فهى وحدة لها مكان ، وأى نقطة على الخط المستقيم ، يمكن مطابقتها على نسبة عددين صحيحين متناسبين مع بعديهما عن طرفى المستقيم ٠ وهذا معناه أن الخط عبارة عن تتابع نقاط متميزة ٠

كذلك أثار تعريف اقليدس للخط المستقيم جدلا كثيرا ٠ فالخط المستقيم عنده (هو ذلك الذى يقع على استواء بالنسبة للنقطة الواقعة عليه) وليس واضحا المقصود بهذا الكلام ٠ وعند البعض ان فكرة التماثل هى الفكرة الأساسية ، فاذا وصلنا النقطتين (أ) ، (ب) بمنحنى (ل) فانه يوجد منحنى آخر (لَ) يختلف عن (ل) بانه صورته فى المرآة ،

أى ما يكون يسارا فى أحد المنحنين يكون يمينا فى المنحنى الآخر · والمنحنى الوحيد الذى فيه ينطبق (ل) على (ل َ) هو الخط المستقيم (ا ب) · وعند البعض الآخر ان تعريف اقليدس يشير الى عملية كعملية تصويب البندقية فعندما تكون (أ ، ب) كلاهما فى خطر النظر كذلك ستكون جميع نقط الخط المستقيم (أ ب) · ومهما يكن الأمر فان اقليدس لم يستخدم تعريفه للخط المستقيم ولا تعريفه للنقطة الهندسية ·

أما وجهة النظر الحديثة فى النقطة والمستقيم فهى التسليم بانهما تصوران أوليان · ومهما تكن وجهة النظر هذه منطقية الا انها تدعو للأسف واليأس من وجهة نظر عالم الطبيعة لانها تفقد الهندسة صفة كونها تمثيل لأمور توجد بالفعل فى الطبيعة ·

●●●

ولقد وضع اقليدس من الفروض الأساسية خمس مسلمات ، وخمس أشياء متعارف عليها · ومن هذه وتلك استنتج نظرياته ·

والمسلمات الأربع الأولى من مسلمات اقليدس سهلة ليس فيها ما يثير المتاعب ، أما المسلمة الخامسة فهى أطول فى النص وأقل وضوحا فى الفكرة ، وهى المسلمة المعروفة بمسلمة التوازى ونصها : اذا قطع مستقيم مستقيمين أخريين وكان مجموع الزاويتين الداخلتين من جهة واحدة أقل من قائمتين ، فان هذين المستقيمين الآخرين اذا مدا يتقابلان من هذه الجهة التى فيها مجموع الزاويتين الداخلتين أقل من قائمتين » ·

ويرجع عدم ارتياح القدماء الى هذه البديهية ، لا الى الشك فى صحتها ولكن الى طبيعة كونها من الحقائق المشاهدة أكثر من انها بديهية واضحة فى ذاتها · كذلك ثارت الشكوك حول احتمال اشتقاقها من غيرها من البديهيات الأخرى بالاستنتاج المنطقى ، ولكن الاجماع الآن على أنه لا يمكن بأية حال استنتاجها من غيرها من مسلمات اقليدس ، وان بديهية ما للتوازى أساسية لهندسة اقليدس ·

وقد تحول البحث الى محاولة ايجاد بديهية أخرى للتوازن أبسط وأكثر وضوحا ، تحل محل بديهية اقليدس ، كأن نسلم مثلا بأنه يمكن تقسيم الفضاء الى مكعبات متساوية ، أو أن مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين · ولكن لا واحدة من هذه المسلمات تلزم من الوجهة المنطقية ، وبذلك لم يتوصل الرياضيون الى خلق هندسة مبنية على حقائق منطقية لا غنى عنها ، الى أن ظهر الرياضى الايطالى « سيشرى » وطلع على العالم

بفكرة أن أفضل طريق لحل لغز التوازى هو اللجوء الى البرهان بالخلف ، أى بافتراض أن البديهية غير صحيحة واستنتاج نتائج غير مقبولة • ولما فعل هذا كشف فى الحقيقة عن الهندسة الاقليدية ، وأثبت أن هناك ثلاثة أنواع من الهندسة بحسب كون مجموع زوايا المثلث أكبر من ، أو يساوى، أو أصغر من قائمتين • وافترض أن الخط المستقيم يمتد الى ما لا نهاية له ، وبهذا القيد وجد أن النوع الأول من الهندسة ، وهو النوع الذى فيه مجموع زوايا المثلث أكبر من قائمتين مستحيل ، أما النوع الثالث ، والذى فيه مجموع زوايا المثلث أصغر من قائمتين ، فقد وجد أنه فيه مستقيمان يتقاربان من بعضهما الى ما لا نهاية له ، ولا يتقاطعان ، وهى خاصة ظن أنها غير مقبولة • وبذلك لم يبق أمامه الا النوع الثانى الذى فيه مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، وهو الذى يؤدى الى هندسة اقليدس •

● طبيعة الهندسة الاقليدية

ولا شك ان الهندسة الاقليدية والتى وضع أسسها فى كتابه « أصول الهندسة » تعبر بدرجة كبيرة من الدقة عن كثير من خصائص عالمنا الواقعى وتعكس معظم آرائنا عنه ، ومنها اشتقت فكرتنا عن الفراغ الهندسى (المكان الهندسى) ، فالفراغ الهندسى هو كل ما اجتمع من النقط الهندسية التى تتكون منها المستويات والخطوط والكرات ••• وهلم جر • ويمكن تصور ذلك على أنه وحدة يرمز لها بحد مطرد • ومن المهم أن نفرق بين الفراغ الهندسى ، والفراغ الفيزيائى الذى يتركب من أنواع ثلاثة هى : فراغ ما وراء السدم ، والفراغ الكبير ، والفراغ المجهرى • أما الفراغ الهندسى فلا يعدو كونه قاعدة متخيلة للعلاقات الهندسية الصحيحة على وجه التقريب فى الفراغ الفيزيائى الكبير ، ولا وجود لهذا الفراغ الهندسى الا فى مخيلة عالم الهندسة ، ومع ذلك فقد لعب هذا الفراغ دورا هاما فى تكوين صورة الفراغ الفيزيائى ، ذلك لانه أصل تولد من مقارنة القياسات التى أجريت فى العالم الواقعى ، ثم انعكست مرة أخرى على الطبيعة فأضحت صورة مقبولة للحقيقة •

وفى رأى نيوتن ان الفراغ المطلق ، بطبيعته ذاتها وبدون نظر لأى مؤثر خارجى ، يبقى دائما متشابها دون حركة ، وجميع الأشياء موضوعة فى الفراغ بالنسبة لترتيب مكانها • بمعنى أن الأرض والأجرام السماوية

لها مكانها في وعاء لا حركة له ، ولا حدود له ، وله وجود ، وكان هذا هو حاله ، بصرف النظر عن وجود العقول التى تدركه أو عدم وجودها ، وبصرف النظر عن انه مشغول فى مكان منه أو غير مشغول · وهو مسرح كل ما يحدث فى الكون المادى · واذا أخذنا لحظة من الزمان فكل جسم مادى يشغل مكانا فى هذا الفراغ مع احتمال أن يتغير من موضع لآخر ، وهذا الفراغ لا نهائى فى الحجم ، منتظم الصفات متصل النسيج ، هندسته اقليدية · ومن واجبات عالم الطبيعة أن يفسر جميع الظواهر بدلالة حركات الجسيمات الموضوعة فى هذا الفراغ وفعل بعضها على بعض ·

ومن المسلم به أنه بالرياضة يمكن حساب كثير من حوادث الطبيعة قبل وقوعها ، ذلك ان للكون نظاما مستقرا يتبعه سير تلك الحوادث ، وان المثل الأعلى للعلم أن يجد من القوانين والمعادلات الرياضية ما يمكننا من التنبؤ بأى حادث قبل وقوعـه فى الكون الفيزيائى الخارجى ، كالتنبؤ بكسوف الشمس أو خسوف القمر أو هبوب الريح أو سقوط المطر ··· الى غير ذلك من الظواهر ·

ومن المسلم به أيضا ان كل فرع من فروع الرياضة ينبنى على مجموعة من التعاريف والفروض ، والسؤال الآن هو : ما هى المعطيات أو المسلمات الأساسية التى منها يمكن رياضيا استنتاج جميع قوانين الكون المادى ؟ وهل هذه المعطيات أو المسلمات مما وصلنا اليه عن طريق الحواس بالتجربة والمشاهدة ؟ أم هى واضحة بذاتها ، كشفنا عنها بالحدس والالهام ؟

وقد أدرك الاغريق القدماء هذه المشكلة الفلسفية الأساسية وبحثوا فى أمرها وجـاء حكمهم عليها فى الطريقة التى عالجوا بها الهندسـة ، والهندسة بحكم انها علم العـلاقات المكانية فى العـالم الخارجى ، وهى أساسا جزء من الفلسفة الطبيعية · ومما لا شك فيه أن كثيرا من الحقائق الهندسية قد اشتق من المشاهدة · وفى رواية ان طاليس قد اقتنع بنظرية اقليدس القائلة بأن الزاوية المرسومة فى نصف دائرة هى قائمة دائما ، وذلك حينما تطلع الى المستطيلات المرسومة داخل الدوائر على جـدران المعبد · كما روى هيرودوت : ان المصريين القدماء تعلموا كثيرا من الحقائق الهندسية حينما كانوا يضطرون عقب الفيضان كل عام الى اعادة تقسيم الأراضى · وتعيين مساحتها ووضع حدودها ·

ولما جاء الفيثاغوريون وأثبتوا الصلة المنطقية بين النظريات الهندسية المختلفة ساد الاعتقاد بانه من المستطاع احكام جميع الهندسة فى سلسلة

من الاستنتاجات يحصل عليها بالتفكير القياسي من عدد صغير من المقدمات، وأصبح السؤال هو : من أين يمكن اشتقاق تلك المقدمات ؟

وقال اقليدس : انه من الممكن اثبات جميع نتائج الهندسة كنتائج منطقية لعدد قليل من البديهيـات والمسلمات التى نسلم بها بالحـدس والالهـــام ٠

● انجــاز اقليدس فى كتابه

وأهمية كتاب « أصول الهندسة » لا ترجع لأى من النظريات التى قدمها أو شرحها ٠ وأكثر هذه النظريات الهندسية كانت معروفة من قبل ، كما أن الكثير من الأدلة على البرهنة على صحتها كانت معلومة أيضا ٠ ولكن الانجاز الكبير الذى يعزى الى اقليدس هو تجميع هذه النظريات وعرضها وربطها والتدليل المقنع على صحتها ٠ وهذا الانجاز يتضمن فى المقام الأول انه أضاف الكثير من البديهيـات الهندسية ، ثم انه نظم هذه النظريات الواحدة بعد الأخرى ، حتى جاء هذا النظم مترابطا ومنطقيا ٠٠ كما انه زودها بالبراهين التى غابت عن الكثير ممن سبقوه ٠

وعلى الرغم من ان كتاب « أصول الهندسة » هذا قد تضمن نظريات هندسية فانه قد أضاف اليها بعض المعادلات الجبرية ٠

والكتاب ظل أساسا للدراسات الهندسية أكثر من ألفى سنة ، ولم يفلح كتاب واحد ألفه انسان أن يعيش مثل هذا الزمن الطويل ٠ وقد ألف اقليدس كتابه هذا باللغة الاغريقية ، ولكن ـ كما أسلفنا ـ قد ظهرت له ترجمات فى كل اللغات ، وظهرت أول طبعة لهذا الكتاب فى سنة ١٤٨٢ أى بعد اختراع جوتنبرج للطباعة بثلاثين عاما ٠ ومنذ ذلك الحين ظهرت لهذا الكتاب ألوف الطبعات فى مئات اللغات ٠

وهذا الكتاب لانه تدريب عملى على التفكير المنطقى ، فقد كان أبعد أثرا من كتاب الفيلسوف أرســطو عن « المنطق » ٠ وقد افتتن به كل المفكرين العظماء منذ ذلك الحين ٠

ومن العدل أن تقول ان كتاب اقليدس هذا كان عاملا قويا فى احياء العلوم الحديثة ٠ لان العلم ليس مجرد تجميع للمعلومات انما العلم يقوم

على الملاحظات الدقيقة ، واستخراج النتائج الهامة لها . وأعظم انجازات العلم الحديث انما تجيء من ترابط التجارب الانسانية وتحليلها الدقيق بعد ذلك ، والوصول الى نتائج لها شكل النظريات وقوة البديهيات .

ولسنا على يقين من الأسباب التى أدت الى أن تكون نهضة العلوم فى أوروبا وليست فى الصين ، ولا يمكن أن يكون ذلك من نتائج الصدفة . فلابد من وجود أسباب قوية واضحة ومقنعة لأن يكون العلم قد ظهر وتطور الى غير حد فى أوروبا ، وليس فى أماكن أخرى من العالم . وأدى ذلك الى ظهور عدد من النابهين من العلماء مثل العالم الانجليزى نيوتن والايطالى جاليليو (١) والبولندى كوبرنيكوس (٢) . ولابد أن تكون هناك أسباب قوية لظهور مثل هؤلاء النابهين . ومن بين هذه الأسباب تأثر أوروبا بالفكر الاغريقى وبما قدمه الاغريق من نظريات فى الرياضيات .

ومن الجدير بالملاحظة أن الصين قد تقدمت على أوروبا فى نواح أخرى . ولكنها لم تستطع أن تبلغ ما بلغته أوروبا فى اكتشاف النظريات الرياضية والعلمية ، فليس يوجد فى الصين عالم هندسى يماثل اقليدس . . فمن المؤكد أن الصين قد كانت لها ممارسات هندسية ، لكنها لم تهتد قط الى نظرية هندسية واحدة . أى كانت لها تجارب عملية ولم تكن لها فلسفة نظرية محددة .

وقد كان أثر اقليدس فى نيوتن عميقا . وهذا يبدو واضحا فى كتاب نيوتن الذى عنوانه « المبادىء » والذى كتبه باللغة اللاتينية . وقد جاء هذا الكتاب ذا شكل هندسى تماما مثل كتاب اقليدس .

وقال المؤرخون : لم يوجد كتاب مثل كتاب « الأصول فى الهندسة » فى قدمه ، عاش كل هـذه القرون . انه عاش فوق الألفين والمائتين من السنين . وهو لم يكد أن يصيبه فى كل هذا الزمان الطويل تغيير . وقبله الأقدمون ، وقبله الأحدثون . ولقد قام جماعة من الأمريكيين فى منتصف القرن الماضى ، يتزعمون حركة تطيح باقليدس وكتاب اقليدس . وقاموا على عادة بعض النـاس بالضيق بكل قديم . ونافسوا اقليدس تاليفا ، ونافسوه كتبـا . وتعددت الكتب فى الهندسـة ، وتعددت البراهين ، واختلطت . ولكن اقليدس بقى على الرغم من كل هـذا ، كتاب الدنيـا الأوحد ، والأصلد ، والأصمد .

---

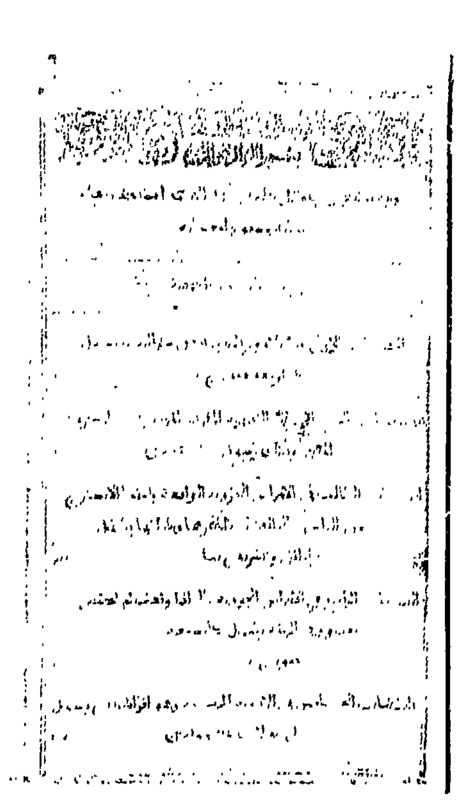
(١) جاليليو : عالم فلك ورياضة وطبيعة ايطالى (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) . اخترع الميزان المائى وصنع أول منظار فلكى عام ١٦٠٩ . اكتشف فى عام ١٦١٠ أربعة أقمار للمشترى .

(٢) كوبرنيكوس : فلكى بولندى (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) واضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس وعلى أساسها بنى علم الفلك الحديث .



(٤) القانون فى الطب

ابن سينا



القانون فى الطب لابن سينا

الكتاب الذى ساهم مساهمة فعالة فى تقدم العلوم الطبية

ح : ١٠١٠ م

ابن سينا من الخالدين الذين يحتلون مكانا ساميا فى تاريخ تقدم الفكر والطب والفلسفة ، وهو من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع ومن ذوى المواهب النادرة والعبقرية الفذة ٠ وعلى الرغم من عدم امتداد حياته ، الا انها كانت عريضة تفيض نشاطا وحيوية وتحفل بالانتاج والتأليف والابداع ٠

لقد كان انتاجه متنوعا وغزيرا ، فكتب فى الفلسفة والطب والطبيعيات والالهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق ، ووضع فيها ما يزيد على مائة مؤلف ورسالة ، يعتبر بعضها موسوعات ودوائر معارف،

اذ جمع فيها شتات الحكمة والفلسفة وما أنتجه المفكرون الأقدمون ، وأضاف اليها اضافات أساسية وهامة جعلته من الخالدين المقدمين في تاريخ الفكر والعلم ، مما دفع البروفيسور « جورج سارتون » (١) الى الاعتراف بأن « ... ابن سينا أعظم علماء الاسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين ... » .

ولقد سحرت عبقرية ابن سينا المستشرقين والعلماء ، والشرق والغرب على السواء . فلقبه معظمهم بأرسطو الاسلام وأبقراطه ، وجعله دانتي بين أبقراط وجالينوس ، وقال دي بور : « ... وكان ابن سينا أسبق كتاب المختصرات الجامعة في العالم ... » ويرى فيه مثلا للرجل الواسع الاطلاع والمترجم الصادق عن روح عصره . والى هذا يرجع تأثيره العظيم وشأنه في التاريخ . كما كان « مونك » يرى في ابن سينا انه من أهل العبقرية الفذة ومن الكتاب المنتجين . أما « أوبرفيك » ، فيقول : ان ابن سينا اشتهر في العصور الوسطى وتردد اسمه على كل شفة ولسان ، ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره ، وكان من كبار عظماء الانسانية على الاطلاق » .

لقد أجمع علماء الشرق والغرب على تقدير ابن سينا وتمجيده ، واستقوا من رشح عبقريته وفيض نتاجه ، فكان من الذين ساهموا مساهمة فعالة في تقدم العلوم الطبية والفلسفية والنفسية .

● سيرة الشيخ الرئيس ابن سينا بقلمه

هو أبو علي الحسين بن عبد الله علي بن سينا ، وهو ان كان أشهر من أن يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر ـ قد ذكر من أحواله ووصف من سيرته ما يغني غيره عن وصفه ، ولذلك نقتصر من ذلك على ذكر ما قد ذكره هو من نفسه . ونقله عنه أبو عبيدة الجورجاني قال . قال الشيخ الرئيس :

---

(١) جورج سارتون : عالم امريكي (١٨٨٤ ـ ١٩٥٦) . يعتبر أحد أعظم مؤرخي العلم . أهم آثاره « مقدمة لدراسة تاريخ العلم » .

« ان أبي كان رجلا من أهل بلخ(٢) ، وانتقل منها الى بخارى في أيام نوح بن منصور (٩٧٦ - ٩٩٧ م) ، واشتغل بالتصوف ، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية من ضياع بخارى وهي من أمهات القرى وبقربها قرية يقال لها أفشنة ، وتزوج أبي منها والدتي ، وقطن بها وسكن وولدت فيها . ثم ولد أخي ، ثم انتقلت الى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الآداب. وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى مني العجب ، وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم واني أسمعهم . وأدرك ما يقولونه ، ولا تقبله نفسي ، ابتدأوا يدعونني أيضا اليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهني الى رجل كان يتتبع العقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ، ثم صار الى بخارى أبو عبد الله النائلي وكان يدعي المتفلسف وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتزود فيه الى اسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد ألفت طريق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم منه .

ثم ابتدأنا بكتاب ايساغوس على النائلي ، ولما ذكر لي حد الجنس انه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو ، أخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب مني كل العجب وحذر والدي من شغلي بغير العلم ، وكانت أية مسألة قالها لي أتصورها خير منه حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما وقائعه فلم يكن عنده منها خبر ، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي ، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب اقليدوس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت الى الجسطي ، ولما فرغت من مقدماته ، وانتهيت الى الأشكال الهندسية - قال النائلي فور قرائتها : حلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه . ثم فارقني النائلي متوجها الى كاركنج ، واشتغلت متوجها أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعي والالهي ، وصارت أبواب العلم تتفتح علي .

ثم رغبت في علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم اني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح على من

---

(٢) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان .

أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف الى الفقه وأناظر فيه ، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشر سنة ، ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف السنة ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره ، وكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ، وأرتبها ، ثم نظرت فيما عساها تنتج وراعيت شروطا ٠

حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة ، وكلما كنت أتحير من مسألة ولم أظفر بالحد الأوسط فى قياسي ترددت الى الجامع ، وصليت وابتهلت الى مبدع الكل حتى فتح لى المستغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل الى دارى ، وأضع السراج بين يدى وأشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت الى شرب قدح من الشراب حتى تعود الى قوتى ثم أرجع الى القراءة ، ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعبائها حتى ان كثيرا من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام ، وكذلك حتى استحكم على جميع العلوم ، ووقعت عليها بحسب الامكان الانسانى ، وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزد فيه الى اليوم حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضى ، ثم عدلت الى الالهى ، وقرأت كتاب ما بعده الطبيعة ، فما كنت أفهم فيه ، والتبس على غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظا وأنا مع ذلك لا أفهمه ، والمقصود به ويأست من نفسى ، وقلت : هذا كتاب لا سبيل الى فهمه ، واذ أنا فى يوم من الأيام حضرت وقت العصر فى الوراقين وبيد دلال مجلد ينادى عليه فعرضه على فرددته ، رد متبرم معتقدا أن لا فائدة فى هذا العلم ، فقال لى : اشتر منى هذا فانه رخيص أبيعك بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج الى ثمنه ، واشتريته فاذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى من أغراض كتاب ما بين الطبيعة ورجعت الى بيتى وأسرعت فقرأته فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانى يومه بشىء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى ، وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور الذى أنفق له مرض أتعب الأطباء فيه ، وكان اسمى اشتهر فيهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يديه ، وسألوه احضارى ، فحضرت ، وشاركتهم فى مداواته ، وتوسعت بخدمته ، فسألته يوما الاذن لى فى وصول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب ٠

وقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ٠

ثم مات والدى وتصرفت فى الأموال وتقلدت شيئا من أعمال

السلطان ، وتنقلت فى بلاد كثيرة ، ثم مضيت الى دهستان ، ومرضت مرضا صيفيا ، وعدت الى جرجان ، وأنشأت فى حالى قصيدة :

لما عظمت فليس مصر بواسعي   لما غلا ثمني عدمت المشترى

قال أبو عبيدة الجورجانى : « أملى على المختصر الوسطانى فى المنطق لابن محمد الشبراوى فى كتاب المبدأ والمعاد ، وكتاب الأرصاد الكلية ، وصنفت كتبا كثيرة كأول القانون ومختصر المجسطى ·

ثم صنف فى أرض الجبل بقية كتبه ·

ثم صار الشيخ بعد ذلك من حاشية علاء الدين المقدمين ، فظل الشيخ الرئيس يخدم علاء الدولة لما لقيه عنده من حسن التكريم ، فبقى معززا مكرما ، وكان كثير الرحلات كثير النشاط ·

وأخيرا وصل الى همذان ، وقد ضعفت صحته ، ويقال : انه اغتسل وتاب وتصدق بماله على الفقراء ، ورد المظالم الى أهلها ، وأعتق مماليكه ، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن ، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام ، واستمر على هذا الحال حتى توفى فى همذان فى يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هجرية ١٠٣٦ ميلادية وهو فى الثامن والخمسين من عمره ·

● ابن سينا يتحدث عن كتابه

وضع ابن سينا مؤلفات فى الطب جعلته فى عداد الخالدين · وقد يكون كتابه « القانون » من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها · اشتهر كثيرا فى ميدان الطب وذاع اسمه وانتشر انتشارا واسعا فى الجامعات والكليات · وشغل هذا الكتاب علماء أوروبا ولا يزال موضع اهتمامهم وعنايتهم · وقد ترجمه الى اللاتينية « جيرارد أوف كريمونا » وطبع فى أوروبا خمس عشرة مرة باللاتينية ما بين ١٤٧٣ و ١٥٠٠ م ، وبقى بفضل حسن تبويبه وتصنيفه وسهولة مناله الكتاب التدريسى المعول عليه فى مختلف الكليات الأوروبية حتى أواسط القرن السابع عشر للميلاد ·

وفى هذا الكتاب جمع ابن سينا ما عرفه الطب عن الأمم السابقة الى ما استحدثه من نظريات وآراء وملاحظات جديدة ، وما ابتكره من ابتكارات هامة ، وما كشفه من أمراض سارية وأمراض منتشرة الآن ، مما أدى الى

تقدم الطب خطوات واسعة جعلت بعضهم يقول : كان الطب ناقصا فكمله ابن سينا !

وكذلك ضمن ابن سينا كتاب القانون شرحا وافيا لكثير من المسائل النظرية والعملية ، كما أتى فيه على تحضير العقاقير الطبية واستعمالها · وقرن ذلك ببيان عن ملاحظاته الشخصية ·

وفى كتاب القانون ظهرت مواهب ابن سينا فى تصنيفه وتبويبه للمعلومات الطبية ، وما كشفه من نظريات جديدة فيها ، وأبرزها فى قالب منطقى · فقد كان قوى الحجة ، قاطع البرهان ، وهذا ما جعل كتاباته شديدة التأثير فى رجال العلم فى القرون الوسطى وما جعل السير « وليم أوسلر » يقول عن كتاب القانون : انه كان الانجيل الطبي لأطول فترة من الزمن ··· » ·

● ● ●

ولنترك الآن للشيخ الرئيس ابن سينا الفرصة لكى يحدثنا عن كتابه بأسلوبه فيقول فى مقدمته ما يأتى :

الحمد لله حمدا يستحقه بعلو شأنه وسبوغ احسانه والصلاة على نبيه المصطفى محمد وآله وأصحابه الطاهرين وبعد فقد التمس من بعض خلص اخوانى ، ومن يلزمنى اسعافه فيما يسمح به وسعى ـ أن أصنف فى الطب كتابا مشتملا على قوانينه الكليــة والجزئية اشتمالا يجمع الى الشرح الاختصار والى ايتاء الأكثر حقه من البيان والايجاز ، فأسعفته بذلك ورأيت أولا أن أتكلم عن الأمور الكليــة فى قسمى الطب ، أعنى القسم النظرى والقسم العملى ، ثم بعد ذلك أتكلم عن كليات أحكام قوى الأودية المفردة ثم فى جزئياتها ، ثم بعد ذلك عن الأمراض الواقعة بالأعضاء عضوا عضوا فأبتدىء أولا بتشريح ذلك العضو ومنفعته ، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق من ذكره فى الكتاب الأول الكلى ، وكذلك منافعها ، ثم اذا فرغت من تشريح ذلك العضو ـ ابتدأت فى أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته ، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها ، وطرق معالجتها بالقول الكلى أيضا ، فاذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمراض الجزئية ودللت أولا فى أكثر على الحكم الكلى فى حده وأسبابه ودلائله ، ثم تخلصت الى الأحكام الجزئية ، ثم أعطيت القــانون الكلى للمعالجة ، ثم نزلت الى المعالجــات الجزئية بدواء بسيط أو مركب ، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة

فى الجداول والأصباغ التى أرى اشتمالها عليه ، كى تقف أيها المتعلم عليه اذا وصلت اليه ، ولا أكرر الا قليلا منه ، وما كان من الأودية المركبة انما الأحرى به أن يكون فى الأقربازين · ثم يقول : ورأيت أن أفرغ من هذا الكتاب الى كتاب أيضا فى الأمور الجزئية ، مختص بذكر الأمراض ، التى اذا وقعت لم تختص بعضو بعينه ، ونورد هنالك أيضا الكلام عن الزينة وأن أسلك فى هذا الكتاب أيضا مسلكى فى الكتاب الجزئى الذى قبله فاذا انتهينـا بتوفيق الله من الفراغ من هذا الكتاب ـ أتيت بعده بكتاب « الاقربازين » وهذا الكتاب « يقصد كتاب القانون » لا يسع من يدعى هذه الصناعة ويتكسب بها الا أن يعترف بأن جله معلوم ومحفوظ عنده ، فانه يشتمل على أقل ما لابد منه للطبيب ·

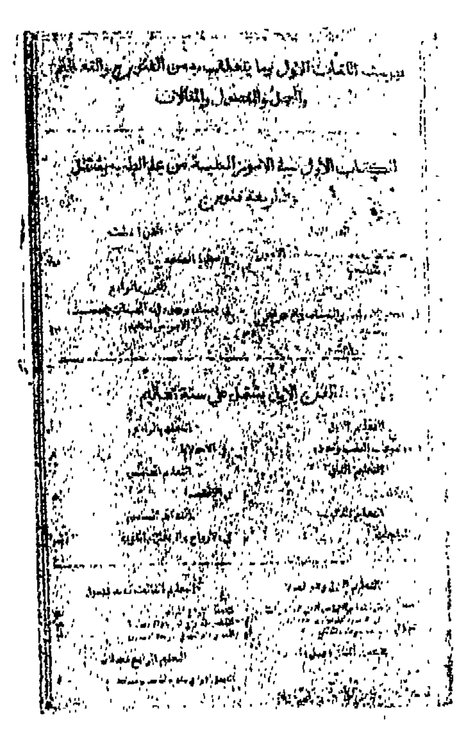
وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط وان أخر الله فى الأجل ، وساعد القدر انتصبت انتصابا ثانيا » ·

ثم يقسم ابن سينا كتابه الى خمسة كتب :

- **الكتاب الأول فى الأمور الكلية فى علم الطب ·**
- **والكتاب الثانى فى الأدوية المفردة ·**
- **والكتاب الثالث فى الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضوا عضوا ، أى بكل عضو على حدة من الرأس الى القدم ·**
- **والكتاب الرابع فى الأمراض الجزئية التى اذا وقعت لم تختص بعضو مثل الحميات ·**
- **والكتاب الخامس فى تركيب الأدوية وهو الاقربازين ·**

وأما الكتاب الأول فيتناول أربعة فنـون :

- الفن الأول فى حد الطب وموضوعاته فى الأمور الطبيعية ·
- والفن الثانى فى تصنيف الأمـراض والأسـباب والأعـراض الكليـــة ·
- والفن الثالث فى حفظ الصحة ·
- والفن الرابع فى تصنيف وجـوه المعالجات بحسب الأمـراض الكليـــة ·



ثم يقسم الفن الأول الى ستة تعاليم :

الأول فى موضوعات الطب ، والثانى فى الاسكان ، والثالث فى المزاجات ، والرابع فى الاخلاط ، والخامس فى الأعضاء ، والسادس فى الأرواح والقوى أو الأفعال .

وأما التعليم الأول فهو فصلان : فالأول فى حد الطب ، والثانى فى موضوعات الطب والتعليم الثانى فصل واحد وهو الاسكان والتعليم الثالث ثلاثة فصول : الفصل الأول فى تعليم المزاج ، والثانى فى أمزجة الأعضاء ، والثالث فى أمزجة الأسنان والتعليم الرابع فصلان : الأول فى مائية الخلط وأقسامه ، والفصل الثانى فى كيفية تولد الاخلاط ، والتعليم الخامس فصل واحد وخمس جمل فالفصل فى مائية العضو واقسامه والجملة الأولى فى العظام وهى ثلاثون فصلا : الفصل الأول قول كلى فى العظام والمفاصل ، والثانى فى تشريح القحف (٣) ، والثالث فى تشريح ما دون القحف الى الرأس والرابع فى تشريح عظام الفكين ، والأنف ، والخامس فى تشريح الأسنان والسادس فى منفعة الصلب ، والسابع فى الفقرات ،

---

(٣) القحف : القطع أو الكسر .

والثامن فى منفعة العنق وتشريح عظامه والتاسع فى تشريح فقار الصدر ومنافعها والعاشر فى تشريح فقرات القطن والحادى عشر فى تشريح العجز ، والثانى عشر فى تشريح العصعص والثالث عشر كلام كالخاتمة فى منفعة الصلب ، والرابع عشر فى تشريح الأعضاء ، والخامس عشر فى تشريح القص والسادس عشر فى تشريح الترقوة ، والسابع عشر فى تشريح الكتف ، والثامن عشر فى تشريح العضد والتاسع عشر فى تشريح الساعد، والعشرون فى تشريح المرفق ، والحادى والعشرون فى تشريح الرسغ ، والثانى والعشرون فى تشريح مشط الكف ، والثالث والعشرون فى تشريح الأصابع والرابع والعشرون فى منفعة الظفر ، والخامس والعشرون فى تشريح الفخذ ، والسادس والعشرون والسابع والعشرون والثامن والعشرون فى تشريح عظام الساق ، والتاسع والعشرون فى تشريح الركبة والثلاثون فى تشريح القدم .

ويلاحظ أن الشيخ الرئيس متأثر فى تبويب كتابه وعرض ما اشتمل عليه من حقائق الطب بدراسته الفلسفية المنطقية ، فهو يقسم كتابه أولا الى خمسة كتب ، ويقسم كل كتاب من الكتب الخمسة الى فنون ، ويقسم الفنون الى تعاليم والتعاليم الى فصول وجمل ، وقد راعى فى هذا التقسيم أنه يحقق الدقة فى حصر مسائل الطب ، واهتم ابن سينا فى مقدمة كتاب القانون برسم دستوره الطبى فى تأليف كتابه ويتلخص هذا الدستور فى الخطوط العريضة التى هى الأمور الكلية فى علم الطب والأدوية المفردة وأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضوا عضوا والأمراض الجزئية الأخرى وتركيب الأدوية « الاقربازين » . ويبدأ مقدمته بشرح السبب الذى حمله على تأليف الكتاب ، ويحاول أن يبين انه يتناول أمورا معروفة وانه اذا امتد به الأجل فانه سيتناول الموضوع بطريقة أعم وأشمل ، والواقع ان الشيخ الرئيس كان متواضعا الى حد بعيد ، بدليل ان كثيرا من علماء العرب قد اعترفوا بما لكتاب القانون من قيمة علمية كبرى فى ميدان الطب ، وبانه قد تناول أدق المسائل فى هذه الناحية كذلك رسم ابن سينا لنا طريقته الفريدة فى التأليف الطبى فهو يبدأ أولا بالحديث عن تشريح العضو ، ثم يعجب على ذلك ببيان كيفية المحافظة على صحة العضو ، ثم ينتقل الى الكلام عن كليات أمراض العضو وأسبابها وطرق الاستدلال عليها ومعالجتها ويختم كتابه ببحوث ضافية فى علم الأدوية « الاقربازين » ، ومن الطريف أن نورد بعض الأمثلة للتقسيمات السابقة وهى توضيح رأيه فيما يعرض له من مشكلات الطب وقضاياه ، ومن هذه الأمثلة :

(أ) ما يقوله فى تعريف الطب :

يقول الشيخ الرئيس فى صفحة ٥ من الجزء الأول من كتابه القانون :

« الفصل الأول من الفن الأول من الكتاب الأول فى حد الطب ، أقول : ان الطب علم يعرف منه أحوال صحة بدن الانسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زايلة ، والطب ينقسم الى نظر وعمل ، ثم يبدأ فى الرد على من قالوا : ان الطب نظرى فقط ، فيقول : وأنتم قد جعلتم الطب كله نظرا ، اذ قلتم : انه علم ، وهو يجيب عن هذا الاعتراض بقوله : ان من الصناعات ما هو نظرى وعملى ، ويقال : ان من الطب ما هو نظرى وعملى ، ثم يفسر لنا معنى النظرى فيقول : ونعنى بالنظرى ما يكون التعليم فيه يقيد الاعتقاد فقط من غير أن يتعرض لبيان كيفية عمل ، مثل ما يقال فى الطب : ان أصناف الحميات ثلاثة وان الأمزجة تسعة ، ويفسر القسم العملى من الطب بمثال يورده فيقول : ان الأورام الحارة يجب أن يقرب اليها فى الابتداء ما يردع ويبرد ويكثف ، ثم ، بعد ذلك تمزج الرادعات بالمزجيات ثم بعد الانتهاء الى الانحطاط (يقصد هبوط الورم) يقتصر على المزجيات المحللة ، فهذا مما يفيد رأيا وبيان كيفية عمل ، فاذا علمت هذين القسمين فقد حصل لك علم نظرى وعلم عملى وان لم تعمل قط » • ويفهم من كلام ابن سينا فى تفسير القسم العملى من الطب بأنه العلم بكيفية العمل •

(ب) ما يقوله فى تشريح الأضلاع :

« الأضلاع وقاية لما تحيط به من آلات التنفس وآلات الغذاء ولم تجعل عظما واحدا لئلا تثقل ، وليسهل الانبساط اذا زادت الحاجة على ما فى الطبع ، أو امتلأت الأحشاء من الغذاء والنفخ فأحتيج الى مكان أوسع للهواء المجتذب ، وليتخللها عضل الصدر المعينة على أفعال التنفس وما يتصل به ، ولما كان الصدر يحيط بالرئة والقلب وما معهما من الأعضاء ، وجب أن يحتاط فى وقايتها أشد الاحتياط ، فان تأثير الآفات العارضة لها أعظم ومع ذلك فان تحصينها من جميع الجهات لا يضيق عليها ولا يضرها فخلقت الأضلاع السبعة العليا مشتملة على ما فيها ، ملتقية عند القص محيطة بالعضو الرئيسى مع جميع الجوانب • وأما ما يلى آلات الغذاء فخلقت كالمخرزة من الخلف حيث لا تدركه حراسة البصر ، ولم تتصل من قدام بل درجت يسيرا يسيرا فى الانقطاع فكان أعلاها أقرب مسافة ما بين

أطرافها البارزة ، وأسفلها أبعد مسافة وذلك لتجمع الى وقاية أعضاء الغذاء فى الكبد والطحال وغير ذلك توسيعا لمكان المعدة فلا تنضغط عند امتلائها من الأغذية ومن النفخ ، فالأضلاع السبعة العليا تسمى أضلاع الصدر وبها من كل جانب سبعة ، والوسطان منها أكبر وأطول والأطراف أقصر ، فان هذا الشكل أحوط فى الاشتمال من الجهات على المشتمل عليه ، وهذه الأضلاع تميل أولا على أحد بدايتها الى أسفل ، ثم تكر كالمتراجعة الى فوق فتتصل بالقص على ما نصفه بعـد ، حتى يكون اشتمالها أوسع مكانا وتدخل من كل واحد منها زائدتان فى نقرتين غائرتين فى كل جناح على النقرات ، فيحـدث فصل مضاعف ، وكذلك السبعة العليا مع عظـام القص » ويبدو من هذا الوصف أن ابن سينا كان على علم دقيق بتشريح جسم الانسان وتركيب أعضائه ٠

(جـ) ما يقوله فى مرض الدوار :

« هو أن يتخيل لصاحبه أن الأشياء تدور عليه ، وان دماغه وبدنه يدور فلا يملك أن يثبت بل يسقط ، وكثيرا ما يكره الأصوات ويعرض له من تلقاء نفسه مثل ما يعرض لمن دار على نفسه كثيرا بسرعة ، فلا يملك أن يثبت قائما أو قاعدا أو أن يفتح بصره ، وذلك لما يعرض للروح الذى فى بطون دماغه وفى أوردته وشرايينه من تلقاء نفسه ما يعرض له عندما يدور دورانا متصلا ، والفرق بين الصرع والدوار أن الدوار قد يثبت مدة والصرع يكون بغتة ، فيسقط صاحبه ساكنا ويضيق ، واما السداد ، فهو أن يكون الانسان اذا قام أظلمت عيناه وتهيأ للسقوط ، والشديد منه يشـبه الصرع ، الا انه لا يكون معه تشنج كما يكون للصرع ٠ ثم يتحدث عن أسباب الدوار فيقول : وهذا الدوار قد يقع بالانسان بسبب انه دار على نفسه فدارت الأرواح والبخار فيه كما تدار الفنجانة المشتملة على ماء مدة ، وتسكن فيبقى ما فيها دائرا مدة ، فاذا دار الروح تخيل للانسان أن الأشياء تدور ٠ الى أن يقول : وقد يكون هذا الدوار من النظر أيضا الى الأشياء التى تدور حتى ترسخ تلك الهيئة المحسوسة فى النفس ، ولهذا قيل : ان الأفاعيل الحسية كلها متعلقة بآلات جسدانية منفعلة ٠

ثم يقول : وقد يكون الدوار أيضا من أسـباب بدنية حاضرة فى جوهر الدماغ حاصلة من بخارات خايلة فى العروق التى فيه وفى العصب ، واما من اخلاط محتقنة فيه من كل جنس ، فتبخر بأدنى حركة أو حرارة ، فاذا تحركت تلك الأبخرة ، حركت بحركتها الروح النفسانى ٠٠ واما بسبب كثرة بخارات قد احتقنت فى الدماغ متصـعدة اليه من مواضـع

أخرى ثم مستقرة فيه ثانية عن مرض حار متقدم أو مرض بارد ، فيكون رياحا نافخة تحركها القوة المنضجة والمحللة ، وقد يكون لا لحركة بخارات فى الدماغ ولكن لسوء مزاج مختلف بغتة ، يلزم منه هيجان حركة مضطربة فى الروح ... وقد يكون من محرك للروح من خارج مثل ضارب للرأس أو كاسر للقحف ، حتى يضغط الدماغ والروح الساكن ، فتتبعه حركات مختلفة دايرة متموجة ، كما يحدث فى الماء من وقوع ثقل عليه أو وقوع ضرب عنيف على متنه فيستدير موجه .

ثم يتحدث ابن سينا عن العلامات المميزة للدوار ، ويعقب على ذلك بوصف العلاج لكل حالة من حالات الدوار فيقول : فأما الكائن عن دوران الانسان حول نفسه أو من نظره الى الدورات . أو من نظرة الى مكان عال ، فيعالج بالسكون والقرار والنوم ، ويتناول القوابض الحامضة ، ويكسر لقما فيها ويتناولها وأما الكائن عن دم واخلاط مختلفة فى البدن فيعالج بالفصد من القفا ، ثم من العرق الساكن الذى خلف الأذن ، فانه أفضل علاج لجميع أصناف الدوار المادى .

(د) ما يقوله فى الخفقان وأسبابه :

الخفقان حركة اختلاجية تعرض للقلب وسببه كل ما يؤذى القلب مما يكون فى نفسه أو فى غلافه ، أو ما يتصل به من الأعضاء المجاورة له المشاركة اياه . وقد يكون من مادة خليطة وقد يكون ناشئا عن مزاج ساذج ، وقد يكون عن ورم وقد يكون عن سبب غريب ، ومن علاماته النبض المخالف المجاوز للحد فى الاختلاج ومن العلاج :

اذا كان من أسباب مادية ينتفع بالاستفراغات ، واما الدموى فبالفصد وباخراج الدم البالغ وتعديل الغذاء بالكم والكيف ، وان كانت له نوبات ، أو فصل يعترى فيه مثل الربيع ، فمن الواجب أن يتقدم قبل النوبة بفصد وتلطيف غذاء وتناول ما يقوى القلب . وأما الكائن بسبب خلط بلغمى ، فيجب أن يستفرغ بأدوية يبلغ تأثيرها فى القلب .

(ر) ما يقوله فى أمراض الرئة :

« ان الأطباء اختلفوا فى قروح الرئة فى انها تبرأ أو لا تبرأ : فقال قوم : انها لا تبرأ البتة لأن الالتحام يفتقر الى السكون ولا سكون هناك . وقال جالينوس : انها تبرأ » .

تتعرض الرئة للأمراض المختلفة لتشابه الأجزاء والأمراض الآلية وخصوصا السدد فى عروقها .

وقد تكثر أمراض الرئة في الشتاء والخريف لكثرة النوازل وخصوصا في خريف ممطر بعد صيف يابس شمالى ، والهواء البارد ضار بالرئة وكثيرا ما تؤدى أمراض الرئة الى أمراض الكبد كما يؤدى شدة بردها وشدة حرها الى الاستسقاء » .

(ز) ما يقوله فى الكبد وأمراضه :

ورم بعد ضربة ــ ورم بارد فى الكبد

ورم صلب مع عسر النفس يتبعه استسقاء ، ويهلكون فى أكثر الأمر بانحلال الطبيعة لانسداد المسالك الى الكبد .

واذا طالت العلة لم ينفع العلاج ، فان كان الصلب سرطانيا وكان هناك احساس بالوجع أشد كانت أحداث الآفة فى اللون وفى الشهوة وغير ذلك ، أكثر وربما أحدث غثيانا بلا حمى لم يحس بالوجع ، وكان فى طريق اماتة العضو . واعلم ان الكبد سريعة الانسداد وخصوصا اذا استعملت المغلظة . وأمراض الكبد ــ اليرقان ــ الاستسقاء وأمراض الكلى وحصاة المثانة وغيرهما .

(س) ما يقوله فى أمراض الأذن :

الفصل الرابع فى أحوال الأذن وهو مقالة واحدة

فى تشريح الأذن .

اعلم ان الأذن خلقت للسمع وجعل لها صدف معوج ليحبس جميع الصوت ثم يصل الى ان سطحها الانسى مفروش بليف العصب السابع الوارد من الزوج الخاص من أزواج العصب الدماغى .. فاذا نادى الموج الصوتى الى ما هناك أدركه السمع .

ونص فى آفات السمع فقال : ان آلة السمع اما أن تكون أصيلة فيكون صمم واما أن تكون عارضة .

فقدان السمع : منه مولود طبيعى لا علاج له ، ومنه حادث ، لكنه طال عهده فهو مزمن ، وذلك أيضا قريب من اليأس أو عسر العلاج ، وأما الحادث القريب العهد فى الطرش فقد يقبل العلاج .

وأما أسباب ذلك فقد يكون منه مشاركة عضو مثل ما يكون من مشاركة الدماغ أو بعض الأعضاء المجاورة كالذى يقع عند أول انبات

الأسنان .. والذى يقع عنـد أوجاع الأسنان (وقد يكون لآفة خاصـة بالسمع) .

أما الآفة فى عصـب السـمع فقد تعرض لجميع أسـباب الأمراض المتشابهة الأجزاء فيها ، والآفة وانحلال الفرد ، أما الأعراض المتشابهة الأجزاء فيها فكل واحد من أصناف سوى المزاج المفرد والمركب .

وأما الآفة فى العصب فمثل سدة موجهها خليط أو مدة أو ورم .. ورم حاد أو صلب أو عبارة عن وسخ أما انحلال الفرد فقد يكون من قرحة أو آكل شىء .

وأما الكاين بسبب المنخرين فأكثره عن سدة لسبب بدنى أو بسبب من خارج البدن مثل لحم زائد أو دود أو خلط غليظ أو صملاغ أو جمود من ورم .

● **فى علاج الدوى والطنين والصفير بالأذن :**

يجب أن يتجنبـوا الشمس والحمـام والحركة والصـياح والقىء والامتلاء ، وأن يلينوا الطبيعة أما الكائن بالمشاركة فيجب أن يفصد منه فصد العضو الفاعل له وخصوصا المعدة ، فينقى ويقصد الدماغ والأذن فيقويان .

أما الكاين بسرعة الحس فمن الناس من يأمر فيه بالمخدرات ، مثل دهن الورد المطبـوخ بالخل مع قليل أفيـون أو ممزوج بدهج البنج أو الشوكران مسحوقا .

أما الكاين عن قيح فيعالج بعلاج الورم والقيح .

(ص) ما يقوله فى العلاج بالجراحة :

المقالة الأولى فى الفصل الرابع من الكتاب الرابع من القانون .

فصل كلى من علاج الجراحات :

الجراحة اللحمية لا تخـلو اما أن تكون شقا بسيطا مستقيما أو مدورا أو ذا أضلاع أو شقا مع نقصان شىء من اللحم ، وقد يكون غائرا نافذا ، وقد يكون مكشوفا ، ولكل واحد ندبه ، ويشترك الجميع فى حبس الدم السائل ، وقد جعلت له بابا ، وربما كان سيلان قدر معتدل من الدم نافعا للجراحة يمنع الورم والتبثر والحمى فانه من أفضل ما يعنى

به فی الجراحات أن تمنع تورمها فانه اذا لم یوجد ورم یمکن علاجه بالجراحة ، وأما اذا کان هناك ورم أو کان رضی اجتمع فی تحلیله مع الجراحة دم یرید أن یورم أو یتقیح لا یمکن معالجته بالجراحة ما لم یدبر ذلك ویعالج الورم وان احتقن فی المرض دم فیتعجل فی تحلیله اذا کان له قدر یفید وذلك باحالته قیما وتحلیله ، وذلك بکل حار لین ومما قد علم یجب أن یعان سیلان الدم اذا قصر فان کان الورم بسیطا مستقیما لم یسقط منه شیء ویکفی فی تدبیره الشد والربط ٠

واجتهادك فی ألا ینجذب الی العضد الا دم طبیعی ٠ وان کان عظیما لا تلتقی أطرافه لانه مستدیر متباعد أو مختلف الشکل أو قد ذهب منه لحم قلیل غیر کثیر فعلاجه الخیاطة ومنع اجتماع الرطوبة فیه باستعمال الحبوب الرادعة واستعمال الملصقات ٠٠ الخ (قانون ابن سینا الجزء الأول) ٠

(ض) ما یقوله فی العلامات الدالة علی الأورام :

« أما الظاهرة فیدل علیها الحس والمشاهدة ، واما الباطنة فالحار منها تدل علی الحمی اللازمة والثقل ان کان لا حس للعضو الذی هو فیه أو الثقل مع الرجوع ان کان للعضو الوارم حس ، ومما یدل أیضا أو یعین فی الدلالة الحالة الداخلیة فی أمثال ذلك العضد ، ومما یؤکد الدلالة احساس الانتفاخ فی ناحیة ذلك العضد ان کان للحس الیه سبیل ، وأما البارد فلیس ینفعه لا محالة وجع وتعسر الاشارة الی علاماته الکلیة ٠

وربما انتقلت المادة فی الأورام الباطنة من عضو الی عضو مثل ما ینتقل فی أورام الدماغ الی ما خلف الأذنین والی أورام الکبد الی الأربیتین ، والردیء أن ینتقل من عضو الی عضو أشرف منه أو أقل صبرا علی ما یعرض به مثل أن ینتقل من ذات الجنب الی ناحیة القلب أو الی ذات الرئة ٠

● القیمة العلمیة لکتاب القانون

ویعتبر کتاب القانون فی الطب ، من خیر ما تتیه به الحضارة العلمیة العربیة فی هذا الفن ، وقد فضلته العرب علی ما سبقه من مؤلفات ، لما وجدوا فیه من حسن التبویب والدقة العلمیة ، مع ما تمیز به الاشارة الی خبرة مؤلفه وتجاربه ، فقد تناول فیه علوم وظائف الأعضاء ، وعلم

الأمراض ، وعلم الصحة ، ومعالجة الأمراض ، وعلم الأدوية ٠ وقد ترجم الكتاب الى اللغة اللاتينية والى اللغات الأوربية ، وطبع فى أوربا خمس عشرة مرة ٠ وكان العمدة فى دراسة الطب فى الجامعات الأوربية حتى منتصف القرن السابع عشر ٠

ويقال ان فى المكتبة الأهلية بباريس جوهرتين نفيستين لا يعادلهما ثمن : الأولى نسخة من كتاب القانون باللغة العربية طبعت فى أواخر القرن السادس عشر ، أى فى أوائل عهد الطباعة ، وكانت لا تعار الا على منضدة خاصة ، والثانية نسخة عربية من كتاب جالينوس فى الطب العام ، وقد كتب فى أول صفحة منها : هذا الكتاب ملك أبى على بن الحسين بن سينا المتطبب وهذه العبارة بخط الشيخ الرئيس ابن سينا نفسه ٠

وقد أودع الشيخ الرئيس كتابه القانون كما تقدم كثيرا من أنواع العلاج ووصفَ الأمراض ، وكان يفوق من سبقه من أطباء اليونان والرومان والفرس العرب بدقته فى مناقشة الحالات المرضية ، ومهارته العظيمة فى تشخيص الأمراض ، وبحث أسباب المرض ٠ وكان الطب الى أيامه يتناول ما ترجم من كتب أطباء اليونان وما نقل عن أطباء مدرسة « جند ريسابور » وبعض المعــارف الطبيــة السريانية الممتزجة ببقايا طب الكلدانيين (٤) القدماء ، وطب الهنود وتجارب العرب الطبية فى العصر الجاهلى ٠

هذه المعارف كلها انصهرت وتفاعلت ثم تبلورت فى كتاب الحاوى للرازى ، وقد درس ابن سينا كل ذلك دراســة عالم محقق يعتمد على التجربة ، ثم أضاف الى معلومات السابقين ما وصل اليه باجتهاده وعقليته المبتدعة المبتكرة ، وكان من أشهر ابتكاراته الطبيــة : فحوصــه الدقيقة ودراساته للدورة الدموية وتشريح القلب ، مما لا مثيل له عند اليونان والرومان وهو أول من وصف التهاب السحايا الأولى وصفا دقيقا صحيحا، وفرق بينه وبين غيره من الأمراض المشابهة له كما شرح أمراض الجهاز الهضمى شرحا وافيا ، يشهد له بالبراعة فى ميدان الطب ، وهو الذى قال بضرورة التمييز الدقيق بين الأمراض عند تشخيصها ٠

أما الأمراض العصبية فقد كان ابن سينا فيها طبيبا مبرزا فى عصره فقد وجه عنايته الى الأشكال المختلفة للشــلل والفالج النصفى وشــلل الوجه ، واهتــدى الى التمييز بين نوعى المركزى والموضعى منه وشرح

---

(٤) الكلدانيون : أمة سامية قديمة عاشت فى وادى دجلة والفرات وهم البابليون وكانت لهم دولتان مشهورتان : بابل القديمة (٤٠٠٠ ق٠م ــ ١٣٠٠ ق٠م) ، وبابل الحديثة (٦٠٦ ق٠م ــ ٥٣٨ ق٠م) ٠

باسهاب التشخيص التمييزى بينهما وقد خالف القـدماء الذين ينكرون وجود الأورام بالمخ والعظام فقال : ان المخ والعظام قد تكون مقرا للأورام ، والطب الحديث يعترف اليوم بذلك ·

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف ، وهي طريقة أعاد ادخالها في العلاج الجراح الفرنسى « كالو » سنة ١٨٩٦ · وكان لابن سينا طرق شائعة فى وصف الأمراض العقلية وعلاجها · وله أيضا أكبر الفضل فى ابتكار كثير من طرق العلاج النفسى ، ومما وصل اليه ابن سينا فى كتابه ولم يسبقه اليه أحد من الأطباء أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها فى الربيع والخريف ، وأنها أكثر وقوعا فى هذين الفصلين وهو أول من تنبه الى أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين · وقد درس الشيخ الرئيس فى كتابه أيضا أمراض الكبد ووفق طريقة فحصه ووضعه ، كما وصف أعراض مرض اليرقان وصـفا يتفق مع الأوصاف الحديثة وشرح السكتة الدماغية الناتجة عن احتقان الدم مخالفا بذلك التعاليم اليونانية ، وعندما تكلم عن أمراض المعدة أخذ يصـف بدقة أعراض ضيق « فتحة البواب » أو القرحة المعدية ، وأفاض فى شرح الادمان على شرب الكحول ، وأثر ذلك فى الكبد ، ثم علل الأسباب الفسيولوجية لتلافيف الأمعاء ، وأفاض في الحديث عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته ، وعن خطر سرطان عنق الرحم ووصف أيضـا أعراض حصى المثانة وصفا دقيقا واضحا ، يقول الدكتور « خير الله » فى كتابه الطب العربى : ويصعب علينا فى هذا العصر أن نضيف شيئا جديدا الى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية ، وفى هذا اشارة الى أن ما قاله جالينوس العرب هو ما يذهب اليه الطب الحديث فى هذا العصر ، وقد ميز بين حصاة المثانة وحصاة الكلية ·

كما وصف طريقة علاج البواسير بالشق ، وله فى عام الديدان كشوف جديدة وتجاربه وأوصافه فى علم التشريح أتم وأكمل من أوصاف « جالينوس » · وقد أدخل فى علم العقاقير الطبية « الأقربازين » عددا كبيرا من الأدوية النافعة والعقاقير الطبية المفيدة التى لم تكن مستعملة من قبل ·

ومن الأدلة الواضحة على اجتهاد ابن سينا فى كتابه « القانون » ودقة ملاحظته فى الطب ابتكاره ما يشبه « كيس الثلج » فى عصرنا ، فقد صدع يوما فتصور أن مادة تريد النزول الى حجاب الرأس ، وانه لا مأمن من ورم يحصل فيه فامر باحضار ثلج كثير ـ ودقه ولفه فى خرقة

وتغطية رأسه بها ففعل ذلك حتى قوى الموضع ، وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفى ٠

ولقد كان لابن سينا الفضل العظيم فى كشفين هامين فى عالم الطب٠ فهو أول طبيب قام بحقن المريض تحت الجلد ، وأول من استخدم التخدير لاجراء العمليات الجراحية ولو لم يكن لابن سينا فى كتابه القانون غير هذين الكشفين لكفاه ذلك فخرا واعترافا بفضله على الانسانية ولو وازنا بين ما كان يقوم به ابن سينا من أنواع العلاج وطرق الفحص عن المرض٠٠ داخل البلاد العربية وما كان يصنعه الأطباء خارج حدود تلك البلاد لأدركنا الفرق العظيم بين الأمة العربية فى ذلك العهد وغيرها من الأمم المجاورة التى كانت تعيش على الخرافات والأوهام ، فقد كان المريض فى تلك البلاد التى يسودها الجهل والظلام يصلب على شجرة ، ثم ينهال عليه الطبيب ومساعدوه بالضرب حتى يخرج الشيطان من جسمه وهو المرض فى زعمهم وتصورهم ، وهذا دليل على الجهل المطبق الذى كان عليه أطباء الغرب فى تلك العصور ٠

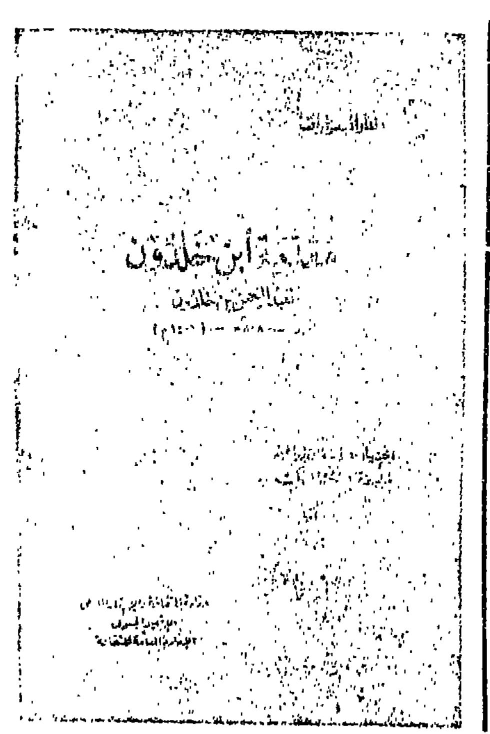
وجماع القول : ان ابن سينا قد أدى رسالة الحياة على أفضل وأنتج ما يكون الأداء ، وحرك عقله الفعال ، ومواهبة فى ميادين الثقافة الانسانية فأخرج من المؤلفات ــ وكتاب القانون من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها ــ ما جعله من مفاخر العالم ومن أشهر علمائه وأعظم حكمائه ٠

●●●



(٥) المقدمة

ابن خلدون



مقدمة ابن خلدون ١٤٠٠ م
مؤسس علم الاجتماع

[لو كان علماء الاجتماع قد اطلعوا على « المقدمة » فى حينها لاستطاعوا ان يتقدموا بهذا العلم اكثر مما تقدموا به]

ان علم الاجتماع أحدث العلوم · فهو لم يتخذ شكله النهائى المميز قبل أواخر القرن الماضى ، ولم يصل بعد ذلك الى مرحلة النضج والتكامل الا فى مطلع القرن الحالى ·

ولعل التأخر فى ظهور هذا العلم وفى تكامله كعلم ، يعود الى الحرية التى هى طبيعة الانسان : فعندما يشعر الانسان بالحرية ، يعتقد بطبيعة الحال بحرية الآخرين ، وكذلك بحرية التجمعات الانسانية فهى تفعل ما تشاء من غير قيد يقيدها ، ولا قانون ينظمها · فكما أن هذه الحرية المزعومة حرمت على العالم الانسانى ردحا طويلا من الزمن سن القوانين ذات الطابع العام والمطلق ، فانه ساد الاعتقاد خلال العصور بأنه من المحال

لنفس السبب انشاء علم للحادثات الاجتماعية • ولم يظهر علم الاجتماع الا عندما بزغت فكرة أن فى العالم الانسانى قوانين تجرى عليها أحداثه ، كما فى العالم المادى قوانين تجرى وفقا لها ظواهره •

ولقد ظهرت فى الماضى دراسات اجتماعية كثيرة ، ولكنها لم تكن موجهة بفكرة علم ايجابى للحادثات الاجتماعية ، وانما كانت تعود كلها الى السياسة ، وهى علم تقويمى للمجتمعات • فلما كان المجتمع مكونا من بشر يتمتعون بالحرية فهو كائن - كما كانوا يعتقدون - على النحو الذى يريده له أعضاؤه ، وبنوع خاص رؤساءه • ولذا كانت مهمة المفكرين والفلاسفة الذين كتبوا عن المجتمع ، أن يبينوا لأعضاء المجتمع ما ينبغى أن يريدوه •

تلك هى مهمة أفلاطون فى محاورتيه « الجمهورية » « والقوانين » وكذلك من بعده أرسطو فى «السياسة» وفى العصور الحديثة «هوبس» (١) وغـــيره •

وقد ظهر فى القرن الرابع عشر مفكر عربى خرج على هذه القاعدة ، هو ابن خلدون اذ تصور دراسة المجتمع كعلم خاص أى أن تدرس الظواهر الاجتماعية دراسة « وضـــعية » كما تدرس العـــلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين ، وعلى هذا البحث وقف دراسته فى كتابه « المقدمة » وأيد ذلك بقوله « ليس التاريخ الا سردا بسيطا للحوادث ، وكان ينبغى أن يكون فحصا يقظا للقضايا المتعاقبة واستقصاء أسبابها البعيدة ومعرفة الصورة التى تبدو عليها » •

وسوف نتعرض لسيرة مؤلف هذا الكتاب الرائد لنلمح مكونات هذه الشخصية الفذة ، وبعد ذلك ندرس المقدمة نفسها ونبين أغراضها ومنهجها وأثرها فى التراث الانسانى •

● نشأة ابن خلدون وأعماله

هو عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين بن خلدون الذى ولد بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) • ولما بلغ سن التعليم بدأ بحفظ القرآن وتجويده وطلب العلم • وقد تتلمذ على أبيه وعلى عدد

---

(١) هوبس : فيلسوف انجليزى (١٥٨٨ - ١٦٧٩) •

كبير من شهيرى علماء تونس لعهده • فدرس عليهم العلوم الشرعية والعربية والطبيعة والرياضة وعلوم المنطق والفلسفة • وكان فى نيته أن يتفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل • ولكنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره عاقه عن متابعة دراسته حادثان : أحدهما وفاة أبيه ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم من شـيوخه من الطاعون الجارف الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وثانيهما هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس الى المغرب الأقصى •

وقد تغير من جراء ذلك مجرى حياته الذى رسمه لنفسه ، واتجه الى تولى الوظائف العامة ، وخوض غمار السياسة •

استأثرت بعد ذلك الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه فى أثناء فترة طويلة استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة من من حياته (من سنة ٧٥١ الى سنة ٧٧٦ هـ) •

غير أنه يبدو أن هـذه الأمور لم تكن لتمثل مطامحه واستعداداته الحقيقية فى شىء • وانه قد اندفع اليها اندفاعا واضطر لخوض غمارها اضطرارا عن غير حب ولا رغبة •

ومن أجل ذلك كان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى أثناء هذه المرحلة ليعاود القراءة والاطلاع وتلقى العلم وتدريسه ، وليرضى بذلك أكبر رغبة كانت كامنة فى نفسه ، وهى رغبـة عميقة امتـازت بها شخصيته الحقيقية ، وأفاد منها التراث الانسانى أكبر فائدة وسجلت اسمه فى عالم الخلود •

وأول وظيفة تولاها كانت فى أواخر سنة ٧٥١ هـ وكانت وظيفة « كتابة العلامة » للوزير محمد بن تافراكين الذى كان حينئذ وصيا على صاحب عرش تونس الصغير ومستبدا بشئون الحكم •

وفى سـنة ٧٥٥ هـ هاجر الى فاس فى صحبة السلطان أبى عنـان سلطان المغرب الأقصى حينئذ ، وتولى فى بلاط هذا السلطان وظيفة الكتابة والتوقيع ، وكان هذا المنصب لا يتولاه الا كبار الكتاب وهذا يدل على ان ابن خلدون كان قد وصل فى هذه السن المبكرة (كان حينئذ فى نحو الثانية والعشرين من عمره) فى ميادين الأدب والكتابة الى منزلة رفيعة وأن شهرته فى هذه النواحى أخذت تنتشر فى المغرب العربى •

وقضى ابن خلدون فى وظيفة الكتابة للسلطان أبى عنان نحو سنتين

ثم قضى مثلهما سجينا على أثر مؤامرة اشترك فيها ضد هذا السلطان ، ثم عاد الى وظيفته وقضى فيها نحو أربع سنوات ·

وقد أتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء الذين كانوا قد نزحوا اليها من الأندلس ومن تونس ، ويختلف الى مكتبات فاس التى كانت حينئذ من أغنى المكتبات الاسلامية ، فارتقت بذلك معارفه ، واتسع اطلاعه ، وسنحت له فرصة لاشباع رغباته الحقيقية ومطامحه الأصيلة · وهكذا جمع ابن خلدون فى هذه الفترة بين أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم ·

وعندما نزل تلمسان سنة ٧٧٦ عن له أن يتفرغ للقراءة والتأليف فغادرها الى قلعة ابن سلامه (من بلاد الجزائر الآن) فى ضيافة أولاد عريف ، وقضى هو وأسرته فى ذلك المقر المنعزل زهاء أربعة أعوام (٧٧٦ — ٧٨٠) نعم فى أثنائها بالاستقرار والهدوء · وتفرغ فيها لمشروعه العلمى الخطير وهو « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » وقدم لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الانسانى وقوانينه ، وهو البحث الذى اشتهر فيما بعد باسم « مقدمة ابن خلدون » · وقد شرع ابن خلدون فى تاليف هذا الكتاب سنة ٧٧٦ وانتهى منه فى وضعه الأول فى أواخر سنة ٧٨٠ هـ ·

وكان ابن خلدون حينئذ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وقد نضجت معارفه ، واتسعت دائرة اطلاعه ، وارتقى تفكيره ، وأفاد أيما فائدة من تجاربه ومشاهداته فى شئون الاجتماع الانسانى على العموم ، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن فى غمار السياسة متقلبا فى خدمة القصور والدول المغربية والأندلسية ، يدرس أمورها ، ويستقصى سيرها وأخبارها، ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وأحوالها وتقاليدها · وكان ذهنه المتوقد ، وتفكيره الخصب ، وملاحظته الشديدة ، كان كل ذلك يحمل على التعمق فى تأمل هذه الظاهرات ، ورد الأمور المتشابهة منها بعضها الى بعض ، والبحث عن أسبابها ، والتمييز بين ما ينجم عنها عرضا وما يترتب عليها عن طريق اللزوم ، وردها الى قوانينها العامة · فجاءت مقدمته هذه فتحا كبيرا فى عالم البحوث الاجتماعية ·

وقد استغرق ابن خلدون فى كتابة مقدمته خمسة أشهر فقط حسب ما يذكر هو فى خاتمتها · ويبدى دهشته واعجابه بما وفق اليه فى هذا الأمد القصير · وحق له أن يبدى دهشته واعجابه ، لأن بحوثا خطيرة كبحوثه فى المقدمة كانت خليقة أن تستغرق عدة سنين ·

ويبدو أن نظره الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها وانه كان يعيش فى الوظائف وشئون السياسة بجسمه لا بروحه ، وأن روحه كانت فى شغل عن ذلك كله بالتأمل فى شئون الاجتماع الانسانى وتحصيل المعارف ، وأن ذهنه الباحث الألمعى لا يفتأ يختزن المعلومات ، وان عقله الباطن كان لا ينفك يرتب الحقائق ، ويوازن بينها ، ويستخلص النتائج ، وعندما تهيأ له شىء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت تلك الملاحظات المختزنة وبدت النتائج التى انتهت اليها العمليات العقلية اللاشعورية فأشرقت من خلال ذلك بحوث المقدمة اشراقا ، وتدفقت الآراء والأفكار تدفقا فى صورة دعت الى دهشته هو نفسه ، كما دعا مثلا الى دهشة كثير من العباقرة والمخترعين . وكان ابن خلدون فى معظم ما يكتبه فى مقامه المنعزل بقلعة ابن سلامة يكتب عن حفظه ومن ذاكرته وبالرجوع الى مذكراته والى المراجع القليلة التى أتيح له الحصول عليها فى أثناء ذلك والى ما عسى أن يكون لديه من كتب فى مكتبته الخاصة ان كانت له مكتبة خاصة حينئذ .

ثم رأى أن تنقيح كتابه وتكملته يقتضيانه الرجوع الى الكتب والمصادر الموسعة التى لم تكن متاحة له فى قلعة ابن سلامة ، فشخص هو وأسرته الى تونس حيث تقدم له مكتباتها الغنية ما يحتاج اليه من مراجع ، فظل فى تونس أربع سنين أخرى عاكفا على البحث والتدريس لطلبة العلم حتى أتم مؤلفه ونقحه وهذبه ورفع نسخة منه فى أوائل سنة ٧٨٤ هـ الى سلطان تونس أبى العباس أحمد . وتعرف هذه النسخة بالنسخة التونسية .

مقامه بمصر

وفى أواخر سنة ٧٨٤ هـ بدرت من أبى العباس سلطان تونس بوادر رغبة فى الاستعانة بابن خلدون فى شئون السياسة . وكان ابن خلدون قد كره حينئذ الشئون التى كانت دخيلة فى طبيعته ومطامحه ، مؤثرا التفرغ للدراسة والعلم واشباع استعداده الأصيل ، فاعتزم مغادرة تونس وخطرت له فكرة الحج يتوسل بها عذرا الى السلطان ، وما زال به حتى أذن له .

فترك أهله بتونس وأبحر الى الاسكندرية فوصل اليها فى يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ ثم قصد بعد ذلك الى القاهرة . وكانت القاهرة حينئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، وكان لسلاطينها المماليك شهرة واسعة فى حماية العلوم والفنون فى المدارس العديدة التى أنشأوها وفى الجامع الذى أنشىء من قبلهم فى عهد الفاطميين . وكان صيت

ابن خلدون قد سبقه الى القاهرة ، وكان المجتمع المصرى يعرف حينئذ الكثير عن شخصيته وسيرته وعن بحوثه الاجتماعية والتاريخية • فقد كان للوراقين (أصحاب المكتبات) فى هذا العهد نشاط كبير فى نسخ المؤلفات ونشرها فى مختلف البلاد •

ومن أجل ذلك لقى ابن خلدون من أولياء الأمور فى القاهرة ومن علمائها وخاصة أهلها أحسن استقبال وأروعه ، وهوت اليه أفئدة كثيرة من الناس ، والتف حوله عدد كبير من المثقفين ينهلون من علمه ويفيدون من بحوثه • وأخذ يلقى دروسه ومحاضراته فى الجامع الأزهر • وقد رأى المجتمع المصرى فى دروسه ومحاضراته من العمق والطرافة والابتكار ما لم يعهد مثله من قبل • فزاد هذا من مكانته وشهرته ، وعظمت منزلته فى نظر الظاهر برقوق سلطان مصر فى ذلك العهد ، فعينه فى منصب لتدريس الفقه المالكى بمدرسة « القمحية » وهى مدرسة من انشاء صلاح الدين الأيوبى وقفها على المالكية يتدارسون فيها الفقه ، وكان هذا المنصب من أرقى المناصب القضائية والعلمية فى مصر •

ولم ينقطع ابن خلدون فى أثنـاء اقامته الطويلة بمصر عن مراجعة مؤلفه التاريخى « كتاب العبر » ومراجعة « مقدمته » فأضاف الى تاريخه عـدة فصـول • ونقح كتابه « التعريف » الذى سـماه أولا « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيل له كتاب « العبر » فادخل عليه كثيرا من التعديلات والتنقيحات والزيادات فى المراحل التى عرض لتاريخها فى وضعه الأول ، وأضاف اليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته ، ووصل فى رواية حوادثه الى نهاية سنة ٨٠٧ هـ أى الى ما قبل وفاته ببضعة أشهر • وقدم نسخة من المؤلف كله « المقدمة » و « العبر » و « التعريف » الى الملك الظاهر برقوق ونسخة أخرى الى السلطان أبى فارس عبد العزيز ابن أبى الحسن سـلطان المغرب الأقصى حينئذ وقد عرفت هذه النسخة الأخيرة باسم « النسخة الفارسية » نسبة الى السلطان أبى فارس وكان تقديمها له حوالى سنة ٧٩٩ هـ •

وتوفى ابن خلدون فجأة فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) عن ستة وسبعين عاما ، وكان حينئذ فى وظيفة قاضى قضاة المالكية فى مصر •

● من هذا العرض السريع لهذه الحياة الطويلة العريضة الحافلة بالعمل والانتاج نستطيع أن نلمح مكونات هذه الشخصية الفذة ، وأن نجملها فى هذه العقلية الممتازة ، والذكاء اللماح ، والقراءات المستوعبة

للتراث الثقافى الذى حفلت به الفترة التى سبقت مجىء ابن خلدون ، بالاضافة الى البيئة الطبيعية التى عاش فيها ، والى جولاته الواسعة فى ربوع البلاد العربية شرقيها وغربيها ، ومخالطته للساسة والقادة مع اشتراكه الفعلى فى صنع الأحداث وتدبيرها وتسنمه ذروات المناصب الخطيرة فى مختلف بلدان هذا العالم ٠

كل ذلك وأمثاله أتاح لابن خلدون خبرة فاحصة ووعيا مستنيرا استطاع بهما أن يتدسس الى ما وراء الظواهر من الأشياء والأحياء والأعمال والأقطار ، وأن يستملى من واقع الحياة الصاخبة التى عاشها وخبرها ، فيبلور هذه التجارب والأحداث والخبرات علوما ، وأصولا لعلوم ونظريات ، وخطوطا عريضة ما زالت تلتمع عند الآفاق الفكرية ، تهدى وتضىء ، وتمد مدها فى الكيان الثقافى الراهن ٠

● محتويات المقدمة

تطلق الآن مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة المجلدات التى يتألف منها « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ٠ ويشتمل هذا المجلد على ما يلى :

أولا : خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته ٠ وقد عرض فيها ابن خلدون لبحوث المؤرخين من قبله ، وذكر طوائفهم ، ووجوه النقص فى بحوثهم ، وأشار الى الأسباب التى دعته الى تأليف الكتاب كله « كتاب العبر » ٠

ثانيا : « المقدمة فى فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شىء من أسبابها » ٠

ثالثا : « الكتاب الأول فى طبيعة العمران من الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب » ٠ هذا هو القسم الرئيسى مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون ويشتمل على ما يأتى :

١ ـ تمهيد تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه والأسباب التي دعته الى البحث الذى يتضمنه هـذا الكتاب من مؤلفه ، ، وبين البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث ٠

٢ ـ ٧ ستة بحوث رئيسية تنطوى تحتها :

(**الباب الأول**) : في العمران البشرى على الجملة ويشتمل على ستة فصول أسماها ابن خلدون مقدمات ٠

(**الباب الثاني**) في العمران البدوى والأمم الوحشية والقبـائل ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا فرعيا ٠

(**الباب الثالث**) في الدول العامة والخلافة والمراتب السلطانية ٠ ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلا فرعيا ٠ ولعل هذا الفصل من المقدمة هو أهم الفصول ، وفيه وصل ابن خلدون الذروة في الابداع والعطـاء بحيث قدم نظريات اعتبرت فتحا علميا ، ذلك انه رأى أن كل دولة تحدث بالقبيل والعصبية ، ولكل دولة خواص معينة ، ومزايا خاصـة تختلف باختلاف القائمين عليها ، وللدول طبائع وخواص ، منها بالانفراد بالمجد ، والدعة والترف والسكون ، وهى أمور اذا ما استحكمت تسبب الشيخوخة للدولة وتقودها الى الهرم ثم الى الفناء ، ورأى ان الدول كالأفراد لها أعمار لا تتجاوزها الا نادرا ، وقدر العمر الوسطى للدول بمائة وعشرين سنة ٠

(**الباب الرابع**) في البلدان والأمصار وسائر العمران ٠ ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا فرعيا ٠

(**الباب الخامس**) في المعـاش ووجوهه من الكسب والصـنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ٠ ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا فرعيـا ٠

(**الباب السادس**) في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ٠ ويشتمل على واحد وستين فصلا فرعيا ٠

● شمول المقدمة لجميع مظاهر
الاجتماع الانسانى

هذا ويبدو مما كتبه ابن خلدون فى مقدمته انه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وشمولها لجميع أنواع البحوث الاجتماعية وانه لم يغادر أية طائفة من طوائفها الا عرض لها بالدراسة ٠

فقد عرض فى معظم البابين الأول والرابع من المقدمة للظواهر المتصلة بطريقة التجمع الانسانى أى للنظم التى يسير عليها التكتل الانسانى نفسه ، مبنيا فى الباب الأول أثر البيئة الجغرافية فى هذه الظواهر وفى غيرها من شئون الاجتماع ٠ وهذه هى الشعبة التى سماها العلامة دوركايم (٣) « المورفولوجيا الاجتماعية «La mophalagie sociale» أو « علم البيئة الاجتماعية » ، وظن هو وأعضاء مدرسته انهم أول من عنى بدراسة مسائلها ،وأول من قطن الى خواصها الاجتماعية ، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع ، ولم يدروا انه قد سبقهم الى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون ، وانه قد وقف على هذه الشعبة زهاء بابين كاملين من مقدمته !

وعرض ابن خلدون فى الفصول العشرة الأولى من الباب الثانى للظواهر المتصلة بالبدو والحضر وأصول المدنيات ٠

وعرض فى الفصول التسعة عشر الأخيرة من الباب الثانى وفى جميع فصول الباب الثالث لنظم الحكم وشئون السياسة ٠

وعرض للظواهر الاقتصادية فى جميع فصول الباب الخامس وفى سبعة فصول من الباب الثالث (وهى الفصول التى أعطاها العناوين الآتية : فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، فصل فى ضرب المكوس أواخر الدولة ، فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة للرعايا ، فصل فى أن ثروة السلطان وحاشيته انما تكون فى وسط الدولة ، فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية ، فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران ، فصل فى وفور العمران آخر الدولة ٠ وتتصل هذه الفصول كذلك بشئون السياسة والحكم التى يتألف منها الموضوع الأساسى للباب الثالث) ٠ وفى ستة فصول من الباب الرابع (وهى الفصول التى

---

(١٢) دوركايم : عالم اجتماع فرنسى (١٨٥٨ - ١٩١٧) ٠

أعطاها هذه العناوين : فصل فى أن تفاضل الامصـار والمدن فى كثرة الرفة لأهلها ونفاق الأسواق ، فصل فى أسعار المدن ، فصل فى اختلاف أحوال الأقطار بالرفه والنقر ، فصل فى تأثل العقار والضياع ، فصل فى حاجات المتمولين من أهل الامصار الى الجاه والمرافعة ، فصل فى اختصاص بعض الامصـار ببعض الصنائع . ولهذه الفصـول كذلك صلة بشئون المورفولوجيا الاجتماعية التى يتألف منها الموضوع الأصلى للباب الرابع) .

وعرض فى الباب السـادس للظواهر التربوية والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . وفى أثناء دراسته لظواهر هذا الباب تناول كثيرا من الظواهر الأخرى كالظواهر القضائية والخلقية والجمالية واللغوية والدينية .

طريقته فى عرض الحقائق

يعتمد ابن خلدون فى بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع فى الشعوب التى أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها ، وتعقب هذه الظواهر فى تاريخ هذه الشعوب نفسها فى العصور السابقة لعصره ، وتعقب أشباهها ونظائرها فى تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها ، والموازنة بين هذه الأوضاع جميعا ، والتأمل فى مختلف مناحيها، للوقوف على طبائع الظواهر وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية وما تؤديه من وظائف فى حياة الأفراد والجماعات ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بما عداها من الظواهر الكونيـة ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور ، ثم الانتقال من هذه الأمور جميعا ، وفى ضوء هذه الأمور جميعا ، الى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر فى مختلف شئونها من قوانين .

هذا هو جوهر منهجه فى البحث ، وهو المنهج الذى لا يزال الى الوقت الحاضر عمدة الباحثين فى علم الاجتماع .

● وأما طريقة عرضه فى المقدمة لما انتهت اليه بحوثه فتشبه من وجوه كثيرة الطريقة التى يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة فى عرض نظرياتهم . فهو يعنون كل فقرة من بحثه بقانون أو فكرة من القوانين أو الأفكار التى انتهى اليها ، كما يفعل علماء الهندسة المحدثون اذ يجعلون نص النظرية نفسها عنوانا للفصـل . ثم يأخذ فى بيـان الحقائق التى

استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة ، أى يأخذ فى البرهنة عليها ، كما يفعل علماء الهندسة كذلك فى البرهنة على نظرياتهم • ولا يقتصر فى هذه البرهنة على ما شاهده أو اطلع عليه فى بطون التاريخ من شواهد اجتماعية تدل على صحة القانون الذى هو بصدده ، بل يلجأ كذلك أحيانا الى البرهنة المنطقية الخالصة ان كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق الدليل العقلى ، والى الاستدلال بحقائق العلوم الطبيعية وعلم النفس ان كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق هذه الحقائق •

واليك مثالا — من ذلك الفصل الذى جعل عنوانه : « فصل فى ان الأمة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع اليها الفناء » •

فقد وضع فى رأس الفصل فكرة أو قانونا من الأفكار أو القوانين الاجتماعية التى انتهى اليها بحثه • وملخص هذه الفكرة أو هذا القانون ان خضوع أمة لأخرى لا يؤثر فى معنوياتها وحريتها واستقلالها فحسب بل يؤدى كذلك الى فنائها فناء ماديا ، فيتناقص عدد أفرادها ويتناقص نسلها بالتدريج حتى تنقرض أو تشرف على الانقراض • ثم أخذ فى البرهنة على هذه الفكرة أو هذا القانون •

وبدأ بالبراهين المستمدة من حقائق علم النفس وعلم الحياة « البيولوجيا » وعلم **الحيوان ومن مقولات العقل والأقيسة المنطقية فقال :**

« والسبب فى ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل فى النفوس من التكاسل اذ ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ، فيقصر الأمل ويضعف التناسل • والاعتماد انما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنها من نشاط فى القوى الحيوانية • فاذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد الغلب من شوكتهم ، فيصبحون مغلبين لكل متغلب ، طعمة لكل آكل ، وسواء أكانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا » •

« وفيه ، والله أعلم ، سر آخر ، وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له • والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده • وهذا موجود فى أخلاق الناس • ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة ، وانها لا تساق اذا كانت فى ملكة الآدميين • فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال الى أن يأخذهم الفناء • والبقاء لله وحده » •

ثم ختم البحث بأدلة مستمدة مما شاهده واطلع عليه فى بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية فقال :

« واعتبر ذلك فى أمة الفرس . كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير . يقال ان سعدا (يقصد سعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين فى حربهم ضد فارس) أحصى من وراء المدائن (عاصمة المدائن حينئذ) فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا رب بيت . ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ، ودثروا كأن لم يكونوا . ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم ، فملكة الاسلام فى العدل ما علمت ، وانما هى طبيعة للانسان اذا غلب على أمره ، وصار آله لغيره » .

●●●

وقد يرى ابن خلدون أن بحثا ما يحتاج الى دراسات تمهيدية ، فيقف بعض فصول أو فقرات على هذه الدراسات قبل أن يتناول البحث أو فى أثناء علاجه له . كما فعل فى الباب الأول اذ تكلم بتفصيل على الحقائق الجغرافية تمهيدا لكلامه على آثر البيئة الجغرافية فى الحياة الفردية والاجتماعية ، وكما فعل فى الباب السادس اذ تحدث عن مختلف العلوم وموضوعاتها وأغراضها وما ألف فيها تمهيدا للكلام على نظم التربية وشئون التعلم والتعليم .

● أثر المقدمة فى التراث الانسانى

سنمهد لهذا القسم بفقرتين : احداهما فى موضوع علم الاجتماع وأغراضه والأخرى فى أنواع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل ابن خلدون وما بينها وبين علم الاجتماع من خلاف ثم نقف بقية فقرات هذا القسم على ريادة ابن خلدون لهذا العلم .

موضوع علم الاجتماع وأغراضه

من المعروف أن « علم الاجتماع » La Sociologie يدرس ما نسميه بالظاهرات الاجتماعية ، والظاهرات الاجتماعية فى تعريفها المجمل عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التى تتخذ فى مجتمع ما أساسا

لتنظيم الحياة الجمعية وتنسيق العلاقـات التى تربط أفراد هذا المجتمع بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم ٠

والظاهرات الاجتمـاعية أنواع مختلفات : فمنهـا ما يتعلق بشئون بشئون السياسة ونظم الحكم ، ومنها ما يتعلق بشئون الاقتصاد ونظم الاقتصاد ونظم انتـــاج الثروة وتداولها وتوزيعها واستهلاكها ، ومنها ما يتعلق بشئون الأسرة ونظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث وما الى ذلك ، ومنها ما يتعلق بشئون القضاء ونظم المسئولية والجزاء ، ومنها ما يتعلق بشئون الدين وعقائده وشرائعه ، ومنها ما يتعلق بشئون الأخلاق وقواعد التمييز بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر ، ومنها ما يتعلق بشئون التربية ونظم الاعداد للحياة ، ومنها ما يتعلق بشئون اللغة والتفاهم ونقل أفكار النـــاس بعضهم الى بعض ، ومنها ما يتعلق بشئون الفن والجمال ، ومنها ما يتعلق بشئون التكتل الاجتمـاعى نفسه أى تجمع الأفراد بعضهم الى بعض فى قرية أو مدينة ٠

هذا هو موضوع علم الاجتماع ٠ وأما أغراضه فمن الممكن رجعها الى غرض واحد وهو الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظاهرات٠ وذلك ان الظاهرات الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد ٠ وانما تسير حسب قوانين لا تقل فى ثباتها واطرادها عن القوانين التى لا تخضع لها ظواهر الفلك والطبيعة ٠ والغرض النهائى الذى يرمى اليه علم الاجتماع من وراء دراسته للظاهرات الاجتماعية هو الوصول الى معرفة هذه القوانين ٠

● البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل ابن خلدون

ترجع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل مقدمة ابن خلدون الى ثلاث طوائف :

(**الطائفة الأولى**) بحوث تاريخية خالصة يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه وما هى عليه ، بدون أن يحاولوا استخلاص شىء من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها٠ وقد سار على هذه الطريقة جميع الباحثين من قبل ابن خلدون ٠ فنراهم فى ثنـايا علاجهم لمسائل التاريخ العـام يعرجون من حين لآخر وبحسب المناسبات على نظم السياسة والقضاء والاقتصاد والتربية وما الى ذلك من ظواهر اجتماعية ، فيصفون ما كانت عليه هذه النظم فى الشعوب التى يدرسون تاريخها ٠ كما فعل ابن حزم فى دراسته للملل والنحل وكمـا

فعل الفقهاء والمؤرخون فى دراستهم لتاريخ التشريع وتاريخ القضاء وتاريخ التربية وما الى ذلك ٠

وهذه الطائفة من الدراسات ليست من علم الاجتماع فى شيء ، لأن علم الاجتماع لا يقف عند وصف الظاهرات الاجتماعية ، وليس غرضه مجرد هذا الوصف ، وانما يرمى الى تحليلها للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين ٠ وهو اذا عرض للوصف فانما يعرض له ليكون مجرد تمهيد لغرضه الأصيل ، وهو ربط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، واستخلاص القوانين العامة التى تحكم هذه الظاهرات ٠

(**الطائفة الثانية**) دراسات وعظية ارشادية تدعو الى المبادىء التى تقررها نظم المجتمع ومعتقداته وتقاليده ٠ وذلك ببيان محاسنها ، وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها فى نفوسهم ، وحثهم على التمسك بها وتحذيرهم من تعدى حدودها ، وبيان ما ينبغى أن يتخذوه فى تطبيقها ٠ وهذه هى الطريقة التى سلكها بعض علماء الدين والخطابة والأخلاق وبعض الباحثين فى شئون السياسة والملك كابن مسكويه فى كتابه « تهذيب الأخلاق » والغزالى فى كتابه « احيـاء علوم الدين » والماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » والطرطوشى فى « سراج الملوك » ٠

وهذه الطائفة من الدراسات ليست كذلك من علم الاجتماع فى شيء ، لان علم الاجتماع ، كما رأينا ، لا شـأن له بالمواعظ والارشاد ، وانما يدرس مسائل الاجتماع كما يدرس عالم الطبيعة مسائل الطبيعة أى لمجرد الوقوف على حقيقتها وما يحكمها من قوانين ٠

و (**الطائفة الثالثة**) دراسات يوجه أصحابها كل عنايتهم الى ما ينبغى أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية بحسب المبـادىء التى يرتضيها كل منهم ٠ فهى دراسات اصلاحية ، ترمى الى تغيير النظم واصلاح الحيـاة الاجتماعية على الوجه الذى يتفق مع نظريات أصحابها فى العدالة والسعادة والفضيلة وما الى ذلك ٠ وذلك كما فعل أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » وأرسطو فى كتابيه « الأخلاق » و « السياسة » والفارابى فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » ٠ فقد عمل كل واحد من هؤلاء فى بحثه على بيان ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع من مختلف ظواهره الاجتماعية أو فى بعضها حتى يكون مجتمعا فاضلا فى نظره بحسب ما يذهب اليه من آراء فلسفية عن الأخـلاق ومقومات الحـكم ومختلف شـئون الاجتمـاع ٠

وهذه الطائفة من الدراسـات ليست كذلك من علم الاجتمـاع فى

شيء لان علم الاجتماع ، كما رأينا لا شأن له بما ينبغي أن يكون وانما يدرس ما هو كائن للكشف عن طبيعته وقوانينه ٠

●●●

● ومن هذا يظهر انه لا يوجد من بين أنواع الدراسات الاجتماعية السابقة لمقدمة ابن خلدون نوع يتفق فى أغراضه ومناهجه مع ما نسميه الآن علم الاجتماع ٠ ومعنى هذا انه قبل ظهور مقدمة ابن خلدون لم يكن علم الاجتماع قد أنشيء بعد ، وانه لم يفكر أحد من قبل ابن خلدون فى انشائه ولا فى وضع أساس له ٠

ويرجع السبب فى هذا الى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التى يسير عليها علم الاجتماع لا تتاح الا لمن ثبت لديه ان هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وانما تسير فى نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايده وتناقصه والنهار والليل فى اختلافهما باختلاف الفصول ٠ وهذه الحقيقة لم يصل اليها تفكير أحد من قبل ، بل ان نقيضها كان هو المسيطر على أفكارهم جميعاً ٠ فقد كان المعتقد ان ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين ، وخاضعة لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرعين ودعاة الاصلاح ٠ ولذلك لم يكن من الممكن حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على الوجه الذى تدرس به فيما نسميه الآن « علم الاجتماع » ٠

●●●

الى هذا الحد وقف تفكير السابقين لابن خلدون فى فهم الظواهر الاجتماعية ٠ أما ابن خلدون فقد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشئون الإجتماع الانسانى الى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون وانها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التى تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات ٠

ومن ثم رأى انه من الواجب أن تدرس هذه الظواهر دراسة «وضعية» Positive كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى ، أى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين ٠ وعلى هذا البحث وقف دراسته فى « المقدمة » ٠

فمن بحوث ابن خلدون فى المقدمة يتألف اذن علم جديد لم يعرض له أحد من قبل ٠ وقد سماه ابن خلدون « علم العمران البشرى » أو

« الاجتماع الانسانى » ، وهو العلم نفسه الذى نسميه الآن « علم الاجتماع » لان قوام هذا العلم ، كما رأينا ، هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التى تخضع لها ٠

وفى هذا يقول ابن خلدون نفسه :

« وكأن هذا علم مستقل بنفسه : فانه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى ، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية ، وهذا شأن كل علم من العلوم » ٠

ويقصد ابن خلدون من كلمة « العوارض الذاتية » أو « ما يلحق المجتمع من العوارض لذاته » ، وهى العبارة التى استخدمها هنا وفى مواطن أخرى كثيرة من مقدمته ما نقصده نحن من كلمة القوانين ٠ ويتضح قصده هذا من منهجه فى دراسته ومما كتبه هو نفسه فى الباب السادس من مقدمته فى أثناء حديثه عن علم الهندسة اذ يقول :

« هذا العلم هو النظر فى المقادير ، اما المتصلة كالخطوط والسطح والجسم ، واما المنفصلة كالأعداد ، وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية : مثل ان كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ، ومثل ان كل خطين متوازنين لا يلتقيان فى وجه ولو خرجا الى غير نهاية ، ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان » ٠ فهذا يدل على أنه يقصد من كلمة « العوارض الذاتية » ما نقصده نحن من كلمة « القوانين » ٠

ويقرر ابن خلدون نفسه أن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا الوجه لم يسبقه اليها أحد فيما يعلم ٠ وفى هذا يقول :

« وأعلم ان الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى اليه الغوص » ٠ وبعد أن بين الفرق بينه وبين البحوث السابقة له على النحو الذى أوضحناه فيما سبق، قال : « وكأنه علم مستنبط النشأة ٠ ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة ٠ وما أدرى ألغفلهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم » ٠ ثم يعقب على ذلك بعبارة يبدو فيها تحفظ العلماء وتواضعهم فيقول : « ولعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل الينا ٠ فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى أمم النوع الانسانى كثيرون ٠ وما لم يصل الينا أكثر مما وصل » ٠

والحقيقة أننا لم نعثر الى الآن على بحث سابق لبحوث ابن خلدون في المقدمة قد تناول ظواهر الاجتماع في مجموعها ، وعلى أنها موضوع شعبة مستقلة ، ودرسها كما تدرس العلوم الرياضية والطبيعية ظواهرها . أى للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين ·

● مظاهر أخرى للنبوغ

لا تقتصر فائدة « المقدمة » على ابتكارها في دراسة شئون الاجتماع ، بل تقدم لنا كذلك بحوثا قيمة في تاريخ العلوم والفنون وموضوعاتها وفروعها ومذاهب أئمتها وأهم ما ألف في كل فرع منها · وبذلك تدلنا على رسوخ قدم ابن خلدون في معظم العلوم والفنون المعروفة في عصره ، وتكشف لنا عن نواح أخرى كثيرة من مظاهر نبوغه غير النواحي التي التي تقدمت الاشارة اليها ·

فقد عرض ابن خلدون لهذه البحوث في مواطن كثيرة في مقدمته وخاصة في الفصول الثاني والثالث والسادس من الباب الأول وفي الفصول العشرة الأخيرة من الباب الخامس وفي معظم فصول الباب السادس · فدرس فنون الفلاحة والبناء والتجارة والخياطة والحياكة والتوليد والطب والخط والكتابة والوراقة والموسيقى والغناء ، ودرس علوم القراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية بمختلف فروعها والمنطق والفلسفة والالهيات وبحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوى والتعليمي · بل تحدث كذلك عن فنون غريبة تدخل في باب الشعوذة والأسرار الخفية والروحانيات كفنون السحر والطلسمات والكهانة وادراك الغيب بالرياضة والادراك الروحاني والتنجيم ، واستخراج الغيب عن طريق حساب الجمل ، والطب الروحاني ، والانفعال الروحاني ، والانقياد الرباني ، والاصابة بالعين ، وعلم أسرار الحروف أو السيمياء والاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية ، واستخراج الأجوبة من الأسئلة ، والاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية ، والزيرجة ··· وهلم جرا ·

ومن العجيب أنه لا يمر مرورا سريعا على هذه الطوائف الغريبة من العلوم والفنون ، بل يفصل القول فيها تفصيلا ، ويذكر مناهجها وطرق استخدامها والانتفاع بها وأهم ما ألف فيها ، وأشهر أئمتها ·

● شهادة علماء التاريخ والاجتماع

وخلاصة القول ان الحـديث عن مقدمة ابن خلدون مهما كان عميقا لا يمكن أن يبين جوانب الابداع فيها ، فهي تعتبر أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه كما يقول ماكدونالد . وهي مقدمة تاريخية فلسفية لم ينسج أحد على منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم ، وهناك من علماء الافرنج من خرج بتصريح خطير بعد دراسة المقدمة . فاعترف بأثر هذه المقدمة في التاريخ وفلسفته ، قال روبرت فيلنت : « من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتجلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيع أن يقدم اسما يضاهي في لمعانه ذلك الاسـم .. انه - كواضع نظريات في التاريخ - منقطع النظير في كل زمان ومكان ، حتى ظهور « فيكون » بعده بأكثر من ثلثمائة عام .. ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له ، وأما الباقون فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه .. ان أول كاتب بحث في التـاريخ كموضـوع علم خاص هو ابن خلدون » .

وقال توينبي أشهر مؤرخي الانجليز المعاصرين : « ان ابن خلدون - في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام - قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ ، وهي بلا شك أعظـم عمل من نوعه أبدعه أي عقـل بشري في أي زمان ومكان » .

وسارتون في كتابه « مدخل لتاريخ العلم » يقول : « انه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره الى اصطناع ما يسمى اليـوم بطريقة البحث التاريخي » .

أما شهادة علماء الاجتماع فيقولها « غو ميلوفيتش » أحد زعماء علم الاجتماع الألمان : « ان ابن خلدون يعتبر مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة.. انه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين ، وأبدى آراء عميقة جدا ، ليس قبل « كونت » فحسب ، بل قبل « فيكو » أيضا . والحقيقة ان ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » .

كما يقول « استفانو كولوزيو » الايطالي :

« ان مبدأ الحتمية الاجتماعية مما يعود الفخر في تقديره الى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة . ان المؤرخ العربي

العظيم اكتشف مبادىء العـدالة الاجتمـاعية والاقتصاد السـياسى قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون .

اذا كانت نظريات ابن خلدون فى حياة المجتمع تضعه فى طليعة فلاسفة التاريخ فان ما يعزوه من شأن كبير الى دور العمل والأجر والملكية تجعله اماما لاقتصاديى هذا العصر » .

وقد قارن كولوزيو بين ابن خلدون وميكافيلى فقال فى هذا الصدد :

« اذا كان ميكافيلى يعلمنا وسائل حكم الناس فانه يفعل ذلك كسياسى بعيد النظر . ولكن العلامة العربى ابن خلدون استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية كاقتصادى وفيلسوف راسخ ، مما يجعلنا بحق على أن نرى فى أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » .

ويقول « فارد » من كبار علماء الاجتماع الأمريكان : « كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية فى الحياة الاجتماعية هو مونتسكيو أوفيكو ، فى حين أن ابن خلدون قال بذلك ، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء فى القرن الرابع عشر ، حينما كان الغرب مستسلما للفلسفة الدرسانية والكلمانية استسلاما تاما » .

وقال « ناتانيل شميت » الأمريكى : « انه فيلسوف مثل أوجست كونت وتوماس يكل وهربرت سبنسر ، وقد تقدم فى علم الاجتماع الى حدود لم يصل اليها كونت نفسه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

والمفكرون الذين وضعوا أسس علم الاجتماع لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون فى حينها ، واستعانوا بالحقائق التى اكتشفها والطرائق التى أوجدها ذلك العبقرى قبلهم بمدة طويلة ، لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد أكثر مما تقدموا به فعلا » .

●●●

واذا كانت هذه هى نظرة علماء الغرب المحدثين لابن خلدون ، فليس فى وسعنا الا أن نعتز بهذه العبقرية العربية .



(٦) الأمير

ميكافيلي



الأمير

تأليف

ميكافيلى عام ١٥١٣ م

الكتاب الذى لعنه الساسة ثم تتلمذ عليه منهم الكثير في شتى العصور

ميكافيلى فى طليعة المفكرين السياسيين ، وقد شغلت أفكاره السياسية العالم منذ ظهورها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وحتى اليوم ، وقد اختلفت الآراء فى تقديرها واشتد الجدل حول تفسيرها ، فخصومه يرون انه قد أساء الانتفاع بعبقريته وان كتابه المشهور المسمى « بالأمير » من الكتب المخالفة للآداب المنابذة للدين التى يجب تحريمها واحراقها واراحة الناس من شر ما احتوت عليه ، ويذهبون الى أن الباعث الذى حداه على كتابته رغبته الملتوية فى تبصير الطغاة المستبدين بأساليب السيطرة على الشعب وانتهاب ثروة الأغنياء ، وتجريد الفقراء من الشرف والكرامة ، أما أصدقاؤه والمعجبون به فيرون فيه الوطنى الذى حفلت نفسه بحب بلاده

والذى تطلع الى الوحدة الايطالية قبل أن يولد متزينى وغاريبالدى وكافور بقرون عدة ٠

ويعزى سبب هذا التناقض الواضح فى تقدير آراء ميكافيلى الى أن حياته وتجاربه التى تأدت به الى تكوين أفكاره واستنباط نظرياته لم تعرف المعرفة الكافية ، وقد حال ذلك دون الفهم الصادق لآراءه ومراميه ، والرجل الذى اقترن اسمه بالخيانة والغدر والخداع ونكث العهود كان فى واقع حياته موظفا فى حكومة مدينة فلورنسا المدينة الايطالية الشهيرة شديد التوفر على أداء واجبات وظيفته ، ولم تشب سلوكه فى الاضطلاع بعمله شائبة ، وكان وطنيا محبا لبلاده ، وفيا لها ، حريصا على مصلحتها ، وقد ضحى فى بعض مواقفه بمصلحته الخاصة فى سبيل آرائه ومعتقداته ٠ فالتناقض بين حياته وما اتسمت به أفكاره واضح لا خفاء به ، ولكن معرفة طبيعة العصر الذى عاش فيه والتجارب التى مر بها تكشف لنا أسباب تكوين أفكاره ، واستخلاص نظرياته ٠

● ● ●

والتقدير الصحيح لآراء ميكافيلى يقتضينا النظر الى آرائه ونظرياته فى ضوء أحوال عصره وملابساته وتجارب حياته ٠ وللتاريخ فى كل عصر سيطرة على حياة الناس غير منكورة وهو الذى يقدم لنا مفتاح شخصيته وآرائه ٠

كان تاريخ ايطاليا ، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، تاريخا شائنا محزنا ، غاصا بالكوارث والنكبات والجرائم والمنكرات ٠٠ فمدينة فلورنسا التى كانت تتمتع بحكومة ديمقراطية صالحة ، تغلبت عليها حكومة أخرى طاغية مستبدة لم تكف عن سوء التصرف واقتراف الكبائر ، وأيدها الفاتيكان فى هذا الانحراف عن الجادة والايغال فى الشر والعدوان ٠ وتوالى على كرسى البابوية البابا اسكندر السادس ، والبابا يوليوس الثاني ، والبابا ليون العاشر ، وتكاثرت جرائم أسرة البارجيا وأسرة المدتشى ، وداست أرض ايطاليا أقدام الجيوش الفرنسية والاسبانية والألمانية ، ودارت أرجاء معارك دامية حامية ٠

وكان هنالك من ناحية ازدهار فنى عظيم ، وتقدم فى العلم ، ونهضة شماء فى الأدب ، ومن ناحية أخرى انحطاط قومى شامل ، وحروب داخلية مستمرة ، وخضوع مزر للأجانب ، وفساد فى الأخلاق ٠٠ ولم يكن للولايات

والامارات الايطالية جيش من أبنائها تعتمد عليه فى حماية حوزتها ، وانما كانت تستعين بالجنود المرتزقة ،وكانت هذه الجنود المأجورة تدافع مرة عن البندقية ومرة عن ميلانو ، وفى بعض الأحيان عن فلورنسا ، وفى كثير من الأحيان عن دفع غارة الغزو الخارجى ٠

وكان البندقيون يملكون نصف مقاطعة لومبارديا ٠ ولما أراد دوق ميلانو أن يعرقل تقدم هذه الجمهورية النامية ، استعان على ذلك بالفرنسيين ، وأخذ البابوات يعملون على توسيع نطاق ممتلكات الكنيسة ، وبسط نفوذهم بوسائل معيبة ظالمة ٠ وكانت ولاية نابولى مسرحا للصراع بين فرنسا واسبانيا ، وقد تغلب بها ألفونسو . صاحب أرجون ، وفرديناند الكاثوليكى على شارل الثامن ولويس الثانى عشر ملكى فرنسا ٠ وكان حظ الفرنسيين فى مقاطعة لومبارديا أقل سوءا من حظهم فى ولاية نابولى ٠ وقد تملقتهم روما حينا من الزمن ثم تنكرت لهم ٠٠ ومهما يكن من الأمر فان دعائم الحكم الفرنسى لم تستقر طويلا فى فرنسا ٠

وقد حاول البابا اسكندر السادس أن يستعمل نفوذه الروحى ، وسلطته الزمنية ، فى انشاء مملكة لابنه شيزارى بورجيا ، واتخذ السم والخنجر وسائل لجمع الأموال اللازمة لتسعير الحرب ٠

وحالف البابا يوليوس الثانى الفرنسيين والألمان والأسبانيين للاستعانة بهم فى محاربة البندقية ، طمعا فى الاستيلاء على بعض المدن التى كانت تابعة لها ٠ وبعد أن ظفر ببغيته أصر على تحرير ايطاليا من الأجانب ، وقد بذل جهدا فى مساعدة شارل الثامن ملك فرنسا ٠٠ ولكن بعد أن تغيرت الظروف شرع فى مهاجمة الفرنسيين ، وأراد أن يستفيد فى مقاومتهم من قوة اسبانيا ، فصالح البندقيين ، وأخرج فرديناند الاسبانى من حلف كامبرى ، وأثار حربا جديدة فى ايطاليا لم يوفق فيها فى بادىء الأمر ٠

ودعا لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى عقد مؤتمر فى بيزا لخلع البابا ، ولكن أمراء أوروبا لم يقروه على ذلك ٠ وتحالف مكسميليا امبراطور ألمانيا ، وفرديناند الكاثوليكى وهنرى الثامن ملك انجلترا ، والسويسريون، لمقاومة ملك فرنسا ٠٠ وطرد الفرنسيون فى النهاية من ايطاليا ٠

ومات البابا يوليوس الثانى عام ١٥١٣ وقد ورط ايطاليا فى حروب كثيرة أريقت فيها دماء الايطاليين فى غير طائل وطرد الفرنسيين من ايطاليا مكن للاسبانيين ، ولم يستطع البابا يوليوس الثانى ايقاظ الشعور القومى

في الايطاليين وقد خلفه على العرش البابوى ليو العاشر ـ واسمه جيوفاني دي مدتشي ـ وهو الابن الثاني للورنزو العظيم ، وكان قد طرد من فلورنسا حينما سقطت حكومة أخيه بيرو ، وأقام الفلورنسيون حكومة جمهورية ، مسترشدين بآراء المصلح الديني سافونارولا ٠

●●●

في هـذا العصر المضطرب ، الحافل بالانقـلابات والمفاجآت ، ولد نيقولا ميكافيلي وقضى حياته (١٤٦٩ م ـ ١٥٢٧ م) ٠ وقد نشأ في أسرة شريفة تنتمي لحلف الجلف ، وهو الحزب الذى كان يناصر البابا ، ويعارض حزب الجيبلين الذى كان يناصر امبراطور ألمانيا ٠ وقد ولي القضـاء في فلورنسا ، في أجيال متعاقبة ، كثيرون من رجال أسرته ، وعمل حينا من الزمن أمينا على الأموال ، ولم يكن ثريا ولكنه كذلك لم يكن فقيرا ، وكان ولوعا بالدرس والمطالعة ٠

والمعلومات عن نشأة نيقولا ميكافيلي وطفولته ومطالع شبابه مطوية في مدارج النسيان ، ولم يبدأ في دخول التاريخ الا وهو في السادسة بعد العشرين من عمره ٠ وقد نشأ ميكافيلي في ابان حكم لورنزو مديتشي ، وكانت معاهد التعليم حينذاك كثيرة في فلورنسا ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه عرف المؤلفين اليونانيين واللاتينيين في شبابه ، وقد وسع دائرة اطـلاعه بعد ذلك بدراسـاته الخاصة ، وادامة التفكير والتأمل في الحوادث التى تقع تحت بصره وسمعه ، وبممارسته لشئون الحياة ومعرفته بالنـاس ٠

على أن ثقافته بوجه عام كانت محدودة الى حد ما ٠ وقد نفعه ذلك من بعض الوجوه ، اذ مكنه من الاحتفاظ بأصالة تفكيره ونضارة أسلوبه ، ولم يجعله يسقط تحت أعباء المعلومات المتكاثرة ، وأثقال المعرفة الواسعة٠٠ كما كان يحدث لكثيرين من معاصريه الذين أفقدهم الاستغراق في الدرس والعكوف على الكتب القديمة ٠

وكانت الحوادث الجسيمة التى وقعت في عصره ، ومؤامرات الأمراء ، وفضائع البابوية تجعله لا يخلو بالكتب وحدها ، وتحفزه الى النظر في الحوادث التى تتوالى حوله سراعا ٠٠ ومما كان له أثر بالغ في نفسه مجيء الفرنسيين الى ايطاليا عام ١٤٩٤ ٠ وقد تلا ذلك سقوط اسرة المديتشي ، واعلان الجمهورية في فلورنسا ٠ وكان ميكافيلي بحكم اطلاعه على الأدب اللاتيني وتعلقه بذكريات عظمة روما القديمة ، يمقت كل شيء له اتصال

بالكهنوت ٠٠ ولذلك لم يعجبه أن يسيطر على جمهورية فلورنسا راهب مثل سافونارولا ، وكان هو مع خصوم الراهب المصلح العنيد ، وقد أبدى فى بعض كتاباته بعد ذلك شيئا من الاعجاب بالراهب الشهيد ٠

ولما غلب الراهن على أمره ، وتمكن أعداؤه من القضاء عليه ، لم يأسف ميكافيلى على الاتجاه الذى سارت فيه الحوادث ٠ واستتبع ذلك بضرورة الحال تغييرا فى المناصب العامة ووظائف الحكومة ٠ وكان ميكافيلى حينذاك قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، ولم يكن قد التحق بمهنة بعد ، ولم يكن له دخل خاص ، فأخذ يعمل للحصول على وظيفة تدر عليه شيئا من المال ، ولم يجد صعوبة فى الظفر بالوظيفة المطلوبة ٠٠ فقد كانت جمهورية فلورنسا قد تعودت أن تستخدم الكتاب ، وتدفع الأجور المناسبة ، وكانت تتخذ أكثرهم سكرتيرين ، وقد اختير ميكافيلى فى عام ١٤٨٩ لشغل وظيفة سكرتير للجمهورية ، وظل يعمل فى وظيفته حتى عام ١٥١٢ حينما سقطت الجمهورية ٠

وقد أخلص فى خدمة الجمهورية ، وكانت أعمال وظيفته تستغرق أكثر وقته من الصباح حتى المساء ٠ وبعض الرسائل الرسمية التى كان يحررها لا تزال محفوظة فى أرشيف فلورنسا ٠

وكان منشرح الصدر للحياة ، حسن العلاقة بزملائه فى الادارة التى كان يعمل بها ، وقد أرسلته حكومته مرتين الى بلاط امبراطور ألمانيا ، وأربع مرات الى البلاط الفرنسى ، وأوفد مرتين الى روما ، وعهد اليه بمهمات فى الجمهوريات والولايات الايطالية المختلفة ، وقد مكنته هذه الأسفار والاتصالات بالرجال الذين يتولون المناصب العليا ، ويقبضون على أزمة الأمور ، من أن يدرس المشكلات السياسية دراسة عملية ، ويتعرف على أسباب تخلف بلاده من الناحية السياسية ٠

وفى عام ١٥١٢ تمكنت أسرة المديتشى من العودة الى حكم فلورنسا ، وكان هذا الانقلاب سببا فى اقالة ميكافيلى من خدمة الحكومة الفلورنسية ٠ ولما كان يعد من أنصار الحكومة الجمهورية السالفة ، لذلك صدر قرار بنفيه فى حدود الجمهورية ، وانذاره بالعقوبة الشديدة اذا حاول الخروج عن تلك الحدود ٠

وفى تلك الفترة ــ وقد أبعد عن المدينة التى نشأ بها ، ولم يأل جهدا فى خدمتها ، وحرم من مرتبه الذى كان يستعين به على تكاليف الحياة ومطالب العيش ــ أقبل على القراءة والتأليف ، فكتب روايته التمثيلية « مندرا جورا » التى أعجبت بها ليون ، وكان هذا الاعجاب من دواعى صفحه

عنه . وعلى الرغم من نجاح هذه الرواية فانه رأى أن يشغل وقته ويقصره على أشياء أجل منها شأنا وأقرب الى طبيعة تفكيره .. وفى هذه العزلة التى أرغم عليها بدأ يكتب كتاب « الأمير » .

فكرة الوحدة الايطالية

وكانت الفكرة الكامنة وراء هذه المؤلفات جميعها ، هى العمل على توحيد الولايات الايطالية المختلفة تحت زعامة أمير واحد يكون له جيش وطنى قوى يستطيع به أن يطهر شبه الجزيرة الايطالية من الطغيان الأجنبى . وفكرة الوحدة الايطالية هى الفكرة التى كانت غالبة عليه مالئة نفسه ، وقد تعلق قبله دانتى بهذه الفكرة ، ورأى ان الوسيلة الوحيدة لضم الولايات الايطالية فى وحدة شاملة ، هى اعادة بناء الدولة الرومانية واستدعاء هنرى الألمانى للجلوس على عرشها .

ولكن ميكافيلى كان ينفر من فكرة اقامة أمير أجنبى على العرش الايطالى ، وكان يرى أن يقوم بهذه المهمة الضخمة أمير ايطالى له من الشجاعة والاقدام وسعة الحيلة والدهاء ، ما يمكنه من تذليل الصعاب ، والتغلب على العقبات المعترضة . وكان مثله الأعلى فى بادىء الأمر « شيزارى بورجيا » ابن البابا اسكندر السادس . ومع ما عرف عن هذا الرجل من قسوة بالغة ، وما ارتكب من جرائم منكرة ، فان ميكافيلى كان يرى انه وحده الأمير الذى جمع بين الجرأة الحربية والبراعة السياسية .

وعند ميكافيلى ان العمل على تحرير بلاده وتحقيق استقلالها يبرر أشياء كثيرة . ومن أقواله فى ذلك : « حينما تكون سلامة البلاد متوقفة على القرار الذى يتخذ ، فانه يجب ألا يكون هناك مكان لاعتبارات التفريق بين العدالة وغير العدالة ، والانسانية والقسوة ، والمجد والعار . ومتى أبعدنا جميع الاعتبارات الأخرى تصبح المسألة المفردة الباقية هى : ما هو الطريق الذى يمكن أن ننقذ بسلوكه حياة البلاد وحريتها ؟ » .

كان تحقيق الوحدة الايطالية فى رأى ميكافيلى من المطالب العظيمة التى تستبيح من أجلها كل وسيلة ، وكانت العقبات القائمة فى سبيل تلك الوحدة كثيرة .. فهناك أمارات تتوارث حكمها أسر أرستقراطية ،

وولايات تحكم حكما ديمقراطيا ، وولايات بعضها يتبع النظام الاقطاعى ، وبعضها يسيطر عليه الأجانب ٠

وكانت الأسر الأرستقراطية تحسن الحكم فى بعض الولايات ، وتسيء الحكم فى ولايات أخرى ٠٠ ففى ميلانو ازدهر الفن فى عهد أسرة سفورزا ، وفى رومانى ساءت حالة المدن التى حكمها الأمراء ٠ ونرى من ذلك أن تحقيق الوحدة الايطالية كانت أمنية محفوفة الصعاب ، ومن أجل بلوغ تلك الأمنية كتب ميكافيلى كتاب « الأمير » وأهداه الى لورنزو مديتشى حاكم فلورنسا ٠ وكان يبدو لميكافيلى ان لورتزو هو أجدر الأمراء الايطاليين بتحقيق الوحدة الايطالية بعد شيزارى بورجيا ٠

● ولابد لنا عند النظر فى هذا الكتاب ، الذى لا يزال يثير بمحتوياته النقاش بين المفكرين والمفسرين من الرجوع الى طبيعة العصر الذى ألفه فيه ميكافيلى ٠

كانت ملوك أوروبا وأمراؤها فى القرن الخامس عشر يتبعون سياسة قاسية ، قد لفظت الرحمة ، ونبذت مبادىء الشرف ٠٠ فهى لا تعتمد على غير العنف والعدوان ، وطلب النجاح بأى ثمن ٠ وكان مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » هو المبدأ السائد ، والقاعدة المتبعة ٠ وقد سار على هذا المبدأ لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وتشبه به حلفاؤه فاتبعوا أساليبه دون أن يكون لهم نصيب من مواهبه ٠

وفى اسبانيا اتخذ الدين ستارا لاخفاء الظلم والطغيان والتعصب الذميم ٠ وفى ألمانيا كانت سياسة شارل الخامس قائمة على الخداع والغش والقسوة ، ولم يجد البابا اسكندر السادس ، ولا البابا يوليوس الثانى ان هناك تعارضا بين وظيفة الدين واقتراف أشد الجرائم نكرا وأدنها على التواء الطبع وفساد الخلق ٠

فى ذلك العصر ، عصر الجرائم والمنكرات ، كان الأمير هو الطاغية الذى يؤثر مكر الثعالب ، لانه كانت تنقصه قوة الأسود ٠ ومقاومة أمثال هؤلاء الأمراء باتباع مبادىء الأخلاق الكريمة ، كان فى نظر ميكافيلى معناه قبول الخديعة والبوء بالهزيمة ٠ وكما أنه من الغباء والبلاهة أن يتجرد الانسان من السلاح أمام العدو الذى يحمل السلاح أو الجار المتأهب لمهاجمتنا ٠٠ فكذلك من السخف ادعاؤنا القدرة على الانتصار دون أن نستعمل الوسائل التى هى مصدر قوة الآخرين ٠

والرجل الذى يريد أن يتغلب على هؤلاء الأمراء ، وينتصر على البابا ــ سواء بتجريده من أملاكه أو باتخاذه وسيلة من وسائله ــ لابد له أن

يكون شديد البأس ، صارم العزم ، داهية فى السياسة ، قادرا على التخلق بكل الصفات الرديئة التى ساعدت الآخرين على النجاح · وتحرير ايطاليا لا يتم باتباع نظرية أفلاطون ، وانما يتم باتباع وسائل الشدة والعنف · وكان من الصعب أن يدعو رجل مثل ميكافيلى الى اتباع سياسة اللين والرحمة والعدالة ، فى العصر الذى كان فيه الفاتيكان يبارك سياسة الغدر والقسوة ، ويمارس ذلك أمراء فلورنسا وميلانو والبندقية ·

وقد كان ميكافيلى رجلا عمليا يريد فى جد وحماسة النهوض بايطاليا ، ولذا رأى أن يقدم للأمير الذى يتولى القيام بهذه المهمة النصائح العملية التى تكفل له تحقيقها ·

●●●

وكتاب « الأمير » الذى أثار غضب الكثيرين ، لم يكد يلتفت اليه أحد حين ظهوره · ولما كان الكتاب مهدى الى لورنزو دى مديتشى ، فقد وافق البابا على طبعه · ولم يستنزل الفاتيكان الصواعق على الكتاب الا بعد انفصال انجلترا عن الكاثوليكية ، فقد أطلق الكاردينال بولو على هنرى ملك انجلترا اسم ميكافيلى ، مبالغة فى الحملة عليه وتشويه سمعته · وألحق ديوان التفتيش مؤلفات ميكافيلى بقائمة الكتب المحرمة ، وأدان البابا بولس الرابع كتاب « الأمير » ، وتوالت الهجمات على الكتاب ومؤلفه. وصنع الجزويت تمثالا مصغرا لميكافيلى وحرقوه ·

وقد أخذ على ميكافيلى أنه أعطى للرجل الذى سيتولى توحيد ايطاليا فى المستقبل درسا فى الاستبداد والخيانة والخروج عن الدين · والواقع ان الأمراء الايطاليين ، فى العهد الذى ظهر فيه الكتاب ، كانوا لا يتورعون عن اتخاذ الغش والغدر والعنف وسيلة للمحافظة على كيان الدولة وكان الحال كذلك فى سائر أوروبا ·

فالملك فرديناند الكاثوليكى كان من أشد رجال عصره خداعا وأقلهم وفاء بعهد ، وكان يفخر بأنه خدع لويس الثانى عشر ملك فرنسا أكثر من عشر مرات ، وأقسم قائده كونسالفو لدوق كالابرى بألا يخشى شيئا من ذهابه الى اسبانيا · فلما وصل هذا الدوق البائس الى شبه الجزيرة الاسبانية ، ألقى به فى ظلمات السجن ·

وريتشارد الثالث ملك انجلترا كان أكثر رجال عصره استعمالا للسم · وقال « هالام » عن لويس الحادى عشر : « اذا لم يكن حقيقة

انه هو الذى اخترع الغش ، فانه كان أقدر الناس على ممارسته » · وقد خان السويسريون لودفيكو ألموزو فى ميدان القتال ·

وأمثال هذه الجرائم السياسية كثيرة فى التاريخ · ومعنى ذلك ان ميكافيلى لم يقدم درسا فى الانحراف السياسى والالتواء الخلقى ، وانما كان المؤرخ الصارم الذى اراد ان يرسم لأميره الخطة التى يتبعها فى محاربة أعدائه · أما ميوله الخاصة بوجه عام ، فانها كانت موجهة الى التماس الخير · وهو فى الوقت الذى يحذر فيه الأمير الجديد من أخطار الثقة والمحافظة على العهد والتزام الصدق مع الخونة الأشرار ، لا يتأخر فى ان يضرب له مثل الامبراطور الرومانى العظيم « مرقص اورليوس » الذى كانت حياته مثلا يحتذى فى تحرى العدالة والانسانية والتمسك بالفضيلة ، ويقول : « مما لا شك فيه انه جميل بالأمير أن يفى بوعده ، ويحافظ على عهده » · ولكنه يسرع فيضيف الى ذلك قوله : « يجب أن يكون الانسان خيرا اذا كان الناس جميعا خيرين · ولكن لما كانوا جميعا أشرار ، ومستعدين على الدوام لنكث عهودهم ، فانك كذلك فى حل من الوفاء لهم » ·

فميكافيلى لا يتطوع بتقديم النصائح السيئة بدافع من سوء الطبع أو الاستهانة بالاخلاق ، وانما بحافز من الضرورة ، لانه يقول « على الأمير ألا يترك عمل الخير اذا استطاع أن يتجنب ذلك » · وهناك بعض المذاهب الفكرية التى تفرق بين آداب الفرد وآداب الدولة · فالفرد عليه أن يضحى بكل شىء من أجل المحافظة على الفضيلة أما الدولة فانها تضحى بكل شىء — حتى بالفضيلة نفسها — من أجل المحافظة على كيانها ·· فحينما يتعرض المجتمع للأخطار الشديدة ، فانه يجب انقاذه بأى ثمن ، كما أن انقاذ السفينة المشرفة على الغرق قد يستلزم القاء ما بها من الخيرات فى البحر ، والتخلص من بعض ركابها اذا لم يكن هناك مندوحة عن ذلك · وقديما قال الحكماء أن الغرض الأسمى والقانون الأعلى ، هو سلامة المجتمع ·

● محتــوى الكتاب

وصف لنا ميكافيلى حيــاته حينما بدأ يكتب كتابه الذائع الصيت بقوله « حينما يقبل المساء أعود الى دارى وأذهب الى غرفة المطالعة ، وقبل دخولها اخلع ملابسى الخشنة الملطخة بالوحل التى ألبسها فى الريف ، وأرتدى أحسن ثيابى وهكذا بعد أن اكتسى بالكساء اللائق أدلف الى جماعة الرجال الذين عاشوا فى غابر الزمان ، وأغتذى بعد ترحيبهم بى من ذلك

الغذاء الذى يمدنى بالقوة ويعيد الى النشاط والذى أنا مدين له بكيانى ، وأجترىء على التحدث معهم وأوجه اليهم الأسئلة عن أسباب ما قاموا به من الأعمال . وهم يترفقون بى ويتفضلون بالاجابة عما أوجه اليهم من الأسئلة فيزول عنى الشقاء وأنسى آلامى جميعها وأصير غير خائف من الفقر أو المـوت ، وأنسى فيهم نفسى ، وقد قال دانتى « المعـرفة مكونة مما سمعه الانسان » ولذلك قد دونت كل ما أعجبت به فى حديثهم ، ومن هذه المذكرات ألفت كتيبا وهو كتاب « الأمير » درست فيه الموضوع جميعه بأقصى ما أستطيع من العناية والاتقان » .

وهكذا كان يهرب ميكافيلى من عالم الواقع الى عالم الفكر والخيال ، وربما لا نستطيع أن نقـدر كتابه التقدير الوافى اذا لم نقدر الحـالة النفسـية التى كان يعانيهـا وهو يكتبه ، فقد كتبـه وهو يقاسى الفقر والحرمان من غرفته الصغيرة فى سان كاسشيان سنة ١٥١٣ وقد كان بمثابة الوزير المخلص للجمهورية الناجح فى عمله المتحمس للجيش الذى دربه للدفاع عنها ولكنه فى ظروفه منفى شريد أطلق سراحه من السجن ولا تزال يداه منتفختين من أثر التعذيب ، وقد فقد مكانته وعمله وماله وليس عنده ما يكفى زوجته وأولاده ، وفى مختلف الحالات التى عرضت له كان تفكيره يتجه دائما الى السياسة ونظم الحكم ومن أقواله عن نفسه : « لقد تعودت أن أفكر فى الحكومة ونظام الدولة ، ولما كنت لا أستطيع الكلام عن صناعة الحرير أو الصوف أو الخسارة والربح لذلك قضى الحظ أن أستمتع ببحث فن الحكم » . وتفسر لنا التجارب المرة التى مر بها ما يتخلل بعض عبـارات الكتاب من احتقار للبشر وسوء ظن بالطبيعـة الانسانية ، على أن كتاب الأمير لا يمثل آراء ميكافيلى السياسية تمثيلا كاملا ، فقد بسط آراءه السياسية بطريقة أكثر اعتدالا وأتم استيفاء فى كتاب « المطارحات » وفى رسائله ، ولكن ربما كان من أسباب اشتهار كتاب الأمير أنه يكتبه وهو يعانى الأزمات النفسية وقد امتلأ نفسه مرارة وألما ، فجاء خلاصة موجزة شديدة التركيز لتجاربه السياسية وتفكيره العميق فى نظم الحكم مما جعل الكتاب مرجعا للملوك والأمراء والحكام والسياسيين فى مختلف الأمم .

● ● ●

وهذا الكتاب الموجز مكون من ستة وعشرين فصلا ، وفرط ايجازه جعل ميكافيلى لا يلجأ فيه الى الاستطرادات والتكرار الذى يملأ صفحات كتاب « المطارحات » ، والأمير الذى يصفه لنا ميكافيلى فى كتابه أمير ايطالى فى جوهره ولكنه يحمل سمات أمراء عصر الاحياء ، وهو طاغية حاكم بأمره ، ولا يمكن أن يكون غـير ذلك اذا صمم على أن ينجح فى تحقيق

الوحدة وتسليم بلاده وتحريرها من سلطة الأجنبى ، واذا نجح فى تسليح قومه وطرد الأجنبى فانه سيشرع بعد ذلك فى سن القوانين الصالحة ويعمل على بقاء نظامه وحمايته بأن يكل الى الشعب الدفاع عنه ٠

وهو يستهل الفصل الأول بقوله : « كل الدول والأملاك التى عاش الناس تحت سلطتها فى الماضي وفى العصر الحاضر كانت اما جمهوريات واما امارات والامارات وراثية وأسرة الأمير قد استقرت طويلا فى الحكم أو انها امارات حديثة العهد ، والامارات الحديثة العهد اما انها جديدة كل الجدة مثل امارة أسرة فرانشيسكو سفورزا فى ميلان واما انها قد أضيفت الى الدولة التى ورثها الأمير مثل مملكة نابولى في علاقتها بملك اسبانيا ، وأمثال هذه الأملاك المضافة اما انها كانت قبل ذلك قد ألفت أن يحكمها أمير آخر أو انها كانت ولاية حرة ، والأمير اما أن يضمها الى أملاكه بقوة سلاح الغير واما بقوة سلاحه أو بالحظ أو بالشجاعة » ٠

ويشير فى الفصل الثانى الى انه سيقصر الكلام على الامارات لانه أطال الكلام على الجمهوريات فى كتاب « المطارحات » وفى الامارات الحديثة يوجد الأمير دولة جديدة ، أو يجدد امتلاك الدولة ، والامارات التى يوجد فيها الأمير دولة جديدة هى الموضوع الرئيسى فى الكتاب لأن الصعوبات التى يواجهها الأمير فى انشاء الدولة الجديدة أكثر من الصعوبات التى يواجهها فى الامارات الموروثة ، ولذلك تستلزم الامارات الحديثة معرفة أوسع وقدرة أعظم على الحكم الصالح والادارة الحسنة ، والامارات التى ينالها الأمير بالغزو يضر غزوها بمصلحة الكثيرين والذين يستفيدون من الغزو ينتظرون أن تمكنهم من فوائد أكثر من الفوائد التى ظفروا بها ٠

وحينما تكون المقاطعة التى ضمت تشبه المقاطعات التى ضمت اليها تكون الصعوبات المعترضة أقل ويكفى فى التغلب عليها الاحتفاظ بالعادات القديمة ويسفك الدم الأمير السابق ، ولكن حينما يكون كل شىء فى الامارات الجديدة مختلفا تكثر العقبات والمشكلات وفى هذه الحالة من اللازم للأمير أن يذهب الى الولايات الجديدة ويقيم بها وبهذا يستطيع أن يوطد مكانته ويستديم سلطته ، ووجود الأمير فى تلك الولايات الجديدة يمكنه من أن يعالج المشكلات عند بدء ظهورها وقبل أن يستفحل خطرها ، وفضلا عن ذلك فان وجوده يحول بين رجاله وبين استغلال الولايات الجديدة وانتهابها ، ويرضى لك جمهرة الشعب لانه يستطيع أن يتقدم اليه مباشرة بالشكوى من أى لون من ألوان الظلم يلحقه وهذا يجعل أفراد

الشعب يحبونه اذا كانوا يريدون الخير والسلامة ، ويرهبونه اذا كانوا نزاعين الى الشر والعدوان ٠

ويستطرد ميكافيلى ليقول ان الناس اما أن نتملقهم ونسترضيهم أو نستذلهم ونغلبهم على أمرهم ، وذلك لانهم يستطيعون أن ينتقموا للأضرار التافهة التي تصيبهم ولكنهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن ينزل بهم الأضرار الجسيمة ، ولذلك على الأمير أن يكون من هذا النوع الذى لا يخشى معه الانتقام ، ومن ثم يحسن محاولة استمالة الجيران الضعفاء لأن هؤلاء سرعان ما يخضعون للدولة الجديدة اذا كانت قوية ، وفى الوقت نفسه من الضرورى اخضاع الجيران الأقوياء وألا تساعد الأجانب الأقوياء أو تسمح لهم بدخول دارك ٠

ويشير ميكافيلى فى الفصل الثالث من كتابه الى حكمة الرومان فى الحكم ، وانهم كانوا لا يكتفون بمعالجة المشكلات الراهنة بل كانوا يستبقون الحوادث ويتناولون المشكلات المتوقعة ، ويذكر بهذه المناسبة أن المشكلات مثل الأمراض يسهل علاجها فى بادىء أمرها ولكن يصعب تشخيصها ، فاذا اشتد أصبح من الصعب علاجها ومن السهل تشخيصها ، والاضطرابات السياسية يمكن اخمادها سريعا اذا توقع اقتراب حدوثها ، والحاكم البعيد النظر هو الذى يدرك ذلك ٠

ويستطرد ميكافيلى قائلا : « وقد أظهر سير الحوادث فى ايطاليا أن فرنسا هى التى عملت على تقوية مكانة البابوية فى ايطاليا ووطدت أقدام الأسبانيين بها ، وكان ذلك سببا لتدمير جيشها وهزيمتها ، ويمكن أن نستخلص من ذلك قاعدة عامة لا تخطىء الا نادرا ، وهى أن الذى تقع عليه تبعة قوية انما يسعى الى حتفه بظلفه ، وذلك لأن هذه القوة اما أن تكون مستمدة من الدهاء والحيلة أو آتية من الشدة والعنف ، والمكر والعنف كلاهما يثير اشتباه الذى أصبح قويا » ٠

●●●

وفى الفصل الخاص بكيفية حكم الأقسام الادارية يقدم ميكافيلى ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دويلة اعتادت أن تعيش بحسب قوانينها وفى حرية ، الأولى هى تخريبها وازالة معالمها والطريقة الثانية أن يذهب الأمير ويقيم بها ، والطريقة الثالثة أن يبقى لها قوانينها ويكتفى بتحصيل الجزية المضروبة عليها ويؤيد طائفة من الأشراف تدين له بالولاء ، ويؤيد ميكافيلى وجهة نظره بأمثلة من التاريخ القديم ، ويقول فى صراحة ووحشية : « الذى يصبح سيدا لمدينة قد تعودت الحرية ولا يدمرها عليه ان ينتظر تدميرها له » ٠

● كيفية حكم الدولة

وفى الفصل السادس ينتقل بنا ميكافيلى الى صميم موضوع كتابه ، وهو كيف يحكم الأمير الجديد الدولة الجديدة ، وحكم مثل هذه الدول فى رأيه متوقف على مزايا الأمير ومواهبه قبل كل شىء ، والأمير الذى يعتمد على براعته وقدرته يستطيع أن يكون أكثر اطمئنانا الى مكانته من الأمير الذى يعتمد على الحظ الحسن وان كانت مواتاة الحظ لازمة له لزوم المواهب والمزايا ولكن كلما كان اعتماده على قدرته وكفايته أكثر من اعتماده على اسعاف الحظ كان مركزه أثبت ٠

ويستطرد ميكافيلى قائلا : « والرجال الذين أصبحوا أمراء باقدامهم وشجاعتهم يحصلون على الدويلات التى يحكمونها بصعوبة ، ولكنهم يجدون سهولة فى الاحتفاظ بها ، وذلك لأن الصعوبات التى تواجههم فى الحصول على الامارات ينشأ جانب منها من جراء النظم الجديدة والقوانين التى يضطرون الى ادخالها والأخذ بها فى انشاء الدولة وتوطيد مكانتهم » ٠ والنظم الجديدة تثير العداء من جانب الذين كانوا يعيشون فى ظل النظم القديمة ، والذين تتحسن أحوالهم فى ظل النظم الجديدة يتلقونها أول الأمر فى شىء من التردد والتهاون ، وذلك لأنهم من ناحية يخشون أنصار النظام القديم ومن ناحية أخرى لأن البشر بطبيعتهم ضعاف الايمان ولا يسرعون الى تصديق الأشياء الجديدة الا بعد أن يختبروها ونتيجة لذلك نرى الذين يقاومون التغيير يهاجمونه فى عنف فى حين أن المدافعين عن النظم الجديدة ينقص دفاعهم فى العادة التحمس والايمان ، وهذا يجعل موقف المجدد وأنصاره مستهدفا للخطر ، ويفرق ميكافيلى بين المصلح المجدد الذى يقف مفردا أو المصلح المجدد الذى يستند الى قوة تحميه أى بين هؤلاء الذين يحاولون أن يحملوا الناس على الأخذ بآرائهم عن طريق الاقناع والذين يحملون حملا على اعتناق آرائهم بطريق الارغام والعنف ، وعنده أن الأولين يخفقون وتنتهى حياتهم بمأساة فى حين أن الآخرين ينتصرون ٠ وجمهرة الشعب بطبيعتها متقلبة الأهواء ومن السهل اقناعها ولكن من الصعب استمساك الناس بالاقتناع ، ولذلك على المصلح أن يحسب ذلك التقلب ، وأن يكون له من القوة ما يرغمهم به على ما سبق أن اقتنعوا به اذا انحرفوا عن ذلك الاقتناع ٠

وفى فصل آخر من الكتاب يتحدث ميكافيلى عن الولايات التى تكتسب عن طريق الخطأ أو بمساعدة جيوش أجنبية ، وهو يرى أن الذين يصبحون

أمراء من عامة الشعب عن طريق الحظ لا يبذلون من جانبهم سوى القليل من الجهد ولكنهم لا يستطيعون المحافظة على مكانتهم الا ببذل مجهود ضخم، واذا لم يكونوا على جانب كبير من الشجاعة وسداد الرأى وسرعان ما يفقدون ما جاد به عليهم من الحظ الحسن ، ويضرب ميكافيلى مثلين لمن يصبح أميرا عن طريق الشجاعة أو طريق الحظ ، وهما فرانشيسكو سفورزا وشيزارى بورجيا وكانا معاصرين له ، وقد اعتمد الأول على شجاعته واستطاع أن يرتفع من مستوى المواطن العـادى الى مرتبة دوقية ميـلان وقد بذل فى الحصول عليها جهدا عظيما ولم يجد بعد ذلك صعوبة فى الاحتفاظ بها ، أما شيزارى بورجيا دوق فالنتنوا فقد ظفر بالامارة بمعاونة أبيه البابا اسكندر ، وفقد الولاية التى أمر عليها بعد وفاة أبيه وذلك برغم ما بذل من جهد فى سبيل تثبيت قواعد دولته .

ويمضى ميكافيلى فى الحديث بعد ذلك عن الأمراء الذين وصلوا الى الامارة لا عن طريق الحظ الحسن وانما بارتكاب الجرائم وكأن شيزارى بورجيا لم يكن كافيا ! ويقدم لذلك مثلين ليحتذيهما من يجد نفسه فى ظروف مقتضى اتخاذ هذه الوسائل المستنكرة ، الأول أجاثوكل الصقلى الذى أصبح بمهارته الحربية سيد سرقوسة رغم صفة أصله ، فقد سعى فى أول أمره الى مصادقة القرطاجنيين ثم جمع بعد ذلك أعضـاء مجلس الشيوخ وأمر عساكره بقتل أعضاء مجلس الشيوخ وزعماء الشعب ، ونجح بعد ذلك فى الاستيلاء على الحكم دون أن يلقى معارضة ، واستطاع بعد ذلك مهاجمة قرطاجنة واحراجها حتى اضطر القرطاجنيون الى الانسحاب من صقلية ، ويشعر ميكافيلى بأن ذكر هذا المثل قد يبعث القارىء على أن يظن انه يحبذ هذا الغدر تحبيذا تاما فيستدرك قائلا : « لا يمكن أن تعد من الشجاعة أن يقتل الانسان المواطنين زملاءه ويخون أصدقاءه وأن يكون غادرا مجردا من الرحمة خارجا على الدين ، فان هذا قد يكسب الأمير قوة ولكنه لا يضفى عليه المجد ، ويستطيع الانسان أن يلفت النظر الى شجاعة أجاثوكل فى مواجهة الأخطار والتغلب عليها ويبدو أنه لا يقل منزلة عن كبار القادة المتفوقين ولكن برغم ذلك فان قسوته الوحشية وتجرده من الانسـانية وجرائمه التى لا تعد تمنع من الحاقه بركب الرجال العظماء الأعليـاء » .

والمثل الثانى الذى يقدمه ميكافيلى هو أوليفرتو الفيرومارى فقد نشأ يتيما وكفله خاله جيوفانى فوليانى ، وأرسله ليعمل جنديا تحت اشراف باولوفيتلى ليتدرب على القيادة ، ولما كان ذكيا جرىء الجنان صار قائدا بارعا ، ولكنه وجد أنه مما يزرى به أن يتلقى الأوامر من غيره من الناس ، ولذلك صمم على الاستيلاء على فيرمو وكتب رسالة الى خاله يخبره فيها

انه يريد أن يدخل المدينة فى موكب حافل تحف به الفرسان ليرى الشعب فخامة أمره وقوة جيشه ، وتلقاه خاله بالترحيب والاكبار وأنزله فى قصره ، وأعد أوليفرتو عدته ونظم مؤامرته ، ودعا خاله وأعيان فيرمو الى وليمة حافلة ، وأمر بقتلهم جميعا ، وركب فى أعقاب ذلك جواده ليمر فى أنحاء المدينة التى أصبحت خاضعة له ، ولولا أن الدوق فالنتينوا قتله بعد ذلك لكان من الصعب زحزحته عن مكانته .

ويتساءل ميكافيلى بعد ذلك كيف ظل اجاثوكل فى أمن وسلام بعد ارتكاب هذه الجرائم واقتراف هذه الآثام ؟ وذلك فى حين أن الكثيرين من الطغاة الأشرار كانت نهايتهم سيئة ، ويجاوب على هذا التساؤل بأن الأمر يتوقف على الطريقة التى ارتكبت بها الفظاعات وهل تمت بطريقة بارعة أو بطريقة معيبة ؟ ويمكن أن يقال ان الجرائم التى اقترفت بطريقة بارعة هى التى كان سببها الرغبة فى توطيد المكانة ودفع الأذى والتى يتوقف عليها نجاة الانسان ، والقسوة التى يساء استعمالها هى التى يندر استعمالها فى بادىء الأمر ، ولكن بمرور الزمن تصبح بدلا من أن تختفى أكثر ظهورا ، ولذلك على الأمير الذى يستولى على دولة أن يقرر الأضرار التى سيوقعها بها ، ويصبها عليها مرة واحدة ، ولا يجدد الحاق الأضرار بها كل يوم ، وبهـذه الطريقة يستطيع أن يبعث الطمأنينة فى نفوس الناس ويجتذبهم الى صفه حينما يجود عليهم بما ينفعهم ، والذى يخالف ذلك بباعث الخوف أو النصيحة السيئة سيضطر الى أن يحمل السلاح دائما ، ولا يستطيع أن يعتمد على رعيته ، لأن الأذى الذى لا ينقطع عنهم يجعلهم لا يأمنون جانبه ، والأذى الذى يحيق بهم مرة واحدة سرعان ما ينسى طعمه ، والنعم المغدقة يحسن أن تمنح بالتدريج ، ومن ثم تكون الذ طعما وأجمل وقعا .

وينتقل بعد ذلك ميكافيلى الى الحديث عن الامارة الدستورية ، ويقول انها يجب أن تقوم على مساندة الشـعب الذى بدونه لا يمكن أن تكون الحكومـة ثابتة القواعد ، ومن أشـد الأمـور خطرا ترك حكومة الدولة للأعيان ، وهم اذ عجزوا عن مقاومة الشعب عملوا على تقوية مكانة واحد منهم ونصبوه أميرا لكى يحققوا أهدافهم عن طريقه ، والأمير الذى يصل الى الامارة عن طريق الأعيان يجد صعوبة فى المحافظة على مكانته أكثر من الأمير الذى يصل الى الامارة مؤيدا من الشعب ، وارضاء الأعيان واشباع رغباتهم يضران بمصلحة الشعب ، والأعيان يريدون أن يقهروا أما الشعب فانه لا يريد سـوى رفع الظلم عن كاهله ، والأمير لا يستطيع اغضاب عامة الشعب لكثرة عدده ، أما الأعيان فأمرهم هين لأن عددهم قليل ، والأمير الذى وصل الى الامارة عن طريق الشعب لا يجد صعوبة فى استدامة

رضائه لان الشعب لا يريد سوى العدالة ، أما الأمير الذى يصل الى الامارة بمعاونة الأعيان فعليه أن يعمل على اكتساب ثقة الشعب وهو أمر ميسور سهل اذا بسط على الشعب حمايته ٠

● ● ●

وفى الفصل الخاص بالامارات الدينية يقول ميكافيلى ان أمثال هذه الامارات تنال بالشجاعة أو بالحظ ولكن يمكن المحافظة عليها بغير الشجاعة لانها فى كفالة النظم الدينية ، وهذه النظم الدينية من القوة والثبات بحيث تحمى الحكومة سواء أساء الأمير الحكم أو أحسن ، والأمراء الدينيون وحدهم هم الذين يملكون امارات ولا يحمونها ، ولهم رعايا ولكنهم لا يحكمون هؤلاء الرعايا ، ولما كانت اماراتهم غير محمية فانها لا تؤخذ منهم ٠ وما دامت رعاياهم بدون حكومة فهم لا يفكرون فى احداث انقلاب ولذلك فان هذه الامارات وحدها هى السعيدة الآمنة ٠ ولما كان الله هو حامى هذه الامارات فمن الحماقة والادعاء الافاضة فى الحديث عنها ٠

● ● ●

ويقف ميكافيلى ثلاثة فصول من كتابه على الحديث عن مسألة تكوين الجيش اللازم للأمير ، ولهذه المسألة أهمية كبيرة عند ميكافيلى ، لأنه كان لا يفتأ يردد أن الجيوش القوية تدل على وجود القوانين الصالحة ، وحيث لا توجد الجيوش لا يكون هناك قوانين ، والجيوش اما أن تكون مكونة من جنود مرتزقة أو جنود مساعدة أو جنود مختلطة ، والجنود المرتزقة والجنود المساعدة لا فائدة منها وهى مصدر خطر ، والأمير الذى يعتمد على الجنود المرتزقة فى الدفاع عن امارته لا تحظى امارته بالاستقرار ولا بالأمن لان الجنود المرتزقة غير متحدة ولا منظمة ولهم مطامع ولا يؤمن جانبهم وهم شجعان أمام الأصدقاء وجبناء أمام الأعداء ، ويطيل ميكافيلى فى وصفه تعديد صفاتهم وتشريح عيوبهم اطالة العارف بأحوالهم ، ويدلل على صحة رأيه بأمثلة كثيرة مستمدة من التاريخ القديم والتاريخ الحديث الذى عاصره ٠

● صفات الأمير

ولكن ما هى الصفات التى يحسن أن يتحلى بها الأمير والصفات التى تعاب عليه ؟ وهذا الموضوع من الموضوعات الخطيرة التى تناولها ميكافيلى فى الفصل الخامس عشر من كتابه ، وكثير من كتاب القرن السادس عشر

كانوا يرون أن الأمير يجب أن تتوفر فيه الفضائل جميعها وأن يكون مثلا أعلى فى التدين والتواضع والكرم والعدالة ، ولكن ميكافيلى ينظر الى المسألة من زاوية أخرى ، وهو يقول : « هنـاك فرق كبير بين كيفيـة معيشتنا وبين كيف كان يجب أن نعيش ، وان الذى يترك ما هو واقع فعلا من أجل ما كان يجب أن يقع سيجلب لنفسه الخراب ، والواقع أن الذى يريد أن يتبع الفضيلة فى كل سبيل سيجر على نفسه الكوارث اذا كان بين الكثيرين من المجردين من الفضيلة ، ولذلك اذا أراد الأمير أن يحافظ على مكانته فان عليه أن يتعلم كيف يعرض عن الفضيلة وكيف يكون خيرا حسب الحاجة » ويستطرد ميكافيلى قائلا : « انى أعلم أن كل انسان يوافق على ان من أجدر المسائل بالمدح أن تجتمع الصفات الطيبة جميعها فى الأمير ، ولكن ما دامت الطبيعة الانسانية على ما هى عليه فانه لا يمكن أن تتوفر هذه الصفات فى الأمير أو بالأحرى لا يستطيع الأمير أن يظهـرها جميعها ٠٠ وعلى الأمير ألا يخشى اللوم على الرذائل اللازمة للمحافظة على الدولة ، وذلك لانه اذا راعى جميع الاعتبارات سيجد أن بعض الأشياء التى تبدو فضائل ستكون « ماضية عليه اذا مارسها وبعض الأشياء التى تبدو شريرة ستجلب له الأمن والرخاء » ٠

ويحسن أن نلاحظ هنا ان ميكافيلى لا يشغل باله فى كتابه بأخلاق الأمير الخاصة وسيرته الشخصية ، وانما يتناول أخلاق الأمير باعتباره ممثلا للدولة ورأسا لها ، والمقصود بالخراب الذى يصيب الأمير هنا خراب الدولة ذاتها فهو يفصل الأخلاق الخاصة عن الأخلاق العامة فصلا تاما ، وقد جرت عادة الشعراء أن يشيدوا بكرم الأمراء ، ولكن ميكافيلى يخالفهم فى ذلك وعنده أن صفة الكرم فى الأمير غير جديرة بالمدح ، لانه ينفق أموال غيره ولذلك يؤثر البخل فى الأمراء ، ولا يجمل عنده بالأمير أن يكون كريما الا فى توزيع أسلاب الحرب ولكن أيهما أجدى على الأمير أن يوصف بالرحمة أم بالقسوة والوحشية وأن يكون محبوبا أم مكروها ؟ وبوجه عام خير للأمير أن يوصف بالرحمة ولكنه يجب عليه ألا يسىء استعمالها ٠ ومن الخير أن يحب الانسان ويخشى بأسه فى الوقت نفسه ، ولكن لما كان هذا من المستحيل بالأفضل أن تكون مرهوب الجانب ، وقد يخشى بأس الأمير دون أن يكون مكروها ويرى ميكافيلى ان الخـوف من الأمـير لا يستلزم كراهيته ، على أن ميكافيلى يرى أن الأخلق بالأمير أن يكون مخشى السطوة لا محبوبا ولكن لما هذا ؟ ان ميكافيلى يرد علينا قائلا : « تستطيع أن تزعم بوجه عام عن البشر انهم ناكرون للجميل وانهم متقلبون وكذابون وغاشون وانهم يتحاشون ركوب الأخطار ويطمعون فى الكسب ، وما دمت تحسن معاملتهم فانهم فى صفك ومن شيعتك ويسفكون دماءهم من أجلك ويعرضون

أملاكهم وحياتهم وأولادهم للخطر ما دام الخطر بعيدا ولكن حينما يحدق بك الخطـر يقلبون لك ظهر المجن ويتنكرون لك ، والأمير الذى يكتفى بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيطة يبوء بالخيبة ، والناس لا تبالى بالاساءة الى الأمير الذى يجعل نفسه محبوبا ولكنهم يحذرون أن يمسوا بسوء الأمير الذى يخشون بأسه » ، ولا ينسى ميكافيلى أن ينصح للامير بعدم التعرض لنساء رعيته وما يملكون ، وحينما يقود الأمير جيشه فعليه ألا يعبأ بالاشتهار بالقسوة لانه بدون هذه الشهرة لا يستطيع المحافظة على النظام فى جيشه ويشيد ميكافيلى بقسوة هانيبال فى هذا الصدد كما يأخذ على القائد الرومانى سيبيو الافريقى ضعفه فى هذه الناحية .

● نصـائح قاسـية !

والفصل الثامن عشر من كتاب الأمير أحد فصوله البالغة الأهميـة وهو الفصل الخاص بكيفية محافظة الأمير على وعده أو نكث عهده ، وطالما كان هذا الفصل دريئة للهجوم على ميكافيلى ونقد مذهبه ، ويقول ميكافيلى : « يعرف جميع الناس ان المحافظة على العهد من الأمور الجديرة بالثناء ولكن مع ذلك فان التجربة أثبتت فى عصرنا ان الأمراء الذين قاموا بأعمال عظيمة لم يعبأوا فتيلا بالمحافظة على وعودهم وعرفوا كيف يحيرون عقول الناس بالمكر والدهاء ونجحوا فى النهـاية نجاحا لم يظفر بمثله الأمراء الذين اتبعوا الشرف والأمانة . ويمضى ميكافيلى فى تقديم النصائح القاسية قائلا:

« عليك أن تفهم أن هناك طريقتين للحرب ، وهما اتبـاع القانون أو استعمال القوة ، والطريقة الأولى طريقة الانسان والطريقة الثانية طريقة الوحوش ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى فى الأعم الأغلب تثبت انها غير كافية فعلى الانسان أن يلتزم الطريقة الثانية وبناء على ذلك يلزم أن يعرف الأمير كيف يجيد أن يكون وحشـا وان يكون انسانا ، وقد علم الكتاب القدماء الأمراء ذلك بطريق المجاز حينما وصفوا لهم كيف أرسل أشيل وكثيرون غيره من الأمراء الى شيرون ليتولى تنشئتهم وهو مخلوق نصفه انسان ونصفه حيوان ، ومعنى هذا المجاز أن الأمير عليه أن يعمل بموجب الطبيعتين وان لا بقاء له ان لم يفعل ذلك » .

وعلى الأمير أن يتعلم من الثعلب ومن الأسد ، لان الأسد لا حيلة له مع الشـباك التى تنصب لاصطياده كمـا ان الثعلب لا يستطيع مقاومة

الذئاب ، ولذلك يحسن بل يجب فى رأى ميكافيلى أن يكون الانسان ثعلبا ليعرف الشباك وأن يكون فى الوقت نفسه أسدا ليخيف الذئاب ، والذين يسلكون على الدوام مسلك الأسود أغبياء ، ولذلك يوصى ميكافيلى الأمير بألا يحترم وعده ولا يفى بعهده اذا كان ذلك يعرضه للخطر ، ولو كان الناس جميعهم أخيارا لكان من الخطأ اتباع هذه النصيحة ، ولكن الناس أشرار مناكيد لا يفون لك بعهدهم فلست فى حاجة الى المحافظة على عهودهم ، ويوصى ميكافيلى الأمير مع ذلك بألا يكون صريحا فى ذلك فيقول :

« **على الانسان أن يعرف كيف يضفى الألوان على أعماله وأن يكون بارعا فى الكذب والغش** » • ويضرب مثلا لذلك البابا اسكندر بورجيا معاصره الذى كان يجد على الدوام فريسة لكذبه وغشه •

وليس هذا كل ما فى الأمر ، فانه ليس من اللازم للأمير أن يكون متصفا بكل الصفات الحسنة ولكن من ألزم ما يلزم له أن يتظاهر بالتحلى بها ، ويقول ميكافيلى : « انى أجترىء على القول بأنه مما يضر بالأمير أن يتصف بهذه الصفات (الحسنة) وأن يعمل بموجبها فى حين انه من النافع له أن يبدو متحليا بها » أى يبدو مثلا رحيما صادقا متدينا على أن يضع نصب عينيه التخلى عن هذه الصفات حينما يستوجب الأمر العمل بنقيضها، والأمير الجديد بوجه خاص لا يستطيع ممارسة هذه الفضائل لانه فى سبيل المحافظة على الدولة مضطر الى أن يأثم فى حق الانسانية والدين والفضيلة، ولذلك من الملائم أن يكون عقله قلبا وأن يراقب مهاب الرياح ويعرف كما يقولون من أين تؤكل الكتف » •

ولا نزاع فى أن هذه النصائح والتعاليم التى يهديها ميكافيلى لأميره فظيعة مستنكرة ولكنها فى الواقع تأكيد لكل ما لاحظه من تجاريبه السياسية ومخالطته للأمراء والملوك فى عصره ، وهى لا تخرج عن تكرير القول فيما يردده على الدوام رجال السياسة وهو انهم لا يستطيعون أن يقولوا الحق وان عليهم أن يخفوا ما فى نفوسهم وما ينتوون عمله واذا لم يسلكوا هذا المسلك عرضوا أنفسهم ودولتهم وأحزابهم للخطر الشديد، والأحوال السياسية التى كانت سائدة فى عصر ميكافيلى وما تزال سائدة الى اليوم فى معظم أنحاء العالم تستوجب ما قاله ميكافيلى ، وليس السياسى رجلا فردا يخاطب رجلا فردا مثله وانما هو مجموعة أفراد ممثلة فى انسان فكلماته تختلف قيمتها وأهدافها وتأثيرها عن كلمات غيره من الناس العاديين ، ولا نزاع فى أن هناك سياسة أمينة صادقة وسياسة خائنة

غادرة ولكن الذى شغل ميكافيلى فى كتاب الأمير هو « فن السياسة » الذى استأثر بالكثير من تفكيره واطلاعه وبخاصة فى التاريخ ، وقد استخلص من تفكيره وتجاريبه أن واجب الأمير الأسمى هو المحافظة على كيان الدولة وأن الوسائل المؤدية الى ذلك جميعها مشروعة ومباحة .

ويرى ميكافيلى فى الفصل التاسع عشر من كتابه ان خير ما يقى الأمير شر المؤامرات هو تجنب اغضاب شعبه ، وذلك لأن المتآمرين عليه يظنون دائما انهم بقتله يرضون الناس ، فاذا قدروا أن قتله يثير نقمة الشعب أحجموا عن ذلك ، والأمير الذى ظفر بحب شعبه وثقته به يستطيع أن يأمن خطر التآمر عليه ، ولكن اذا كان الشعب ناقما على الأمير كارها له فانه سيخاف كل انسان ويخشى كل شيء ، وفى الدول الحسنة التنظيم كان الأمراء العقلاء يتحرون استرضاء الأشراف واستمالة الشعب .

● ● ●

وفى الفصل العشرين يتحدث ميكافيلى عن بناء الحصون وهو يقر سياسة اقامة الحصون فى وجه المغير على البلاد ولكنه مع ذلك يرى أن الأمير الذى يخشى شعبه هو الذى يحرص على بناء الحصون ، أما الأمير الذى يخشى الهجوم على بلاده من الخارج فانه لا يعنى بها ، وخير حصن للأمير هو تجنب كراهة الشعب .

وفى الفصل الواحد والعشرين يوجه ميكافيلى التفاتة نادرة فى كتابه الى عامل آخر من عوامل المجتمع الانسانى غير الحرب والسياسة ، وذلك حيث يوصى الأمير بتقدير المواهب وتشجيع الأكفاء وتكريم مهرة الصناع وتشجيع المواطنين لتمكينهم من متابعة أعمالهم سواء كانت تجارية أو صناعية أو غير ذلك من المهن ، وألا يثقل كاهلهم بالضرائب ، وأن يعنى بالترفيه عن الشعب باقامة الحفلات والمعارض .

وفى الفصل التالى يتناول ميكافيلى مشكلة اختيار الوزراء والمساعدين وعمال الادارة وفى هذا الاختيار تتجلى حكمة الأمير ، ويقول ميكافيلى ان من الناس من يستطيعون فهم الأشياء بضوء ذكائهم وهؤلاء لا يحتاجون الى من يتولى تبصيرهم بحقائق الأمور ، ومنهم من لا يستطيعون أن يفهموا الأشياء بأنفسهم ولا بمساعدة الغير وهؤلاء غير الموفقين ، وهناك فريق ثالث وهم هؤلاء الذين لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم فى فهم الأشياء ولكنهم يستطيعون أن يقدروا ما فى آراء الغير من الصواب . والأمراء من

هذا الطراز يحسنون من ناحية مراقبة وزرائهم ومن ناحية أخرى يفيدون من نصائحهم وعلى الأمير أن يكرم الوزير اذا أخلص فى خدمته وتحرى مصلحته ، واذا أحسنت العلاقة بين الأمير ووزرائه عاد ذلك بالخير الكثير على الدولة ، ويوصى ميكافيلى الأمير بابعاد المتملقين وأن يختار حاشية من العقلاء الذين يصدقونه القول ويمحصونه النصح ، على أن يزن آرائهم بميزان تفكيره الخاص ويأخذ بما يراه أقرب الى الرجحان والأصالة .

● ● ●

وقد استطاع ميكافيلى أن يبسط آراءه السياسية فى صورة واضحة محددة لتمثلها فى شخصية الحاكم المصلح والأمير الذى يجدد حياة الدولة ، وقد أوحت الى ميكافيلى صورة هذا الأمير الأمثلة التى لحظها فى التاريخ القديم مثل رومالاس وليكارجاس وسولون والأمثلة الحية التى رآها فى عصره مثل فرانشيسكو سفورزا وشيزارى بورجيا بوجه خاص وفرديناند الكاثوليكى .

وبعد .. فانه علينا أن نراعى ، عند تقدير كتاب « الأمير » انه مهدى لأمير من أسرة المديتشى . وقد حرص ميكافيلى فى هذا الكتاب على اثبات بعد النظر السياسى لتلك الأسرة ، وتقديره للتقاليد التى قامت عليها سياستها ، وكيف تحافظ على قوتها وتستبقى نفوذها . وربما يكون هذا الاعتبار قد ساقه الى التورط فى بعض المبالغات ، ولكننا خلقاء مع ذلك أن نلمح فى ثنايا سطور الكتاب سوء اعتقاد الرجل فى الطبيعة الانسانية، وعدم ايمانه بفكرة التقدم .. فالتاريخ فى نظره ميدان تلعب فيه المصادفات والحظوظ ، وليست هناك قوانين محتومة مسيطرة عليه ، فاذا أردت النجاح فساير الظروف ، واختر البر والرحمة اذا شممت فيهما النجاح ، والعب دور الأسد أو دور الثعلب بحسب مقتضيات الأحوال .

● راى الأجيال فى الكتاب وصاحبه

وأثار كتاب الأمير السخط على مؤلفه ، ولكنه أحرز اعجاب عظماء عصره ، لانه خاطبهم باللغة التى يفهمونها ، ويدركون مغزاها ، وفيه تحذيرات نافعة لهم ومشاهدات وتجارب موحية .

ولا تزال آراء ميكافيلى تثير خلافات شديدة وخصومات لا تنتهى ٠٠ لان علاقة السياسة بالأخلاق ليست بالمسألة القليلة الخطر ، والبحث فيها يتطلب موقفا خاصا تلقاء طائفة من المسائل الجسام والمعضلات المعقدة ٠٠ فهى تستلزم أن نعيد النظر فى التـــاريخ ونستقرىء أطواره ونتتبع حركاته ، وأن نجيل الفكر فى النفس وننظر اليها نظرة فاحصة مجردة ٠ وأن نتناول بالبحث وظيفة الحكومة وواجبات الدولة ومهمتها ومدى ما يمنح لها من سلطة وما يقدم لها من طاعة ٠ وآراء المفكرين فى كل مسألة من هذه تختلف باختلاف المشكلات التى يواجههم بها عصرهم ، لأن الفلسفة السياسية تمتد من التجربة ، والآراء التى تنتهى اليها المفكرون السياسيون هى صدى تأثير الحوادث فى نفوسهم ٠

فالمؤرخ الانجليزى الشهير اللورد ماكولى كتب رسالة عن ميكافيلى بدأها بقوله :

« أنا فى شك من أن يكون فى التاريخ اسم يحمل من كراهة الناس مثل ما يحمل اسم ميكافيلى ٠ واقرأ ما وصفه به الناس والنقاد فأخرج بأنه شيطان ، كان فيه للناس غواية ، وللشر أصول ، وانه زارع الأطماع فى قلوب البشر ، ومع الأطماع حب الثأر والنكاية ، وانه قبل نشر كتابه « الأمير » لم يكن فى الناس منافق ولا مستبد ظالم ، ولا غادر خائن ٠ ثم كان كل هؤلاء من بعد نشره » ٠

ومن النقاد من قال : ان كل سياسة بها عوج انما استمدها صاحبها من هذا الكتاب ٠ وناقد آخر قال : ومن هذا الكتاب تعلم سلاطين الأتراك كيف يخنقون أخوة لهم تثبيتا لحكم قائم أو طمعا فى حكم يكون ٠ وكنيسة روما وصمت ما كتب ميكافيلى باللعنة ٠ وحرمته حيازة ونشرا وقراءة على عباد الله الصالحين ٠

وفى عام ١٩٢٤ حاول موسولينى الربط بين الفاشية والميكافيلية ، كتب فى مؤلفه « **مقـدمة عن ميكافيلى** » **يقول** : « اننى أؤكد ان مذهب ميكافيلى يعيش حيا اليوم ، أكثر مما كان حيا منذ أربعة قرون » ٠

غير أن أجمل مديح ناله ميكافيلى ، هو ذلك الذى وجهه اليه ، عن غير قصد ، فردريك الثانى (١) ، الذى هاجمه فى البداية فى كتابه « ضد الأمير » ، ثم طبق كل مبادئه عندما أصبح ملكا !

---

(١) فردريك الثانى : (١٧١٢ ــ ١٧٨٦) ملك بروســـيا (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦) ٠ أظهر مقدرة فائقة فى الحرب والادارة ٠ اشترك فى الحرب النمساوية وحرب السنين السبع ٠

ومن ناحية أخرى نجد الفيلسوف الألماني هيجل ــ وهو من كبار المفكرين السياسيين في القرن التاسع عشر ــ يؤيد ميكافيلي في آرائه ، وينكر امكان التوفيق بين السياسة والأخلاق ، ويقول أن الدولة هي تحقيق للفكرة الأخلاقية ، وليس لها واجب أكبر من المحافظة على كيانها ٠

والمؤرخ الألماني ترتيشكه يرى أن فرية ميكافيلي هي أنه أطلق الدولة من سلطة الكنيسة ، والدولة في رأيه أسمى من الأفراد الذين تتكون منهم، وهي موجودة لتحقيق أغراض أسمى من السعادة الانسانية ، ولا تستطيع مباشرة وظيفتها الا اذا كانت قوية ٠٠٠ وهي القوامة على التقاليد ، والوصية على الأجيال التي لم تولد بعد ، وهي غير مدينة بالولاء لأية سلطة خارجية ٠

ولا ينكر أحد أن دكتاتوري وطغاة كل عصر وجدوا نصائح مفيدة في كتاب « الأمير » ٠ وان قائمة القراء المتلهفين ضخمة : فقد أعجب الامبراطور شارل الخامس ، وكاترينا دي ميديكي بذلك المؤلف ٠ وحصل أوليفر كرومويل (٢) على نسخة خطية منه واعتنق مبادئه وطبقها في حكومة الكومنولث في انجلترا ٠ وكان كل من هنري الثالث وهنري الرابع الفرنسيان يحمل كل منهما نسخة منه ٠ كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا ٠ واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب « طاقيته الليلية المفضلة » ، ووجدت منه نسخة ذات حواش في عربة نابليون بونابرت في ووترلو ، واستمد نابليون الثالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتاب ٠ وكان بسمارك (٣) تلميذا مخلصا له ٠ وحديثا احتفظ أدولف هتلر تبعا لقوله هو نفسه بكتاب « الأمير » بجانب سريره حيث كان مصدر ايحاء مستمرا له ٠

ومن ناحية أخرى ، أوضح المحللون المدققون للأحداث التاريخية ان الطغاة ، أمثال هتلر وموسوليني ، لقوا عموما نهاية مؤسفة لانهم أهملوا أو أساءوا تفسير بعض المبادىء الأساسية التي صاغها ميكافيلي ٠

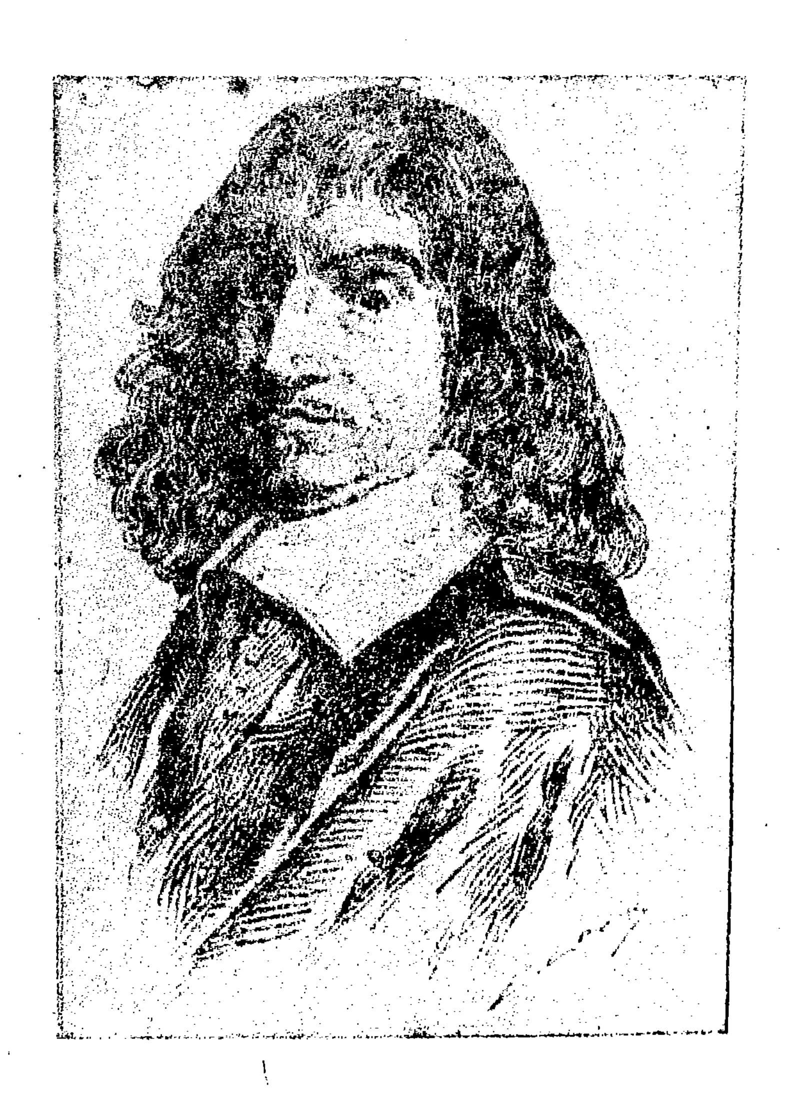
ولقد اشتقت من اسم ميكافيلي كلمتان ، هما الميكافيلية بمعنى الخداع السياسي ، والميكافيللي أي من يعتنق مذهب ميكافيلي في السياسة ، وهما

---

(٢) أوليفر كرومويل : (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) رئيس الجمهورية التي اقامها بانجلترا (١٦٥٣) ٠

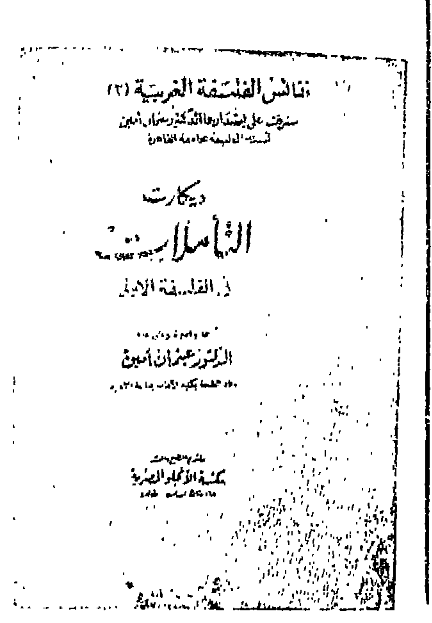
(٣) بسمارك : (١٨١٥ ــ ١٨٩٨) سياسي الماني ٠ منشىء الامبراطورية الألمانية ٠

ما أمكن تقريبهما من معنى السادية والسادى ٠ الا انه فيما عدا شهرتها المبالغ فيها فان عقيدة ميكافيلى تتفق مع مطالب عصر معين ، هو عصر النهضة ، فى بلاد معينة هى ايطاليا ، ومدينة معينة هى فلورنسا ٠ ومع ذلك فهى تخرج عن نطاق الزمن المحدود الذى عاش فيه ، لكى تكتسب هذه القيمة العالمية التى أتاحت لها أن تعبر كل هذه القرون ٠ فلا جدال فى أن كتاب « الأمير » كان ذا تأثير ثورى على الفكر السياسى ويحق لمؤلفه أن يلقب باسم « مؤسس علم السياسة » ٠



(٧) التأملات فى الفلسفة الأولى

ديكارت



التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ١٦٤١ م

الكتاب الذى هيأ النفوس للثورة الانسانية الكبرى

ديكارت هو « أبو الفلسفة الحديثة » ، وأول من وصفه بهذا الوصف فلاسفة الألمان وعلى رأسهم « هيجل » و « شلنج » • ولقد أحدثت آراؤه فى الفلسفة والعلم هزة عنيفة ، فقوضت مذهب أرسطو ، وقضت على علم القرون الوسطى ، وأيدت سلطان العقل وناصرت قضية الحرية ، وهيأت النفوس للثورة الانسانية الكبرى •

وقد اشتهر ديكارت فى العصور الحديثة بأنه زعيم « المذهب العقلى » فى الفلسفة • وهذا المذهب عبارة عن القول بأن المشكلات الفكرية العامة التى تعنى بالانسان بما هو انسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الانسانى ، ومن غير معونة من شىء خارج عن العقل ،

وفلسفة ديكارت عرفت بأنها « فلسفة الأفكار الواضحة المتميزة » كما كانوا يسمونها في القرن السابع عشر ، فقد أرادت تلك الفلسفة أن تخلص الفكر من نير السلطات أيا كانت ، فلم تقبل دليلا على الحق الا البداهة العقلية ، أى بداهة العقل الذى يراه الفيلسوف « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » وحظوظ الناس منه متساوية ، فلا فرق بين شعب وشعب ، ولا تفاضل بين جنس وجنس ·

● سيرة ديكارت من خلال مؤلفاته

كانت حياة الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت ، حياة جوانيه فى صميمها ، أعنى أن للروح فيها المقام الأول ، قضى الفيلسوف شبابه منقبا عن الموضوعات العقلية ، جادا فى درسها ، متعقبا المشكلات العلمية ، دائبا على حلها · وأنفق أخصب سنى حياته فى مختلف أنحاء هولندا ، طالبا ملاذا مأمونا يستطيع فيه أن يفكر وأن يعمل فى خلوة وهدوء · وانتهى به الأمر الى أن جازف بتلك الخلوة نفسها ، بل بحياته كلها ، حين قصد الى السويد اجابة لالحاح ملكة تريد أن تخفف من أعباء الحكم بالوقوف على شىء من مبادىء الفلسفة ·

واذا كانت سيرة ديكارت قد تظهرنا على شخصية الفيلسوف ، فهى لا تطمع فى أن تفسر لنا عبقريته ومواهبه التى هيأته لأن يكون بطل الفكر الذى عرفه التاريخ الحديث ·

ولد « رينيه ديكارت » فى ٣١ مارس سنة ١٥١٦ فى قرية « لاهى » بمقاطعة « التورين » فى فرنسا ، من أسرة صغار الأشراف ، وكان أبوه مستشارا ببرلمان « رن » ·

ويمكن أن نقسم حياة ديكارت الى ثلاث فترات هامة :

● الفترة الأولى :

فترة دراساته الأولى فى مدرسة «لافليش» حيث تتلمذ على اليسوعيين من سنة ١٦٠٤ الى سنة ١٦١٢ ، فدرس اللغات القديمة والمنطق والأخلاق والرياضيات والميتافيزيقا ·

● والفترة الثانية :

من سنة ١٦١٣ الى سنة ١٦٢٩ ، قضاها في السفر والارتحال · فقد قصد الى باريس سنة ١٦١٣ ، والتقى بالرياضي « ميدورج » ، كما التقى بالأب « مرسن » صـديقه وزميله منذ عهد التلمذة · وواصل دراسة القانون والطب في جامعة « بواتييه » · وحصل على اجازات الحقوق من تلك الجامعة سنة ١٦١٦ · ثم سافر الى الدانمرك ، وقضى الشتاء في « نويبورج » ووقعت له حينذاك أزمة من أزمات الشك ، ولم تنجل الأزمة الا باكتشاف المبادىء المهمة كمنهجه ، في ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ · وقضى فترة تحمس ونشوة عقلية ، ونذر لله نذرا أن يحج الى « نوتردام دولوريت » · والتحق بجيش دوق بافاريا في « أولم » وشـاهد موقعة « الجبل الأبيض » سنة ١٦٢٠ · وفي السنة التالية دخل هولندا وقضى بعـد ذلك سنوات في الارتحال والتنقل بين هولندا وفرنسا وسويسرا وايطاليا · وقام بفروض الحج الى « نوتردام دولوريت » ·

● والفترة الثالثة :

فترة مقامه في هولندا وبقائه بها عشرين سنة (من سنة ١٦٢٩ الى سنة ١٦٤٩) · وفي تلك الفترة الخصبة كتب أهم مؤلفاته :

١ ـ كتب باللاتينية « قواعد لهداية العقل » سنة ١٦٢٩ وكان في ذهنه أن يحتوى الكتاب على ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه تركه دون أن يتمه · وقد نشر الكتاب بعد وفاته · ويرى « مييه » ان هذا الكتاب هو أعمق وأروع رسـالة منطقيـة عرفتها الفلسفة في جميع عصـورها بلا استثناء ·

٢ ـ وعكف ديكارت في هولندا على النظر الفلسفي الصرف ، ثم وجه اهتمامه الى دراسة علوم الطبيعة ، فحرر كتابا سماه فيما بعد « العالم » سنة ١٦٣١ · وقد أراد ديكارت في هذا الكتاب أن يبسط رأيه في كيفية نشوء العـالم على مقتضى قوانين ميكانيكية صرفة فقد أراد أن يوفق بين الايمان بعقيدة الخلق ، وبين فكرة النشوء الحاصل وفقا للقوانين الطبيعية التي لا يستطاع بعد البرهنة عليها ·

ولكن حادثا وقع في ٢٣ يونيه سنة ١٦٣٣ فكان له أثر في حياة ديكارت الفكرية · ذلك ان هيئـة التفتيش حكمت على العـالم الايطـالي « جاليليو » بالمروق من الدين لقوله بدوران الأرض · وكان ديكارت نفسه يقول ذلك في كتابه « العالم » فلما بلغه نبأ الحكم على جاليليو خاف أن

ينشر الكتاب ، وكتب الى الأب « مرسن » بانه اذا كانت حركة الأرض باطلة ، فان جميع أصول فلسفته باطلة كذلك ، لان تلك الأصول تثبت الحركة الأرضية بما لا مجال فيه للابهام ٠ وقال أيضا انه لا يستطيع أن يفصل تلك النظرية عن حركة الأرض عن أجزاء كتابه دون أن يتعرض مذهبه كله للخلل ٠ ولكنه لما كان لا يريد أن يصدر عنه قول يمكن أن يوجد فيه ما يخالف الكنيسة ، فانه يفضل أن يكتم ذلك القول على أن يظهر للناس فى صورة شوهاء ٠

٣ ــ وفى سنة ١٦٣٧ نشر ديكارت بالفرنسية كتابه المشهور « مقال فى المنهج » ، وهو مقدمة لثلاث رسائل هى «الآثار العلوية» و « البصريات» و «الهندسة» أما « المقال فى المنهج » فهو الرسالة الفلسفية الصرفة فى ذلك المجموع ، بين فيها تاريخ أفكاره ، وأوضح عن الخصائص المهمة لمذهبه الجديد فى نظرية المعرفة وفى الميتافيزيقا ٠ أما الآثار العلوية والبصريات فقد أعطى الفيلسوف فيهما مثلا أو نموذجا لطريقته فى تفسير الطبيعة تفسيرا ميكانيكيا بحتا ٠ وفى رسالة « الهندسة » استكشف ديكارت الهندسة التحليلية التى ضم بها علم الجبر الى علم الهندسة ودرجهما تحت علم واحد ٠

٤ ــ وفى سنة ١٦٤١ نشر كتاب « التأملات فى الفلسفة الأولى » والذى نحن بصدده وهو أبدع ما كتبه الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام وفى النفس الانسانية وفى الأدلة على وجود الله بوجه خاص ٠

٥ ــ وفى سنة ١٦٤٤ نشر كتاب « مبادىء الفلسفة » ٠ وفى هذا الكتاب عرض مبسط للفلسفة الديكارتية يسهل للناس فهمهما والالمام بها ٠ وقد قام الاب « بيكو » بترجمة الكتاب من اللاتينية الى الفرنسية وقد راجعه ديكارت وبعث الى بيكو رسالة هامة جعلها بمثابة المقدمة للترجمة الفرنسية أوضح فيها الخلاف بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة ، والميزات التى توجد فى فلسفته وفضلها فى تقدم المعارف البشرية تقدما مطردا غير محدود ٠

٦ ــ وكانت الأميرة اليزابيث قد طلبت الى ديكارت أن يكتب « رسالة فى انفعالات النفس » فأجاب رغبتها ، ونشر الرسالة بالفرنسية سنة ١٦٤٩ ٠ ورسالة الانفعالات ، مضافا اليها رسائل الفيلسوف مع الأميرة تحتوى على أهم ما فى مذهبه الأخلاقى ٠

وقد كانت « رسائل الانفعالات » آخر مؤلفات ديكارت ٠ ودعته الملكة كريستين ملكة السويد ، للسفر الى استوكهولم ، ليلقنها بنفسه مبادىء

فلسفته ، ولكى يعلمها « السبيل الى الحياة السعيدة مع الله ومع الناس » فقبل الدعوة بعد تردد منه والحاح من الملكة · وهناك مات فى ١١ فبراير سنة ١٦٥٥ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة ·

● تحليل التأملات فى الفلسفة الأولى

تعريف بالتأملات :

« التأملات فى الفلسفة الأولى » من روائع المؤلفات الفرنسية على الاطلاق ، وهى بلا ريب أهم أجزاء الفلسفة الديكارتية وأجدرها بالاعتبار · ونظرة الى المسائل التى تناولتها والحقائق التى بينتها تقنعنا بأنها أوفى ما ألف الفيلسوف فى الميتافيزيقا بوجه عام ، وأبدع ما كتب فى النفس البشرية ، ووجود الله بوجـه خاص ، كما يشير الى ذلك النص الكامل لعنوان الكتاب : « تأملات فى الفلسفة الأولى ، وفيها يبرهن على وجود الله وخلود النفس » ·

وقد نشر ديكارت « التأملات » سـنة ١٦٤١ باللغة اللاتينية دون الفرنسية ، وكان قصده من ذلك كما يحدثنا هو نفسه أن يقصر كتابه على الخاصة دون العامة ، اذ انه قد التزم فى شرح المسائل الميتافيزيقية سبيلا قل سالكوه ، وبعد عن الطريق المألوف بعدا كبيرا ·

وقد رأى ديكارت أن يقـدم للتأملات برسالة اهداء الى « العمداء والعلماء بكلية أصول الدين المقدسة بباريس يسألهم فيها أن يؤيدوا آراءه ويبين لهم منهجه الجديد فى الفلسفة ، وسوف **نذكر نص هذا الاهداء نظرا لأهميته فى تحليل هذا الكتاب القيم :**

« حضرات السادة :

يدفعنى الى تقديم هذا الكتاب اليكم سبب وجيه جدا ، ويقينى انكم ستجدون حين تقفون على القصد منه سببا وجيها كذلك لتشملوه برعايتكم · ولهذا رأيت انى لا أستطيع أن أجد ما يشفع له عندكم خيرا من أن أبين لكم قصدى فيه بيانا موجزا ·

لقد كان رأيى دائما أن مسألتى الله والنفس أهم المسائل التى من شأنها أن تبرهن بأدلة الفلسفة خيرا مما تبرهن بأدلة اللاهوت : ذلك انه

وان كان يكفينا نحن معشر المؤمنين أن نعتقد بطريق الايمان بان هنالك الها وبأن النفس الانسانية لا تفنى بفناء الجسد ، فيقينى انه لا يبدو فى الامكان أن تقدر على اقناع الكافرين بحقيقة دين من الأديان ، بل ربما بفضيلة من الفضائل الأخلاقية ، ان لم نثبت لهم أولا هذين الأمرين بالعقل الطبيعى · وحيث ان الغالب فى هذه الحياة أن تثاب الفضيلة ، فان أغلب الناس كانوا يؤثرون سبيل المنفعة على سبيل العدالة ، لو لم يردهم خوف الله أو توقع حياة أخرى · ومع أن من الحق اطلاقا أنه ينبغى أن نعتقد بوجود الله ، لان هذا هو ما جاءت به الكتب المقدسة ، وانه ينبغى من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة ، لانها جاءت من عند الله (وذلك لانه لما كان الايمان هبة من الله ، فان الموجود الذى يهبنا من فضله ما يعيننا على الاعتقاد بالأشياء الأخرى يستطيع أيضا أن يهب ذلك الفضل ليعيننا على الاعتقاد بوجوده هو) الا اننا لا نستطيع أن نعرض ذلك على الكافرين فانهم قد يتوهمون ان الاستدلال على هذا النحو وقوع فى الغلط الذى يسميه المناطقة دورا ·

وأنا أعلم انكم وجميع رجال الدين تذهبون الى ان وجود الله يمكن اثباته بالعقل الطبيعى · وتزيدون على ذلك انه يؤخذ من الكتب المقدسة ان معرفتنا له أوضح جدا من معرفتنا لكثير من الأشياء المخلوقة ، وأن هذه المعرفة بلغت من السهولة حدا يجعل غير الواقفين عليها مذنبين ، كما يبدو من أقوال « سفر الحكمة » فى الاصحاح الثالث عشر ، اذ ورد فيه : « ان جهلهم لا يغتفر · لانه اذا كانت عقولهم قد أوغلت الى هذا الحد فى معرفة أمور الدنيا ، فكيف أمكن ألا تكون معرفتهم للرب الأكبر أيسر ؟ » وجاء فى الاصحاح الأول من « رسالة بولس الى اهل رومية » انهم « لا عذر لهم » وجاء أيضا فى الموضع نفسه قوله : « اذ معرفة الله ظاهرة فيهم » · فيبدو أننا قد أخبرنا بأن كل ما يمكن معرفته عن الله يمكن أن يبين بأدلة لا حاجة الى استنباطها من شىء غير أنفسنا وغير تدبرنا لعقولنا · من أجل هذا بدا لى اننى لن أخالف واجب الفيلسوف اذا أنا بينت ها هنا كيف وبأى طريق نستطيع أن نعرف الله معرفة أيسر وأيقن من معرفتنا لأمور الدنيا ، دون أن نخرج عن دخيلة أنفسنا ·

أما النفس فان كثيرين من أصحاب النظر قد اعتقدوا انه ليس من الميسور معرفة طبيعتها ، بل ان بعضهم قد اجترأ على القول بأن العقول الانسانية تقنعنا بانها تفنى بفناء الجسم ، وان العقيدة الدينية وحدها هى التى ترشدنا الى خلاف هذا الرأى ، غير أن « مجمع لتران » المنعقد برياسة البابا ليون العاشر ، وما قرره من ادانة هؤلاء ودعوته الفلاسفة

المسيحيين دعوة صريحة الى الرد على أقوالهم ، واستعمال أقصى ما تملك عقولهم من قوة لاظهار الحق كل هذا قد جرأنى على محاولة ذلك فى هذا الكتاب • على اننى لما كنت أعلم ان الحجة الكبرى التى يستند عليها كثير من الكفار فى رفضهم الاعتقاد بوجود الله وبتميز النفس البشرية عن البدن هى قولهم بأن أحدا لم يتوصل حتى الآن الى اثبات هذين الأمرين ، وانى وان كنت لا أرى رأيهم ، بل أرى خلافا لذلك أن أغلب الحجج التى أوردها كثير من فطاحل المفكرين عن هاتين المسألتين هى فى مرتبة البراهين اذا فهمت على الوجه الصحيح ، وانه يكاد يكون من المستحيل ايجاد حجج جديدة ، الا اننى أعتقد أنه لن يمكن أن يعمل فى الفلسفة شىء أنفع للبحث عن أحسن هذه الحجج وعرضها فى ترتيب واضح متين ، يكون من شأنه أن يظهرها بعد لجميع الناس براهين صحيحة •

وأقول أخيرا انه قد دعانى الى ذلك كثير من الناس ممن يعرفون انى زاولت منهجا لحل جميع ضروب الصعوبات فى العلوم ، وهو منهج ليس فى الحق بجديد اذ لا شىء أقدم من الحقيقة ولكنهم يعلمون انى قد أصبت بعض التوفيق حين اصطنعته فى مواطن أخرى • فبدا لى ان من واجبى أن أقوم بتجربته أيضا فى أمر خطير كهذا •

وقد بذلت قصارى ما فى وسعى للاحاطة فى هذا الكتاب بكل ما استطعت الاهتداء اليه عن طريق ذلك المنهج ، ولست أقصد انى جمعت هنا كل الحجج المختلفة التى يستطاع التدليل بها فى مثل هذا الموضوع الجليل ، فانى ما رأيت قط ضرورة لذلك ، اللهم الا حين لا يوجد بينها دليل يقينى واحد : ولكن اقتصرت على أهمها وأولاها ، على وجه يجعلنى أجرؤ على ايرادها مقتنعا بانها بدهية جدا ويقينية جدا • وأقول فضلا عن هذا انها جاءت من القوة بحيث لا أظن ان الذهن الانسانى سيجد وسيلة يستطيع بها أن يكتشف خيرا منها ، لان أهمية الموضوع ومجد الله ، واليه مرجع هذا كله ، يضطرنى الى أن أتحدث هنا عن نفسى بشىء من الحرية أكثر مما جرت به عادتى •

غير انى مهما أجد فى حججى من يقين وبداهة ، لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن الناس جميعا قادرون على فهمها ، ولكن كما أن فى الهندسة حججا كثيرة ، أوردها «أرشميدس» و «أبولونيوس» (١) و «بابوس» (٢)

---

(١) ابولونيوس : رياضى يونانى من مدرسة الاسكندرية • درس الرياضيات على خلفاء اقليدس حوالى ٢٦٢ ـ ١٩٠ ق•م •

(٢) بابوس : رياضى يونانى عاش فى الاسكندرية حوالى ٣٠٠ ق•م •

وكثيرون غيرهم ، يسلم بها الناس كلهم ويرونها فى غاية اليقين والبداهة ، لانها لا تشتمل على شىء الا ومعرفته ميسورة جدا اذا نظر اليه على حدة ، ولان اللواحق فيها وثيقة الارتباط والاعتماد على السوابق . ولكن زيادة طولها بعض الشىء وتطلبها استفراغ الذهن ، حال دون أن يحيط بها او يفهمها الا فئة قليلة من الناس ، فكذلك أنا وان كنت أرى ان الحجج التى أستخدمها هنا تعادل بل تفوق فى اليقين والبداهة براهين الهندسة . الا انى أخشى أن يستعصى فهمها فهما كافيا على الكثيرين ، اما لان بها هى أيضا شيئا من الطول ولان بعضها يعتمد على بعض ، واما لانها تتطلب على الخصوص أذهانا قد تحررت من جميع الأوهام ، فتيسر لها بذلك أن تتخلص من مخالطة الحواس .

واذا أردنا كلمة الحق قلنا انه ليس فى الناس ممن هم أهل للنظر فى الميتافيزيقا بقدر ذوى الاستعداد للنظر فى الهندسة . ويبقى فوق هذا ان هناك فرقا ، وهو انه فى الهندسة ، لما كان كل واحد يعلم انه ما من شىء يبسط فيها الا وقد قام عليه برهان يقينى فان غير المتبحرين فيها يخطئون فى أغلب الأحيان بتأييدهم للبراهين الفاسدة ليوهموا الناس انهم قد فهموها أكثر مما يخطئون بتنفيذهم البراهين الصحيحة . وليس الأمر كذلك فى الفلسفة ، اذ لما كان كل واحد يعتقد ان مسائلها كلها اشكالية ، فان قليلين من الناس يعكفون على طلب الحقيقة ، بل ان كثيرين يحبون أن يشتهروا بين الناس بانهم من أهل الأذهان الجبارة ، فتراهم ولا هم لهم الا المكابرة فى مناقضة أبين الحقائق وأجلاها .

أيهـــا الســادة :

مهما يكن فى الحجج التى أسوقها من قوة ، فلست آمل ، نظـرا لانتسابها الى الفلسفة أن يكون لها اثر كبير على الأذهان اذا لم تشملوها برعايتكم . ولما كان لجماعتكم من تقدير الناس كلهم حظ عظيم ، ولما كان لاسم « السربون » على علو المنزلة مما جعل الناس لا يقابلون أحكام أى جماعة أخرى ، بعد المجامع المقدسة ، بمثل الاحترام الذى يقابلون به أحكام جماعتكم لا فى مسائل العقيدة فحسب ، بل فى مسائل الفلسفة الانسانية أيضا ، ولما كان كل واحد يعتقد انه ليس فى الامكان أن نجد فى الناس أوفر منكم رصانة ومعرفة ولا أكثر فطانة ونزاهة فى الحكم على الأمور ، فلا شك عندى انكم اذا تعطفتم فشملتم هذا الكتاب بعنايتكم ، وتفضلتم أولا بتصحيحه (لأنى لا أزعم انه خال من الغلط ويمنعنى من ذلك شعورى بقصورى بل بجهلى) ثم باضافة ما ينقصه اليه ، واتمام ما لم يتم منه ،

والتكرم بايراد شرح أوفى اذا اقتضى الأمر ذلك ، أو تنبيهى على الأقل الى ما قد يكون فيه من عيوب حتى أعمل على اصلاحها ، وبعد أن تكون الحجج التى أثبت بها وجود الله واختلاف النفس الانسانية عن البدن قد بلغت من الوضوح والبداهة المرتبة التى اعتقد امكان بلوغهـا لكى تعد براهين محكمة ، وبعد أن تفضلوا باقرارها وتأييدها ، واعلان شهادتكم بصحتها ويقينها ـ أقول انى لا أشك بعد ذلك فى أن كل ما وقع من قبل من غلط وزيف فى هاتين المسألتين سرعان ما يمحى من أذهان الناس ٠

وسوف يحمل الحق جميع العلماء وأولى الألبـاب على قبول حكمكم والانضواء تحت لوائكم ، أما الكفار ، وهم فى العادة قوم يغلب كبرهم وصلفهم على علمهم وحصافتهم فسينزعون من نفوسهم روح المعارضة ، أو لعلهم يدافعون هم أنفسهم عن تلك الحجج حين يرونها مقبولة لدى جميع أولى الألباب فى عداد البراهين ، مخافة أن يظهروا بانهم لا يفهمونها وسوف يتيسر لسائر الناس أن يتقبلوا هذه الشهادات الكثيرة ٠ فلا يبقى شخص واحد يتجرأ على الشك فى وجود الله وفى التمييز الواقعى الحقيقى بين نفس الانسان وبدنه ٠

فالحكم الآن لكم فيما نجنى من ثمرات هـذا الاعتقاد متى توطدت اركانه ـ لكم أنتم الذين ترون الفوضى الناشئة من الشك فيه ٠ ولكن لن يجمل بى فى هذا المقام أن أطيل الكلام فى التوصية بقضية الله وقضية الدين لدى من كانوا دائما أمتن دعائمها » ٠

« **ديكارت** »

●●●

هكذا بين ديكارت لعلماء عصره أن منهجه الجديد فى الفلسفة ، على الرغم مما بينه وبين منهج « **المدرسين** » من اختلاف عميق ، يستطيع أن ينصر العقيدة والدين ببراهين قاطعة من شأنها أن تخرس ألسنة الملحدين، ولكى يضمن أن يظفر كتابه بحسن القبول عند علماء اللاهوت المسيحيين ، أرسل الكتاب قبل طبعه الى صديقه الأب « مرسن » ليطلع عليه مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، أمثال « أرنو » و « جسندى » و « هوبز » و « كاتروس » و « بوردان » وغيرهم ٠ وتلقى مرسن من هؤلاء العلماء طائفة من الاعتراضات التى أوردوها على الكتاب ٠ وكتب ديكارت ردوده عليها وجمعت الاعتراضات والردود ، ونشرت فى ذيل الطبعة الثـانية للكتاب سنة ١٦٤٢ ٠

هذا وقد ألف ديكارت كتابه هذا ليعرض على الخاصة مذهبه فى الميتافيزيقا عرضا علميا منظما · ويلاحظ ان الفيلسوف كان يحيل من أراد الوقوف على جملة نظراته فى الميتافيزيقيا الى هذا الكتاب وحده دون سائر كتبه · صحيح أنه قد أورد بعض المسائل الميتافيزيقيا فى القسم الرابع من كتاب « المقال فى المنهج » ولكنه عرضها هناك عرضا سريعا ومسها مسا رفيقا لم يكن يقصد فيه الى التعمق والاستقصاء · على أن هذا العرض نفسه لا يفهم حق الفهم الا بالرجوع الى التأملات · وصحيح كذلك أن الباب الأول من أبواب كتابه مبادىء الفلسفة يبحث فى أصول المعرفة الانسانية ، وهو لهذا كان أدخل فى بحوث الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى · لكن هذا الباب أيضا لا يتيسر فهمه جيدا الا بعد قراءة كتاب التأملات · أما كتاب البحث عن الحقيقة فهو محاورة نقدية بين أشخاص مختلفى الآراء · واذن فيجب على الباحث عن الميتافيزيقا الديكارتية أن يلمسها أولا فى كتاب التأملات الذى هو المرجع الأول فى هذا الباب ·

● الفلسفة الأولى

والفلسفة عند ديكارت انما تبدأ بالميتافيزيقا ، أى الفلسفة الأولى ، والفلسفة عبارة عن دراسة الحكمة · والحكمة ليست هى التبصر فى الأمور فحسب ، وانما هى أيضا وعلى الخصوص معرفة كاملة لجميع ما يستطيع الانسان أن يعرفه لتدبير حياته ، وحفظ صحته ، واختراع جميع الفنون · ولكن هذه المعرفة الكاملة ليست فى المعانى التى يجدها كل شخص فى نفسه بدون تأمل ، ولا فى المعارف المكتسبة من التجربة والمحادثة والقراءة ، انما هى المعرفة عن طريق العلل والمبادىء الأولى التى يستنبط منها كل ما يستطاع معرفته · والمبادىء التى يتحدث عنها ديكارت هنا هى الميتافيزيقا عينها : فاننا اذا وضعنا الميتافيزيقا استطعنا أن نستنبط منها سائر ما عداها : « رأيت ان وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول، واستنبطت منه المبادىء التالية : ان هناك الها هو خالق كل ما فى العالم · ولما كان هو مصدر كل حقيقة . فانه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التى نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا · تلك هى المبادىء التى اصطنعها فى الأشياء اللامادية أو

الميتافيزيقية ، ومنها استنبطت بتمام الوضوح مبادىء الأشياء الجسمانية أو الفيزيقية ، أى ان هناك أجساما ممتدة طولا وعرضا وارتفاعا ، وان لها أشكالا وتتحرك على هيئات مختلفة » ٠

وكان « المدرسون » يعرفون الميتافيزيقا بما عرفها أرسطو حين قال انها « علم الموجود بما هو موجود » أى انها العلم بالخصائص الجوهرية للوجود ٠ لكن هذا التصور المدرسى للميتافيزيقا لا يقبله ديكارت ، اذ ان المشكلة الكبرى عنده هى أن نتبين متى يسوغ لنا اثبات الوجود ، وبعبارة أخرى ان الميتافيزيقا الديكارتية انما تهتم بالذات التى تعرف والتى تقرر الوجود أكثر مما تهتم بالموضوع الذى يمكن أن يعرف أو يكون موجودا ٠

واذا كان الأمر كذلك فالميتافيزيقا عند ديكارت هى أشد العلوم يقينا ، وهى العلم الذى ينبغى أن نستيقن من نتائجه قبل أن نستيقن من نتائج العلوم الأخرى ٠ والذى يضفى على الميتافيزيقا يقينها ليس هو طبيعة موضوعها ، بل الطريق الذى يسلكه الذهن فى طلبها ٠ ونحن نقرأ فى كتاب « القواعد » : « ليس أمام الجنس البشرى طرق مفتوحة للمعرفة اليقينية سوى طريق الحدس البدهى والاستنباط الضرورى اللذين بينهما المنهج » ٠

والمنهج الذى يحدد ماهية الميتافيزيقا هو المنهج الذى وصل اليه الفيلسوف بملاحظة العمل الذهنى فى الرياضيات ٠ فقد لاحظ ان فى الرياضيات استدلالات صحيحة لا نجدها فى غيرها ، وقرر أن من مرن ذهنه على عمليات الرياضيات أصبح أهلا للبحث عن الحقائق الأخرى ٠ لان منهج الفكر واحد فى جميع الأمور ٠

اذن فالميتافيزيقا علم دقيق يمكن اثبات قضاياه بيقين رياضى ٠

● طريق التأملات الديكارتية

ولنلق الآن نظرة على الطريق الذى سلكه ديكارت فى تأملاته ٠٠

فقد خصص تأمله الأول لنظر ميتافيزيقى مداره البحث فى الضرورة العقلية التى تقضى بانتهاج سبيل الشك ، باعتباره تمهيدا للفلسفة ٠ ولكى نفهم منهجه فى ذلك يجب أن نتبين الأسباب التى جعلته يدعونا الى

أن نصطنع الاناة ، ونتوقف عن الحكم ، ونرفض التصديق بما يلقى الينا من أقوال وآراء حتى ما كان منها شديد الرجحان ، فلا نسلم بأن شيئا من ذلك ما لم تتبين بالبداهة انه كذلك ، لان بداهة العقل عند الفيلسوف هى معيار اليقين بمعنى انها هى العلامة المميزة للمعرفة الصحيحة المبرأة من الخطأ والزلل .

ويلخص فيلسوفنا تأملاته فيقول : « قدمت فى التأمل الأدلة ، الأسباب التى تجعل فى استطاعتنا أن نشك على العموم فى الأشياء جميعا، وعلى الخصوص فى الأشياء المادية ، على الأقل ما دمنا لم يتيسر لنا من أسس أخرى فى العلوم سوى ما تيسر لنا حتى الآن . غير ان شكا عاما كهذا ، ان لم يظهر نفعه أول الأمر ، له مع ذلك نفع عظيم جدا ، من حيث انه يخلصنا من ضروب الأحكام السابقة ، ويمهد لنا سبيلا ميسورا جدا لكى نألف التجرد عن الحواس ، وأخيرا من حيث انه يجعل من غير الممكن، فى المستقبل أن نشك أبدا فى الأشياء التى قد نهتدى فيما بعد الى انها صحيحة » .

« وفى التأمل الثانى نجد الذهن يستعمل حريته الخاصة فيفترض ان جميع الأشياء التى يقع له عن وجودها أدنى شك هى أشياء معدومة ، لكن يتبين ان من الممتنع اطلاقا حينئذ أن يكون هو نفسه غير موجود . وهذا أمر فيه كذلك نفع عظيم ، فانه بهذا الوجه يتيسر له أن يميز الأشياء التى تخصه ، أى التى تخص الطبيعة الذهنية ، من الأشياء التى تخص الجسم » .

« لكن قد يتوقع بعض القراء منى أن أورد فى ذلك الموضع أدلة لاثبات بقاء النفس . ومن أجل ذلك أرى لزاما على ها هنا أن أنبههم الى اننى حاولت ألا أكتب فى هذه الرسالة كلها شيئا الا ولدى عنه براهين دقيقة جدا . ولذلك وجدت نفسى مضطرا الى اتباع ترتيب شبيه بالترتيب الذى يصطنعه أصحاب الهندسة ، وهو تقديم جميع الأشياء التى تتوقف عليها القضية التى نبحث عنها قبل استنتاج أى شىء منها » .

« وأول وأهم ما يطلب للتحقق من معرفة بقاء النفس أن نكون عنها تصورا واضحا صريحا ومتميزا كل التميز عن جميع التصورات التى يمكن أن تكون لدينا عن الجسم ، وهذا ما صنعته فى ذلك الموضع . ويطلب فضلا عن ذلك أن نعرف أن جميع الأشياء التى نتصورها بوضوح وتميز صحيحة على نحو ما نتصورها ، وهذا ما لم أستطع اثباته قبل التأمل الرابع ويلزم أيضا أن يكون لدينا عن الطبيعة الجسمية تصور متميز ،

يقوم بعضـه فى هـذا التأمل الثـانى ، وبعضه فى التأملين الخامس والسادس » ٠

« ويلزم أخيرا أن نستخلص من ذلك كله أن الأشياء التى نتصور بوضوح ونميز أنها جواهر متباينة ، مثلما نتصور الذهن والجسم ؛ هى حقا جواهر متميزة بعضها عن بعض فى واقع الأمر ، وهذا ما انتهيت اليه فى التأمل السادس.ومما يؤيده أيضا فى هذا التأمل نفسه اننا لا نتصوزها الا غير منقسمة ، ذلك اننا لا نستطيع أن نتصور نصف أى نفس كمـا نستطيع أن نتصور لأصغر جسم بين الأجسام ، وعلى هذا النحو نتبين أن طبيعتهما ليستا متباينتين فحسب بل هما متضادتان بوجه عام ٠ ولم أزد على هذا القدر فى معالجة الموضوع فى هذا الكتاب ٠ لان ذلك ما يكفى لافهام الناس ، بدرجة من الوضوح لا بأس بها ، ان فساد الجسم يقتضى فناء النفس ، ولملء قلوبهم بالأمل فى حياة أخرى بعد الموت ، وكذلك لان المقدمات التى يمكن أن نستنتج منها بقاء النفس تعتمد على شرح الفيزيقا بأسرها : أولا لمعرفة ان جميع الجواهر على العموم ، أى جميع الأشياء التى لا يمكن أن توجد دون أن تكون مخلوقة لله ، غير قابلة للفساد بطبيعتها ، وانها لا يمكن أن تنقطع عن الوجود أبدا ، الا اذا منع الله نفسه عونه عنها فأحالها الى العدم ، ثم لملاحظة ان الجسم على العموم جوهر ومن أجل ذلك أيضا لا يفنى ، لكن الجسم الانسانى ، من حيث هو مختلف عن الأجسام الأخرى ، ليس مركبا الا من أعضاء على هيئة معينة ومن أعراض أخرى تشابهها ٠

أما النفس الانسانية فليست كالجسم مؤلفة من أعراض ، ولكنهـا جوهر محض : فمنهما تتغير جميع أعراضها ، ومهما تكن مثلا نتصور أشياء وتريد وتحس بأشياء أخرى ٠٠ الخ ٠٠ فلن تصير شيئا آخر ، فى حين أن الجسم الانسانى يصير شيئا آخر متى تغير شكل بعض أجزائه ٠ ويلزم عن ذلك أن فناء الجسم الانسانى أمر ممكن ميسور ، أما ذهن الانسان أو نفسه فباقية بطبيعتها » ٠

« وفى التأمل الثالث بينت ببعض الاسهاب فيما يلوح لى أهم دليل استخدمته لاثبات وجود الله ٠ ولكننى لم أرد أن أستخدم فى هذا الموضع تشبيهات مشتقة من الأشياء الجسمية ، لكى أبعد أذهان القراء بقدر ما فى وسعى عن استعمال الحواس والاتصال بها ٠ ولذلك ربما بقيت هنالك مسائل كثيرة غامضة (أرجـو أن أوضحها توضيحا تاما فى ردودى على الاعتراضات التى وجهت الى الكتاب منذ فرغت من تحريره) ، ومنهـا المسألة التى أوردها فيما يلى : كيف أن فكرة موجود كامل اطلاقا ـ وهى

فكرة نجدها فينا ـ تشمل قدرا من الحقيقة الموضوعية ، أى تشارك بالتصور فى قدر من درجات الوجود والكمال بحيث يلزم أن تصدر عن علة كاملة على الاطلاق ؟ وهذا ما أوضحته فى تلك الردود بايراد التشبيه بآلة فى غاية البراعة والاتقان ترد فكرتها على ذهن صانع ما ، فانه كما ان ما لهذه الفكرة من اتقان موضوعى لابد له من علة معينة اما أن تكون علم ذلك الصانع أو علم واحد غيره تلقى هو عنه تلك الفكرة ، فكذلك يمتنع بالنسبة الى فكرة الله ، التى هى فينا ، ألا يكون الله ذاته علة لها » ٠

« وفى التأمل الرابع أقمت الدليل على أن جميع الأشياء التى نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا هى كلها صحيحة ، كما أوضحت طبيعة الخطأ أو الباطل ، مما تلزم معرفته ضرورة لتوكيد الحقائق السابقة ، ولفهم الحقائق التى تتلوها فهما صحيحا ٠ لكن ينبغى أن يلاحظ انى لا أنظر هنالك فى الخطيئة أى فى الخطأ الذى يقترف فى طلب الخير والشر ، بل الخطأ الذى يقع فى الحكم وتميز الحق من الباطل وليس قصدى أن أتكلم هنالك فى الأمور التى هى من شأن الايمان أو سلوك الانسان فى الحياة ، بل فى الأمور التى تتصل بالحقائق العقلية والتى يمكن معرفتها بمعونة النور الطبيعى وحده » ٠

ويتحدث ديكارت فى التأمل الخامس عن ماهية الأشياء المادية ، ثم يعود الى الحديث عن الله ووجوده ٠ وهو يستند الى معيار البداهة ، فيرفض مرة أخرى أن يضفى على المادة من الخواص الا الامتداد ، أى خاصة الجسم فى ان يكون ممتدا ٠ ولا يقبل الا الحركة فى المكان ، وينكر فى الوقت نفسه جميع « الصور الجوهرية » و « الصفات الخفية » وغيرها من الكائنات والمبادىء التى كان يتحدث عنها الفلاسفة « المدرسون » ٠

وينبغى ألا ننسى أن ديكارت عالم رياضى ، وان المثل الأولى للبداهة عنده هو البداهة الرياضية ٠ فهو ينظر الى الفكرة الواضحة التى تكون فى أذهاننا عن الله ، فيجد ان شأنها كشأن فكرة المثلث ٠ ومن ثم يعود الى البرهنة التى قام بها فى التأمل الثالث وينقلها الى هذا المستوى الفكرى الجديد ، منتهيا الى القول بأن القضيتين : « مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، و « الله موجود » هما قضيتان متعادلتان فى اليقين ٠

فى التأمل السادس من التأملات الديكارتية يبسط لنا النتائج العملية لما انتهى اليه ٠ بعد أن بين ان النفس الانسانية مستقلة عن البدن، قرر أنها مع ذلك متحدة به اتحادا وثيقا ، وان هذا الاتحاد أمر واقع تشهد به التجربة والمشاهدة ، وكل امرىء لابد متنبه الى انه يجمع فى ذاته بين

طبيعتين متباينتين ، جسمانية ونفسانية وهو أمر واقع لا سبيل الى المنازعة فيه ٠

ويختتم الفيلسوف تأملاته مبينا أن الأدلة على وجود عالم المادة والأجسام ليست من المتانة والوضوح بمنزلة الأدلة التى تؤدى الى معرفة النفس والى معرفة الله ٠ ويقول ديكارت نفسه فى تلخيص التأمل السادس ما يلى : « وانتهى فى التأمل السادس بتمييز فعل الفهم من فعل المخيلة ، وأصف علامات هذا التمييز ، وفيه أبين ان نفس الانسان متميزة عن الجسم حقا ، وانها مع ذلك ملتئمة معه التئاما ومتحدة به اتحادا يجعلها واياه شيئا واحدا ، وفيه أبسط جميع ضروب الخطأ الناشئة من الحواس ، مبينا الوسائل لاجتنابها ، وأورد أخيرا جميع الأدلة التى يمكن أن يستنتج منها وجود المادية ، لا لاننى أرى لها فائدة كبيرة فى اثبات ما تثبته ـ أعنى ان العالم موجود وان الناس أجساما ، وما شابه ذلك من أشياء لم يشك فيها قط انسان ذو عقل سليم ، بل لان امعان النظر فيها يطلعنا على انها لم تبلغ من المتانة والبداهة مرتبة الأدلة التى توصلنا الى معرفة الله ومعرفة النفس ٠ وبهذا الاعتبار تكون الأدلة الأخيرة أوثق وأبين ما يمكن أن يقع للذهن الانسانى من معرفة ٠

« وهذا كل ما قصدت الى اثباته فى هذه التأملات الستة ، ومن أجل هذا أغفلت ها هنا مسائل أخرى كثيرة تكلمت عنها عرضا فى هذه الرسالة » ٠

● فضل التأملات الديكارتية على الانسانية

وهكذا ٠٠ يمكن أن يقال فى فلسفة ديكارت من خلال تأملاته ان روح تلك الفلسفة الجوانية ومنهجها فى التدرج من الشك الى اليقين ، قد بقى كلاهما هاديا للذهن الانسانى على مدى العصور ٠ ولعل من فضل ديكارت على الانسانية المفكرة أن أصبح واضحا للعيان ان المثل الأعلى للوجود الانسانى لذاته ولمكانه فى العالم ، بحيث يرد جميع آرائه الى أفكار واضحة متميزة ، ويمتنع عن أن يقرر أو أن يعمل ما لم يكن معتمدا على أسباب صحيحة مقبولة لديه ولدى الناس جميعا ، وبحيث يتحرى دائما عن المسوغ الأخير لمعارفه وأعماله ٠ وهذا المعنى من معانى النظر الفلسفى هو المعنى

الذي ينبغي أن نحرص كل الحرص على اذاعته وتعميمه ، حتى يتيسر للفلسفة أن تؤدى فى المجتمع رسالتها الجليلة · ويسر كل متتبع لتطور الأفكار في المجتمع الحاضر ان يلاحظ ان مفهوم الفلسفة ورسالتها الحقيقية ، على نحو ما أراد لها ديكارت أن تكون ، قد برزا فى أيامنا هذه بروزا لا يدع مجالا لغموض أو ابهام فى أذهان المستنيرين ·

فقد كان لديكارت أكبر الفضل فى بناء صرح المذهب العقلى الحديث، حين وضع قاعدته المشهورة « يجب ألا أقبل شيئا قط على انه حق ما لم يتبين لى ببداهة العقل انه كذلك » ويجب ألا أحكم على الأشياء الا بما يتمثله ذهنى بوضوح وتميز ينتفى معهما كل سبيل الى الشك · وقد قيل ان ما يسمى فى الفلسفة باسم « الثورة الديكارتية » يتلخص فى القاعدة التى تتطلب البداهة فى كل معرفة وفى كل يقين . لانها انما تدعو الى رفض كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير ، ولا تقبل الا حكم العقل الذى لا يرى للحقيقة مقياسا الا البداهة والوضوح والجلاء ·

وكثيرون من مؤرخى الفكر الحديث رأوا فى فلسفة ديكارت وتأملاته هذا الطابع العقلى الصريح الذى يجعل من ديكارت « أبا روحيا للثورة الفرنسية ، وفيلسوفا انتصرت بفلسفته قضية البحث الحر وتأيد بها سلطان العقل » ·

وكان لفلسفة ديكارت وتأملاته أعمق الآثار فى مختلف أنحاء العالم : ذاعت فى انجلترا وألمانيا وهولندا وايطاليا وفى غيرها من البلاد الأوروبية، ابان القرن الثامن عشر وتغلغل الفيلسوف فى أبعد أصقاع الدنيا ·

كذلك كان لتأملات ديكارت آثارا بعيدة المدى فى التاريخ . فقد كانت آراء الفيلسوف بمثابة ثورة فكرية هائلة ، بل كانت على التحقيق أكبر ثورة فلسفية عرفها الناس منذ أيام الفيلسوف اليونانى « سقراط » حتى عهد الفيلسوف الألمانى « كانط » ، وكذلك المثالية « الكانطية الجديدة » عند « فشته » و « شوبنهور » موافقتين لبداية المثالية الديكارتية ، وان كانتا قد اختلفتا عنها فى النتائج الواقعية التى انتهت اليها ، ولقد رأى « شلنج » ان الطابع الذى يميز الفلسفة الحديثة هو الفصل بين « المتناهى » و « اللا متناهى » ، وان ديكارت قد عبر عن الثنائية تعبيرا علميا ، وما الفلسفة النقدية الا تحقيق تلك الفكرة التى بدأت بديكارت · ويبدو مفكرو الألمان اليوم ميالين الى قبول نظرية ديكارت فى المعرفة ، وهم يجلون الفيلسوف الفرنسى ويرون فيه مثال المفكر الصحيح العميق ·

ومن أشهر من تأثروا فى عصرنا هذا بفلسفة ديكارت الألمانى « ادموند هوسرل » (٣) · وهو نفسه يعترف فى مستهل كتابه : «تأملات ديكارتية» بأثر ديكارت عليه ويقول بصدد مذهبه فى « الفينومنولوجيا » : « ربما صح أن نسمى هذا المذهب ديكارتية جديدة ، وان كنا قد اضطررنا الى أن نطـرح على التقريب كل ما للديكارتية من فحوى معروف · وذلك لاننا بسطنا بعض المسائل الديكارتية بسطا قائما بذاته » · ولا نزاع اليوم من أن فيلسوفنا كان مصدر الهام قوى لفلسفات الحرية التى ظهرت آثارها فى الأجيال اللاحقة فى الغرب والشرق على السواء ·

●●●

وجملة القول أن رائد المذهب العقلى فى العصر الحديث قد جعل من التفكير الواعى فريضة على كل واحد ، وآمن بأن الانسان انما خلق لوجود أسمى من وجوده فى اطار الزمان والمكان ، وانه لا حياة لحضـارة انسانية من غير ميتافيزيقا ·

والناظر فى تأملات ديكارت وفلسفته يتجلى له منها أمران نعتقد أن عصرنا هذا محتاج الى أن يتدبرهما وأن يطيل الوقوف عندهما : وهما الثقة بالله العليم الحكيم ، والثقة بالعقل البصير المستنير · ففلسفة ديكارت هى فلسفة العقل الذى يفتح للانسان آفاق المعرفة والعلم ، ويغزو بنوره عالم السماء والأرض · فاذا أحسن المرء استعماله ، مع دوام الثقة بالله مبدع الكون ، استطاع أن يسخره لخدمة الانسانية واسعادها ، وحفظ صحتها ، وتوفير رخائها . وتوطيد دعائم السلام بين أفرادها وجماعاتها · ولعل أكبر رسالة يتلقاها عصرنا هذا من تأملات ديكارت هى ضرورة تبرير العلم بالميتافيزيقا لا انكارها والتهجم عليها ·

ولو بعث « أبو الفلسفة الحديثة » بيننا اليوم لرأى انه ما زال رائدا لذوى الأصالة من العلماء ، أعنى أولئك الذين لا ينكرون ماجاوز مقاييس الحس ، ويحرصون على أن يفكروا وفقا للعقل ·

●●●

---

(٣) ادموند هوسرل : فيلسوف المانى وضع أسس منهج الفينومينولوجيا (١٨٥٩ ــ ١٩٣٨) ·



(٨) المبادىء

اسحق نيوتن

كتاب المبادىء
تأليف : اسحق نيوتن
١٦٨٧ م

أعظم انتاج فكرى أنتجه الذهن البشرى

● « نيوتن أعظم عباقرة العالم »

يعتبر اسحق نيوتن من أبرز شخصيات التاريخ ومن أعظم العلماء الذين قدموا للانسان خدمات تجل عن الوصف ، ولم تعرف البشرية قط عالما على ذلك القدر من الأهميـة والعطـاء ٠ فانه أكثر العلماء تأثيرا فى هذا الكون ٠

ان سيرة اسحق نيوتن يصعب ايجازها فى سطور ، فقد كان بحرا عميقا من العسير سبر أغواره ويكفى لكى نتلمس عبقرية ذلك العالم الفذ أن ننصت الى ما قاله عنه العالم الأشهر آينشتين : « ان كل ما عرف من العلوم الطبيعية النظـرية مدين لنيوتن ٠٠٠ وليس غـير امتداد طبيعى لآرائه ٠٠ » ٠

اسحق نيوتن كبير عباقرة الانجليز ، لا بل أعظم عباقرة العالم على مر الأجيال ٠٠ ولد ضعيفا هزيلا لم يستكمل عدة أيام جنينا ، تضطرب

أنفاسه فى صدره . فى يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٦٤٢ م ٠٠ وما أن وقعت عينا القابلة عليه حتى قالت : « يا الهى انه من أصغر المواليد ، أستطيع ، بدون مبالغة ، أن أضعه فى كوز ماء » وقدرت له حياة يومه أو أقل من ذلك ، ولكن القدر شاء لهذا الطفل أن يبقى (٧٥ عاما) طواها فى تؤدة وأناة ٠٠ نشر خلالها أعلام المعرفة ٠٠ وكلل مفرق العلم بغار النصر ٠٠ نصر العلم على أسرار الطبيعة ٠

ودرج اسحق نيوتن على بساط الأيام يطويها من خلفه حتى أن بلغ الرابعة فأودعته أمه حجر جدته ، وتخلت عنه لتعيش فى كنف زوجهـا الجديد ٠ لقد مات زوجها الأول (والد اسحق نيوتن) ولم يكن الجنين قد اكتمل نموه فى الأحشاء ٠ ورأت الجدة مخايل الذكاء على حفيدها ، فهو الطفل الذى لا يفتـأ فى كل يوم يبتدع لها بآلاته الصغيرة ٠٠ المطرقة والمنشار ٠٠ ألوانا وأشكالا كثيرة مستطرفة لا تدرك مى كيف كد الصبى عقله فأوجدها ٠

ويكبر اسحق نيوتن مع الأيام ٠٠ ويزداد ولوعه فى ابتكار الآلات الصـغيرة والدقيقـة كبرا ٠ حتى انه استطاع صنع ساعة يدار عقرباها بنقط من الماء تنحدر عليهما من وعاء مستقل كان يملأه كل صباح ٠ وكان ابان طولته شغوفا بالعلم ، حريصا عليه ، الا أنه حينما ذهب الى المدرسة فى الثانية عشرة من عمره لم يبد نجابة بادىء الأمر ، وظل طالبا عاديا الى أن استفز أهميته العقلية أحد الطلبة من زملائه الأشداء ، فقد سدد اليه هذا الأخير ضربة بقبضة يده هوت به الى الأرض فأخذ الطلبة يتضاحكون عليه ، ويتندرون بضعفه ووهنه ٠ وشحذ الصبى عقله ٠٠ وانتصر على خصمه انتصارا مبرما ٠٠ لا من حلبة المصارعة ، بل فى ميدان العلم ٠٠ وبرز اسمه منذ ذلك الوقت بين أقرانه وأصبح التلميذ النابغة فى مدرسته بدون منازع !

لكن صوت الأرض ظل يدوى فى أذنيه ٠٠ تدعوه اليها ليقيم أمرها ، ويحرث ويعزق أرضها ، ويحمـل على كتفيه تبعات أبيه الراحل ، فهجر الدراسة ولبى لها النداء ، ولكنه لم يدم على حالته تلك طويلا ٠ فقد حرمت عليه أمه مطالعة أى كتاب ، وطلبت منه الانصراف بكلية طاقته الى الأرض ٠ ان فتى مثل اسحق نيوتن لا يستطيع على هذا الأمر صبرا ، فأخذ يسترق ساعات الزمن فى خلسـة ٠٠ بعيدا عن أعين الرقبـاء وينكب على كتيب يتدارسه ٠٠ أو مسألة يعالج فك مغاليقها ٠ وقبض عليه خاله فى أحد الأيام وهو ملق برأسه الى ورقة يحبرها بالأرقام والأعداد ، فوضع الخال يده عليه ، وقال : انك يا اسحق أحد اثنين لا ثالث لهما عندى ، فاما أن

تكون مجنونا أو عبقريا فذا ، والله وحده أعلم بحقيقه الأمر ، ومن ثم خلى بينه وبين دراسته • فالتحق بكلية الأقانيم الثلاثة فى كمبريدج عام ١٦٦٠، وبز اخوانه فى الدرس والتحصيل وخاصة فى الرياضيات حتى تخرج من الكليـــة •

●●●

وفى عام ١٦٦٩ استقال أستاذه فى الرياضة « اسحاق بارو » • وعين نيوتن خلفا له بناء على توصية منه ، وصف فيها نيوتن بأنه « عبقرى لا نظير له » ، وقد احتفظ بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاما • ولم يكن بالمعلم الناجح • كتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول : « كان الذين يذهبون للاستماع اليه قليلين ، والذين يفهمونه أقل ، حتى انه كان أحيانا كثيرة وكأنه يقرأ للحيطان بسبب قلة السامعين » • وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين اطلاقا فيعود الى حجرته كاسف البال • وبنى فيها مختبرا ــ كان الوحيد فى كمبردج آنئذ • وقام بالكثير من التجارب ، لاسيما فى الخيمياء (١) « وهدفه الاكبر تحويل المعادن » ولكنه اهتم ايضا ب « اكسير الحياة » و « حجر الفلاسفة » ، وواصل دراساته الخيميائية من عام ١٦٦١ الى ١٦٩٢ وحتى وهو يكتب كتابه المبادىء ، وكان أعضاء الجمعية الملكية مشغولين شغلا محموما بهذا البحث نفسه عن صنع الذهب • ولم يكن هدف نيوتن تجاريا بشكل واضح ، فهو لم يبد قط أى حرص على المكاسب المادية ، ولعله كان يبحث عن قانون أو عملية يمكن أن يفسر بها العناصر على انها أشكال مغايرة ، قابلة للتحويل ، لمادة أساسية واحدة • ولا سبيل لنا الى التأكد من انه كان مخطئا •

وكان له حديقة صغيرة خارج مسكنه بكمبردج ، يتمشى فيها فترات قصـــيرة سرعان ما تقطعها فكرة يهرع الى مكتبـــه ليسجلها • كان قليل الجلوس ، يؤثر أن يذرع حجرته كثيرا (فى رواية سكرتيره) « حتى انتخاله ••• واحدا من جماعة أرسطو » المشائين (٢) • وكان مقلا فى الطعام ، وكثيرا ما فوت وجبة ، ونسى انه فوتها ، وكان ضنينا بالوقت الذى لابد من انفاقه فى الأكل والنوم • « ونادرا ما ذهب لتناول الطعام

---

(١) الخيمياء : كيمياء قديمه • ازدهرت فى القرون الوسطى غايتها تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب واكتشاف علاج عام لجميع الأمراض ووسيلة تعرف باكسير الحياة لاطالة العمر الى ما لا نهاية •

(٢) المشاءون : اتباع ارسطو وتلاميذه • أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يمشون فى ممرات اللوقيون الذى اتخذه أرسطو مدرسة • أشهرهم تاوفراسطوس واستراتون •

فى القاعة . فاذا فعل فانه ــ ما لم ينبه ــ يذهب فى هيئة زرية ، حذاؤه بالى الكعبين ، وجواربه بلا رباط ... ورأسه غير ممشط الا فيما ندر ! » وقد رويت ، واخترعت القصص الكثيرة عن شرود ذهنه . ويؤكد المؤرخون انه قد يجلس الساعات بعد استيقاظه من النوم على فراشه دون أن يرتدى ثيابه وقد استغرقه الفكر . وكان أحيانا اذا جاءه زائرون يختفى فى حجرة أخرى ، ويخط أفكارا على عجل ، وينسى أصحابه تماما .

● مجالات عبقريته

لقد كان نيوتن راهبا من رهبان العلم فى هذه السنين الخمس الثلاثين بكمبردج . وقد وضع « قواعد للتفلسف » ــ اعنى للطريقة والبحث العلميين . ورفض القواعد التى وضعها ديكارت فى « مقاله » كمبادئ قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال . وحين قال نيوتن « أنا لا أخترع فروضا » كان يعنى انه لا يقدم نظريات حول اى شئ يتجاوز ملاحظة الظواهر . فهو اذن لا يغامر بأى تخمين عن طبيعة الجاذبية بل يكتفى بوصف مسلكها وصياغة قوانينها . ولم يزعم انه يتجنب الفروض باعتبارها مفاتيح للتجارب ، فان مختبره على العكس خصص لاختبار مئات الافكار والامكانات ، وسجله يزخر بالفروض التى جربت ثم رفضت . كذلك لم يرفض الاستدلال ، انما أصر على أنه يجب أن ينطلق من الوقائع ويفضى الى المبادئ . وكانت طريقته أن يتصور الحلول الممكنة للمشكلة ، ويستنبط منضمناتها الرياضية ، ويختبر هذه بالحساب والتجربة . وكتب يقول « يبدو أن مهمة الفلسفة (الطبيعية) كلها تكمن فى هذا ــ البحث من ظواهر الحركات فى قوى الطبيعة ، ثم ايضاح الظواهر الأخرى من هذه القوى » . لقد كان مزيجا من الرياضة والخيال ، ولن يستطيع فهمه الا من يملكهما جميعا .

ولكن لنمض فى طريقنا رغم هذا . ان لشهرة نيوتن بؤرتين : حساب التفاضل ، والجاذبية . بدا عمله فى حساب التفاضل عام ١٦٦٥ بايجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أى نقطة على منحنى . ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل الفروق المستمرة Fluxions وفسر هذا المصطلح تفسيرا لا يمكننا أن نصل الى خير منه .

« ان الخطوط ترسم ، وبهذا الرسم تولد ، لا بضم الأجزاء بعضها الى بعض ، بل بالتحرك المستمر للنقط ، والسطوح بتحريك الخطوط ،

والمجسمات بتحرك السطوح ، والزوايا بدوران الجوانب ، وأجزاء الزمن بالفيض المستمر ، وهكذا في غير ذلك من الكميات ٠ وعلى ذلك فبما ان الكميات ، التى تزداد من أزمان متساوية ، وبالزيادة تولد ، أصبحت أكبر أو أقل حسب السرعة الأكبر أو الأقل التى تزداد أو تولد بها ، فاننى بحثت عن طريقة لتحديد الكميات من سرعات الحركات أو الزيادات التى تولد بها ، واذا أطلقت على سرعات الحركات أو الزيادات لفظ « الفروق » والكميات المولدة « المتغيرات » ٠ فقد اهتديت شيئا فشيئا الى طريقة الفروق في عامى ١٦٦٥ و ١٦٦٦ » ٠

ولعله استخدم هذه الطريقة في التوصل الى بعض النتائج المتضمنة في كتابه « المبادىء » عام ١٦٨٧ ، ولكن عرضه لها فيه جرى على الصيغ الهندسية المقبولة ربما مراعاة لما يناسب قراءه ٠ وقد أسهم ببيان لطريقته في الفروق ــ ولكن دون أن يخفى اسمه ــ في كتاب « الجبر » عام ١٦٩٣ ٠ وكان في طبع نيوتن أن يؤخر نشر نظرياته ، وربما أراد أولا أن يحل الصعوبات التى أوحت بها ٠ وعليه فقد انتظر حتى سنة ١٦٧٦ لينشر نظرية « ذات الحدين » التى خلص اليها ٠ ولو انه صاغها على الأرجح في ١٦٦٥ ٠

●●●

على أن الرياضة ، على ما فيها من عجب ، لم تكن سوى أداة لحساب الكميات ، فهى لم تزعم انها تفقه الحقيقة أو تصفها ٠ فلما تحول نيوتن من الأداة الى البحث الجوهرى ، عكف أولا على استكناه سر الضوء ٠ وتناولت محاضراته الأولى في كمبردج الضوء واللون والرؤية ، وعلى عادته لم ينشر كتابه « البصريات » الا بعد خمس وثلاثين سنة فى عام ١٧٠٤ ، فقد كان بريئا من شهوة النشر ٠

وكان قد توصل عام ١٦٦٦ الى أحد كشوفه الأساسية حتى قبل أن يصنع التلسكوبات وهو ان الضوء الأبيض ، أو ضوء الشمس ، ليس بسيطا أو متجانسا ، بل هو مركب من الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى ، والبنفسجى ٠ وجميع مناقشاته حول الضوء فى كتابه « البصريات "Opticks" » فى عام ١٧٠٤ ٠

● أصل نظرية الجاذبية

كانت سنة ١٦٦٦ سنة جنينية لنيوتن ٠ شهدت بداية جهوده فى البصريات ، ولكنه كذلك يقول عن ذكرياته ان شهر مايو « كان مدخلى الى الطريقة العكسية للفروق المستمرة ، وفى نفس السنة بدأت أفكر فى امتداد

الجاذبية الى مدار القمر ٠٠٠ بعد أن قارنت بين القوة اللازمة لحفظ القمر فى مداره ، وقوة الجاذبية على سطح الأرض ، ووجدتهما متفقتين تماما تقريبا ٠٠٠ فى تلك السنين كنت فى ربيع عمرى » ٠

وفى عام ١٦٦٦ وصل الطاعون الى كمبردج ، فعاد نيوتن الىموطنه وولز ثورب طالبا للسلامة ٠ وهنا نلتقى بقصة لطيفة ٠ كتب فولتير فى كتابه « فلسفة نيوتن » :

« ذات يوم من أيام عام ١٦٦٦ ، حين كان نيوتن معتكفا فى الريف رأى ثمرة تسقط من شجرة كما أخبرتنى بنت أخته السيدة كوندويت ، فاستغرق فى تفكير عميق فى السبب الذى يجذب جميع الأجسام فى خط اذا مر قريبا جدا من مركز الأرض » ٠

وهذا أقدم ما نعرفه من ذكر لقصة التفاحة ٠ وهى لا ترد فى كتب مترجمى نيوتن القدامى ، ولا فى روايته لكيفية اهتدائه لفكرة الجاذبية الكونية ، والفكرة السائدة اليوم عن القصة انها اسطورة ٠ وأرجح منها قصة أخرى رواها فولتير ، وهى ان غريبا سأل نيوتن كيف اكتشف قوانين الجاذبية ، فأجاب « بادمان التفكير فيها » ومما لا ريب فيه انه بحلول عام ١٦٦٦ كان نيوتن قد حسب قوة الجذب التى تحفظ الكواكب فى أفلاكها وانتهى الى أنها تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع بعدها عن الشمس ٠ ولكنه لم يستطع الى ذلك الوقت التوفيق بين النظرية وحساباته الرياضية ، فنحاها جانبا ، ولم ينشر عنها شيئا طوال الأعوام الثمانية عشرة التالية ٠

وقد كتب هو نفسه فى كتاب لم ينشر الا بعد موته بثمانية وأربعين عاما (١٦٥١) يقول :

« ان القوة المنبعثة من القمر تصل الى الأرض ، وبالمثل فان القوة المغناطيسية للأرض تعم منطقة القمر ، وكلتاهما تتجاوب وتتآلف بتأثيرهما المشترك ، حسب تناسب الحركات وتطابقها ، ولكن تأثير الأرض أكبر نتيجة لكبر كتلتها » ٠

●●●

كتاب المبـــادىء Principia

وقد فسرت عنوان الكتاب مقدمته :

« بما أن القدماء (كما يخبرنا بابوس) (٣) علقوا أهمية عظمى على علم الميكانيكا فى بحثهم فى الأشياء الطبيعية ، وبما أن المحدثين ، بعد أن نحوا أشكال المادة (التى قال بها السكولاستيون) (٤) والصفات الغيبية، حاولوا اخضاع الظواهر الطبيعية لقوانين الرياضة ، فقد طورت الرياضة فى هذا البحث على قدر اتصالها بالفلسفة (الطبيعية) ··· وعليه فانا نقدم هذا المؤلف على انه المبادىء الرياضية للفلسفة ، ذلك لأن كل معضلة الفلسفة هى فى بحث قوى الطبيعة من ظواهر الحركة ، ثم توضيح الظواهر الأخرى من هذه القوى » ·

أما وجهة نظر الكتاب فستكون ميكانيكية خالصة :

« وددت لو استطعنا استخلاص باقى الظواهر الطبيعية بنفس نوع الاستدلال من الأسس الميكانيكية ، لأن مبررات كثيرة تحملنى على الظن بأنها ربما كانت كلهـا تتوقف على قوى معينة تدفع بواسطتها جزئيات الأجسام بأسباب مجهولة الى الآن بعضها نحو البعض ، وتتماسك فى أشكال منتظمة ، أو تصد وتتراجع بعضها عن البعض ، واذا كانت هذه مجهولة ، فقد حاول الفلاسفة الى الآن البحث فى الطبيعة عبثا ، ولكنى أرجو أن تلقى المبادىء الموضوعة هنا بعض الضوء على تلك الطريقة ، أو على طريقة أصح ، من طرق الفلسفة » ·

وبعـد أن وضح نيـوتن بعض التعاريف والبدهيات ، صـاغ ثلاثة قوانين للحركة :

١ ــ كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة المنتظمة فى خط مستقيم ما لم يضطر الى تغيير تلك الحالة بقوى واقعة عليه ·

٢ ــ تغيير الحركة يتناسب مع القوة المحـركة الواقعة ، ويتم فى اتجاه الخط المستقيم الذى تقع فيه تلك القوة ·

---

(٣) بابوس : رياضى يونانى (حوالى ٣٠٠) عاش فى الاسكندرية · كان لمؤلفـه (مجموعة الهندسة) عاملا فى نهضة الهندسة فى القرن ١٧ ·

(٤) السكولاستيون : الفلسفة المدرسية ، فلسفة المدرسين : وهى الفلسفة التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ·

٣ ـ كل فعل يقابله دائما رد فعل مساو له ٠

أما وقد تسلح نيوتن بهذه القوانين ، وبقانون التربيع العكسى فقد تقدم الى صياغة مبدأ الجاذبية ٠ وصورة المبدأ الحالية ، وهى ان كل جزىء من المادة يجذب كل جزىء بقوة تتناسب تناسبا طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما ، هذا الصورة لا نجدها بهذا النص فى أى موضوع فى كتاب المبادىء ، ولكن نيوتن أعرب عن الفكرة فى التعقيب العام الذى ختم به الكتاب الثانى : « ان الجاذبية ٠٠٠ تعمل ٠٠٠ حسب كمية المادة الجامدة التى تحتويها (الشمس والكواكب) ، وتنتشر قوتها على جميع الجهات ٠٠٠ متناقصة أبدا بما يتناسب مع المربع العكسى للمسافات » ٠ وقد طبق هذا المبدأ ، وقوانينه فى الحركة ، على مدارات الكواكب ، ووجد أن تقديراته الحسابية تتفق والمدارات الاهليلجية التى استنتجها كبلر (٥) ٠ وزعم ان الكواكب تحول عن حركاتها المستقيمة، وتحفظ فى مداراتها ، بقوة تميل صوب الشمس وتتناسب تناسبا عكسيا مع مربع أبعادها عن مركز الشمس ، وفسر جذب المشترى لتوابعه ، والأرض والقمر ٠ وبين أن نظرية ديكارت فى الدوامات باعتبارها الشكل الأول للكون لا يمكن التوفيق بينها وبين قوانين كبلر ٠ وحسب كتلة كل كوكب ، وقدر كثافة الأرض من خمسة الى ستة أمثال كثافة الماء ٠

(والرقم الحالى ٥ر٥) ٠ وعلل رياضيا تفرطح الأرض عند القطبين. وعزا انبعاجهما عند الاستواء الى قوة الشمس الجاذبة ، ووضع رياضيات المد والجزر باعتبارهما راجعين الى جذب الشمس والقمر الموحد للبحار ، ويمثل هذا الفعل القمرى ـ الشمسى فسر مبادرة نقطتى الاعتدالين ، ورد مسارات المذنبات الى مدارات منتظمة ، وبهذا أيد نبوءة هالى (٦) ٠ وقد صور كونا أعظم تعقيدا من الناحية الميكانيكية مما ظن من قبل ، لانه نسب لجميع الكواكب والنجوم صفة الجذب ، فأصبح الآن كل كوكب أو نجم ينظر اليه على أنه متأثر بكل كوكب أو نجم آخر ٠ ولكن فى هذا الحشد المعقد من الأجرام السماوية رسم نيوتن قانونا يحكمه : فأبعد النجوم يخضع لذات الميكانيكا والرياضة اللتين يخضع لهما أصغر الجزيئات على الأرض ٠ ان رؤية الانسان للقانون لم تغامر قط بالتحليق فى الفضاء الى مثل هذا البعد ، ولا بمثل هذه الجرأة ٠

●●●

---

(٥) كبلر : يوهانس كبلر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠) فلكى المانى نشر قوانينه عن المجموعة الشمسية ٠

(٦) هالى : عالم فلك انجليزى أسهم اسهاما بارزا فى دراسة القمر والزهرة وحركة النجوم ٠ كان اول من وضع جدولا بنجوم نصف الكرة السماوية الجنوبى (١٦٧٩) ٠ وكان أيضا اول من تنبأ بعودة المذنبات ٠ واليه ينسب « مذنب هالى » ٠

وقد نفدت الطبعة الأولى من كتاب « المبادىء » سريعا ، ولكن لم تظهر طبعة ثانية الا فى عام ١٧١٣ · وعزت نسخة حتى ان عالما نسخ الكتاب كله بيده · واعترف القراء بانه عمل فكرى من أرفع طراز ، ولكن بعض ملاحظات النقد كدرت صفو الثناء عليه · فرفضت فرنسا النظام النيوتونى، الى أن عرضه فولتير فى سنة ١٧٣٨ عرضا ملؤه الاعجاب والتبجيل · واعترض كاسينى وفونتنيل بأن الجاذبية ليست سوى قوة أو صفة غيبية تضاف الى القوى الماضية ، وقالا ان نيوتن شرح بعض العلاقات بين الأجرام السماوية ، ولكنه لم يكشف عن طبيعة الجاذبية ، التى ظلت سرا خفيا كسر الله · وقال ليبنتز (٧) بانه ما لم يستطع نيوتن بيان المكنية التى تستطيع الجاذبية أن تؤثر بها ، خلاف فضاء يبدو فارغا ، فى أجسام تبعد عنها ملايين الأميال ، فانه لا يمكن قبول الجاذبية على انها شىء أكثر من مجرد كلمة ·

ولم تحظ النظرية الجديدة بالقبول السريع حتى فى انجلترا ، وزعم فولتير ان المرء كان بالجهد يجد عشرين عالما يرضون عنها بعد أن نشرت لأول مرة بأربعين عاما · وبينما شكا النقاد فى فرنسا من أن النظرية ليست ميكانيكية بالقدر الكافى ، كانت الاعتراضات عليها فى انجلترا فى أغلبها دينية ، فأسف جورج باركلى (٨) فى كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » عام (١٧١٠) لان نيوتن يرى الفضاء والزمان والحركة مطلقة ، سرمدية فيما يبدو ، وموجودة مستقلة عن المساندة الالهية · فالميكانيكية تطغى على النظام النيوتونى طغيانا لا يترك فيه مكانا لله ·

فلما وافق نيوتن على أن يعد طبعة ثانية للكتاب ، حاول أن يهدىء من ثائرة نقاده ، فأكد انه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال الفضاء الفارغ ، وانه يعتقد بوجود ناقل متخلل ، رغم انه لن يحاول وصفه ثم اعترف بصراحة انه لا يفقه طبيعة الجاذبية · وبهذه المناسبة كتب فى الطبعة الثانية كلماته التى كثيرا ما يساء فهمها ، وهى انه « لا يضع فرضا » وانه « يجب أن تتسبب الجاذبية من عامل يعمل بثبات وفق قوانين معينة ، ولكنى أترك لقرائى النظر فى هل هذا العامل مادى أو غير مادى » ·

ورغبة فى المزيد من الرد على الاعتراضات الدينية ألحق بالطبعة الثانية تعقيبا عاما عن دور الله فى نسقه · فقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادى ، ورأى حتى فى ذلك العالم أدلة على وجود خطة الهية ، فالآلة

---

(٧) ليبنتز : جو كفريت فيلهلم لبنتز : (١٦٤٦ – ١٧١٦) فيلسوف ألمانى أكد معقولية الكون وارتباطه بالله ·

(٨) باركلى : فيلسوف ايرلندى (١٦٨٥ – ١٧٥٣) ·

الكبرى تتطلب مصدرا أول لحركتها ، لابد أن يكون هو الله ، ثم ان فى النظام الشمسى شذوذات فى المسلك يصححها تعالى دوريا كلما ظهرت . ولكى يفسح نيوتن مجالا لهذه التدخلات الخارقة نزل عن مبدأ عدم فناء الطاقة . وافترض الآن ان آلة العالم تفقد بعض طاقاتها بمضى الوقت ، وستفقدها كلها ان لم يتدخل الله ليرد لها قوتها . واختتم بهذه العبارة « ان هذا النظام البديع ، نظام الشمس ، والكواكب ، والمذنبات ، لا يمكن أن ينبعث الا من مشورة كائن ذكى قوى ومن رحابه » . وأخيرا تحرك صوب فلسفة يمكن أن تفسر بمعنى حيوى ، **أو تفسر بمعنى ميكانيكى قال :**

« وقد نضيف الآن شيئا يتصل بروح غاية فى الدقة ، روح تنتشر وتختفى فى جميع الأجســام الكبيرة ، وبقوتها وفعلها تتجاذب جزئيات الأجسام فى المسافات القريبة ، وتتماسك اذا تجاورت ، وتعمل الأجسام الكهربية الى أبعاد أعظم ، فتصد وتجذب الجزئيات المجاورة ، ويرســل الضوء ، ويعكس ، ويكسر ، ويثنى ، ويسخن الأجسام ، وكل احساس يثار ، وتتحرك أعضاء الأجسام الحيوانية بأمر الارادة ، أعنى بتموجات هذه الروح ، مبثوثة بالتبادل على خيوط الأعصاب المتينة ، من أعصاب الحس الخارجيــة الى المخ ، ومن المخ الى العضلات . على ان هــذه أشياء لا يمكن تفسيرها فى بضع كلمات ، ثم اننا لم نزود بما يكفى من التجارب التى يتطلبها التقرير والايضاح الدقيقان للقوانين التى تعمل وفقــا لها هذه الروح الكهربية المرنة » .

ترى ماذا كان ايمــان نيوتن الحقيقى ؟ لقد تطلبت أستاذيته فى كمبردج الولاء للكنيسة الرسمية ، وكان يختلف بانتظام الى الخــدمات الكنســية الانجليكانية . أما صــلواته الخاصة فيقول فيهــا ســكرتيره : « لا أستطيع أن أقول عنها شيئا ، وأميل الى الاعتقاد بأن دراساته المفرطة حرمته من النصيب الأفضل » . ومع ذلك فقد درس الكتاب المقدس بنفس الغيرة التى درس بها الكون . وقد أثنى عليه رئيس أساقفة بقوله : « انك تعرف من اللاهوت أكثر مما نعرف كلنا مجتمعين » . وقال لوك عن معرفته بالأسفار المقدسة « لست أعرف من أمثاله الا القليلين » وقد خلف كتابات لاهوتية يفوق حجمها كل مؤلفاته العلمية .

وقادته دراساته الى نتائج أشبه بالأريوسية ، وهى قريبة الشبه بنتائج ملتن ، ومجملها ان المسيح وان كان ابن الله الا انه ليس ساديا لله الأب فى الزمن أو القوة . وفيما عدا ذلك كان نيوتن ، أو أصبح ، مستقيم العقيدة تماما ، ويبدو انه آمن بكل كلمة من كلمات الكتاب المقدس على انها كلمة الله .

● ● ●

هذا وقد بلغ صيت نيوتن الذرى ، فقدر ليبنتز أن كتاب «المبادىء» يعدل فى قيمته كل المؤلفات السابقة • وذهب هيوم الى أن نيوتن « أعظم وأندر عبقرى ظهــر ليشرف النوع الانسانى ويعلمه » ووافقه فولتير فى تواضع • ووصف لجرانج كتاب « المبادىء » بانه « أعظم انتاج أنتجه الذهن البشرى » ، وضمن له لابلاس الى الأبد « مكان الصدارة على جميع انتاجات العقل البشرى » وأضاف أن نيوتن أوفر الناس حظا ، لأنه ليس هناك سوى كون واحد ، وليس سوى مبدأ مطلق واحد له ، وقد اكتشف نيوتن ذلك المبدأ • ومثل هذه الأحكام لا ثبات لها لأن « الحقيقة » حتى فى العلم ، تذبل كالزهرة •

ويرى ميشيل هارت ان من يرجع الى الموسوعة العلمية يجد بأن للعالم الكبير نيوتن من المراجع ما يعادل ثلاثة أضعاف آية مراجع تخص العلماء الآخرين • • كمـا ان من الضرورى عند النظـر فى قوانين نيوتن واكتشافاته الرجوع الى ما قاله علماء عصره عنه • • لقد كان بحق العبقرى الذى فاق حدود زمنه والرجل الأكثر أهمية فى اضفاء صفحات من التقدم والحضارة على تاريخ الانسانية •

ولو اننا قسنا عظمة انسان بأقل المقاييس ذاتية ، وهو انتشـار تاثيره وطول بقاء هذا التأثير ، لما وجدنا لنيوتن نظيرا الا فى مؤسسى الأديان السماوية • لقد كان تأثيره على الرياضة الانجليزية ــ حينا ــ تأثيرا ضارا ، لان « فروقه وتنــويتها كانا أقل يسرا من حساب التفاضــل والتنويت اللذين هيمن بهما ليبنتز على القــارة • ويبدو أن نظريته فى جسيمات الضوء عاقت تقدم البصريات قرنا ، وان وجد بعض الطلاب الآن عونا كبيرا فى نظرية نيوتن • أما فى الميكانيكا فقد أثبت عمله انه خلاق الى غــير حدود • كتب أرنست ماخ(٩) يقول : « ان كل ما أنجز فى الميكانيكا منذ أيامه لا يعدو أن يكون تطويرا استنتاجيا ، شكليا ، رياضيا • • • على أساس قوانين نيوتن » •

وقد خشى اللاهوتيين لأول وهلة من تأثير كتاب « المبــادىء » على

---

(٩) أرنست ماخ : (١٨٣٨ ــ ١٩١٦). فيلسوف وفيزيقى نمساوى • كانت له بحوث هامة فى نظرية النسبية والرياضيات ، وعلم وظائف الأعضاء •

الدين ، ولكن محاضرات بويل(١٠) التى ألقاها بنتلى عام ١٦٦٢ ، بتشجيع من نيوتن ، حولت النظرة الجديدة الى العالم الى تأييد الايمان ، لانها أكدت على وحدة الكون ونظامه وعظمته الواضحة أدلة على حكمة الله وقوته وجلاله ٠

لقد كشف نيوتن في كتابه الخالد « المبادىء » عن هذه القوة الخالدة على هذا الكون الكبير ، الذى تفصل بين نجومه وسدمه ومجراته مسافات لا يدركها العقل ، بشريا كان أو الكترونيا ٠٠ مسافات مذهلة تقدر بملايين السنين الضوئية ٠٠ ولكن رغم البون الشاسع ٠٠ تبقى الجاذبية المقدسة رباطا للكون ، ويبقى الايمان بالخالق العظيم تفسيرا حكيما لهذا الرباط المقدس الأزلى ٠

من أجل هذا لم يكن يوم ٢٠ مارس سنة ١٧٢٧ يوم نهاية نيوتن على هذه الأرض ولكنه كان بدء دخوله فى رحاب الخالدين ، فقد عبر البابا ألكسندر عن ذلك بأسطر من الشعر قال فيها : « كانت الطبيعة وقوانينها مختبئة فى الظلام ٠ فقال الخالق : فليكن نيوتن ٠ فاذا بالطبيعة وقوانينها تخرج من الظلام الى النور ! » ٠

وهكذا يتضح مدى ما كان لكتاب « المبادىء » لنيوتن من تأثير فى العقل البشرى ، فقد خلص الانسان من كثير من دواعى الحيرة التى تنتابه كلما فكر فى أسرار الطبيعة المعقدة وألغاز الوجود المبهمة ، اذ علمه أن فى هذا الكون قانونا ونظاما تسير وفقهما الأشياء والأفلاك ٠

●●●

---

(١٠) بويل : روبرت بويل (١٦٢٧ – ١٦٩١) كيميائى بريطانى أول من ميز العناصر والمركبات ، وقانون بويل مؤداه أنه اذا تساوت درجة الحرارة فان تناقص حجم الغاز المضغوط يتناسب مع ازدياد الضغط ٠



(٩) رواح القوانين

مونتسيكيو

روح القوانين
تأليف
مونتسيكيو عام ١٧٤٨ م

أكثر الآثار العلمية تشكيلا للفكر الاجتماعى والسياسى فى العصور الحديثة

لقد كان كثير من النقاد يعدون كتاب « روح القوانين » أعظم المؤلفات التى قادت الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفى من القرن الثامن عشر وحتى الآن . وكان مونتسيكيو جد فخور بكتابه هذا الذى كان يمثل ثمرة أبحاثه طيلة حياته ولذلك حرص على تصديره فى طبعته الأولى بالمثل اللاتينى المشهور "Prolemsine matre creatam" « طفل مولود بلا أم » .
ولقد شرح مونتسيكيو ما يقصده من ذلك فقال ان كتابا يؤلف عن القوانين وروحها يجب ألا يظهر الا فى دولة تتمتع بالحرية الحقة ، فالحرية التى تسود بلدا من البلاد هى شرط أساسى لصدور مثل هذا الكتاب اذ هى بمثابة الأم التى تؤدى الى نشأة هذه المؤلفات ورعايتها ، ولكن كتاب روح القوانين « بلا أم لانه ألف فى فرنسا التى لا تتمتع – فيما يرى المؤلف بأية حرية . ولكن لفيفا من النقاد يعتقد ان مونتسيكيو أراد بكتابته هذا

المثل الفخر بكتابه ، اذ أراد من ذلك انه لم يترسم فيه خطى أى مفكر أو فيلسوف سابق عليه ·

ويندر أن تجد مؤلفا يمثل ثمرة حياة علمية بأكملها مثل كتاب روح القوانين الذى يمثل حقا بالنسبة لصاحبه كتاب العمر · حقا آن مونتسكيو قد ألف مؤلفات لا حصر لها قبل تأليفه روح القوانين ، ومن بينها مؤلفات شهيرة اقترن بها اسم مؤلفه مثل « رسائل فارسية » و « ملحوظات عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » وخطبة الافتتاحية فى برلمان بوردو ورواياته وقصصه الى آخر كل ذلك ، ولكن كل تلك المؤلفات كانت مقدمة لذلك السفر الكبير الذى أزمع تأليفه والذى سلخ فى كتابته أربعة عشر عاما أو من سنة ١٧٣٤ حتى سنة ١٧٤٨ · وتقول فى هذا الشأن مدام دى لامبير التى كانت صاحبة منتدى أدبى مشهور فى القرن الثانى لحماية الأدباء والعلماء والمفكرين وتشجيعهم والتى كانت بمثابة أم روحية لمونتسكيو ، ان مونتسكيو لم يفعل بمؤلفاته السابقة على روح القوانين أكثر « من افساح الطريق أمام مشروع كان من شأنه أن يخلد اسمه ويرفعه مبجلا على ممر القرون المستقبلة » ·

ولما كان كتاب روح القوانين يدور ــ كما سنرى ــ حول القوانين والعادات والتقاليد التى تسود المجتمعات المختلفة ، ولما كان مونتسكيو يعلم تمام العلم أنه بهذا الكتاب يقوم بفتح جديد فى باب الدراسات الاجتماعية والسياسية والقانونية فانه لم يقتصر على قراءة المؤلفات القديمة والحديثة التى رأى فيها فائدة لموضوع كتابه الكبير ، بل رأى أن يتبع ذلك بزيارات يقوم بها للمجتمعات الأدبية المختلفة حتى يرى التباين بين طبائع المجتمعات المختلفة رؤيا العين ويلمسه « على الطبيعة » فزار النمسا وايطاليا وألمانيا وانجلترا ، حتى يكون على بينة فى كتابة مؤلفه ·

واذا كانت مؤلفات أى مؤلف تعكس فى ناحية من نواحيها على الأقل الظروف الاجتماعية والسياسية ، بل والعائلية التى كانت تكتنف حياة صاحبها ، فان « روح القوانين » يعد أصدق مرآة للظروف التى كانت تحيط بصاحبه فى حياته العائلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية · ولهذا سنبدأ موضوعنا بملخص لحياة مونتسكيو ثم ننتقل بعد ذلك الى تحليل كتاب روح القوانين · وأخيرا سنعرض للأثر الكبير الذى تركه هذا المؤلف الضخم وآراء العلماء فيه ·

● حيـــاة مونتسكيو ومؤلفـــاته

ولد شارل دى سيكوندا بارون دى لابريد ودى مونتسكيو ، فى « لابريد » بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتانى الفرنسية فى ١٨ يناير

١٦٨٩ ، وينتمى لأسرة ذات تاريخ طويل فى خدمة البلاط الفرنسي ولقد ورث لقب البارونية عن جد له ، اذ كانت التقاليد تقضى باطلاق هذا اللقب وغيره من الألقاب الأخرى كالامارة والدوقية على جزيرة أو مقاطعة أو مدينة او قرية أو اقطاعية ، كما ورث عن أجداده لقب الرئيس القضائى لبرلمان جيين ، ذلك ان فرنسا طوال العصور الوسطى وحتى قيام ثورتها المشهورة كانت مقسمة الى مقاطعات ، لكل منها برلمان له اختصـاصات تشريعية وقضائية ، وكان للبرلمان رئيس أعلى يتلوه فى الترتيب رئيس «ذو قلنسوة» وهو شعار للرأس كان يلبسه القضاة أثناء تأدية وظيفتهم كما كان يلبسه كبار الموظفين • وكانت وطنية الرئيس ذى القلنسوة تورث ، شأنها فى ذلك شأن كثير من الوظائف التى تباع وتشترى وتورث وتوهب مثلها فى ذلك كمثـل الأموال العقـارية والمنقولة ، وقد دافع مونتسيكيو عن بيع المناصب باعتباره « عملا حسنا فى الدولة الملكية ، لانه يجعل من واجب أبناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التى قد لا يحصلون عليهـا عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها » • وقد ورث مونتيسكيو هذا اللقب عن عمه جان باتست الذى كان قد ورثه بدوره عن جد مونتسيكيو •

وتربى مونتسيكيو فى مدرسـة كان يشرف عليهـا جماعة تسمى جماعة الخطابيين وهى جماعة ذات نزعات متحررة تجديدية ، تعنى أشد العناية بتدريس أصول الخطابة والبلاغة والتاريخ • ومن هنا نفهم سر ولع مونتسيكيو بالتاريخ • وقد حصل بعد دراساته الابتدائية والثـانوية على ليسانس فى القانون من جامعة بوردو ثم ذهب الى باريس ليمرن على مهنة المحاماة ، وهناك اتصل بالأوساط والمنتديات العلمية وسيدات المجتمع الرفيع مثل مـدام دى لامبير ، ثم فنتيل والأب سان بيير وقرأ « رحلة شاردان » فى بلاد الفرس ثم « ألف ليلة وليلة » وهو الكتاب الذى ترجمه جالان •

وكان غرام مونتسيكيو فى الفترة السابقة على تأليف « الرسائل الفارسية » بالعلوم والرياضيات لا يعرف حدودا لاسيما بعد أن انضم لاكاديميتى بوردو عام ١٧١٦ حيث حمل على تقييد حرية الفكر والبحث وابداء الرأى وفعلا أنشأ معملا بالأكاديمية وبدأ يجرى تجارب على الحيوانات بغية هدم نظرية الحيوانات الآلية التى سادت القرن السابع عشر وهى النظرية التى كانت تذهب الى أن الحيوانات لا نفوس لها وانها مجرد آلات متقنة الصنع فلا تتألم ولا تشعر كالانسان •

على أنه كان معجبا بالقرن السابع عشر بحسبانه قرن العلوم قبل أن يكون قرن الآداب ، اذ كان يرى فيه قرن جاليليو وتورشلى وديكارت (العالم لا الفيلسوف) وباسكال (العالم لا الأديب) وهويخبز ونيوتن ، لا قرن كورنى وراسين وموليير الأدباء • ولقد أفاد مونتسيكيو عن دراسة

العلوم والتجارب العلمية اذ ردت اليه ايمانه بالله بعد أن كان يعتقد أن الدين وهم وخيال فى خطاب صدر منه عام ١٧١٦ عن سياسة الرومان ازاء الدين ، ويقول فى هذا المقام : « ان العجب يملأ الفيلسوف كما تملأه عظمة الله عندما يدرك كيف تعمل عضلة واحدة من العضلات » ثم يشير الى القدرة الجبارة التى تنظم عمل الجسم وما به من شرايين وأورده وأعصاب وغدد ... فالدراسات التشريحية التى أجراها مونتسيكيو قد لعبت أكبر دور — فيما يرى النقاد — فى تشكيل الفكر الدينى عند مونتيسكيو .

ولقد لجأ مونتسيكيو للدراسات العلمية والتشريحية ليفهم أسس السلوك التى تنبنى عليها العبادات والتقاليد وهى التى سيستعين بها على تفسير كثير من الظواهر التى تعرض لها فى كتابه الكبير « روح القوانين » وكتابه عن « الرسائل الفارسية » سنة ١٧٢١ كان دراسة للعادات والتقاليد الشرقية ومقارنتها بالتقاليد الغربية وكان هو الآخر بمثابة مقدمة للكتاب الذى كان يزمع تأليفه ، اذ ألف فى نفس الفترة كتاب ملحوظات عن الثروة وأسبابها . وهو فيما يرى كثير من النقاد « الأصل البعيد » لروح القوانين .

وفى عام ١٧٢٥ خطب وهو رئيس لبرلمان بوردو خطبة افتتاحية كان لها أثر كبير فى الأوساط القانونية والسياسية ، اذ حمل على الاتجار بالمناصب القضائية وعلى جهل القضاة ، وعدم نزاهتهم وطالب بسن قانون واضح عام لفرنسا يطبق على الناس جميعا بلا تفرقة حتى يطمئن المتقاضون. ذلك أن فرنسا فى تلك الفترة لم يكن يسودها قانون عام شامل بل كان القاضى فى كل منطقة يحكم حسب عادات وتقاليد فى شىء كبير من حرية التقدير مما أدى الى فساد العدالة ، كما كانت هذه العادات والأعراف مختلفة من مكان لآخر وترجع الى أصول متباينة ، ونقد مونتسيكيو فى خطبته بطء القضاء وتأخير البت فى القضايا « من حفيد الى حفيد حتى يقضى على آخر فرد فى أسرة تعسة » . وكان لهذه الآراء النقدية وأمثالها مما كانت تطفح به كلمات مونتسيكيو سواء فى خطبته البرلمانية أو فى أحكامه أثر جبار فى توجيه أذهان العلماء والمفكرين الى اصلاح القضاء الفرنسى ، حتى أن برلمان بوردو مكث عدة سنوات يفتتح جلساته بقراءة خطبة الافتتاح التى ألقاها مونتسيكيو سنة ١٧٢٥ . وكل ما تم من اصلاحات قضائية ومن صدور قانون نابليون الفرنسى بعد ثورة ١٧٨٩ كان من بين الأفكار الجديدة التى نادى بها مونتيسكيو .

ومما يذكر ان مونتسيكيو كان على اتصال وثيق بالعلماء والأدباء المعاصرين له سواء فى فرنسا أو فى الدول الآخرى من أمثال ريامير

وديدرو (١) وفولتير وميران وبيل وموبرنوى ، كما أصبح صديقا حميما للفيلسوف المشهور هلفسيوس (٢) وفنتيل ونشأت صداقات بينه وبين الفيلسوف السياسى بفندورة أثناء زيارته لألمانيا عام ١٧٢٩ . كما اتصل بهيوم و ولاس و لوق و نيوتن أثناء زيارته لانجلترا عام ١٧٢٩ ٠

● الكتـــاب

لقد رجع مونتسيكيو فى تأليفه لهذا الكتاب الى جانب مشاهداته ومحاوراته مع عدد لا يحصى من المفكرين الى عدد ضخم من المؤلفات نخص بالذكر من بينها كتابى «الجمهورية» و «القوانين» لأفلاطون ، و «السياسة» لأرسطو ، و « الحيوات والأعمال الأخلاقية » لبلوتارخس ، و « الأمير » لميكافيلى ، و « خطاب سياسى » عن العقد الأول لحكم تبت ليف لتفس المؤلف وكتاب « المدينة الخيالية » لتوماس مور ، و « فى المواطن » لهوبس و « بحث عن الحكومة المدنية » للوقه ، و « فى القانون الطبيعى وقانون الأمم » لبوفندرون ٠٠٠ وهذا الكتاب قيل كما سبق أن أشرنا الى ذلك استغرق حياة مونتسيكيو بأكملها اذ يقول المؤلف بعد أن انتهى من تأليفه « اننى أستطيع القول باننى استغرقت فيه حياتى كلها ، اذ عندما انتهيت من دراساتى القانونية وضعته وسط مؤلفات القانون فبدأت أبحث فى تلك المؤلفات عن روح القانون ، فأجهدت نفسى ولم أصنع شيئا ذا قيمة ومنذ عشرين عاما اكتشفت مبادئى وهى جد بسيطة ٠ ولو أن مؤلفا غيرى قام بنفس الجهود لخرج بانتاج أفضل ولكننى أعترف ان العمل فى هذا الكتاب كاد يقتلنى ، اننى اريد أن أستريح ولن أعمل شيئا بعد ذلك » ٠ وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث ٠ وكان يقول : « الدراسة بالنسبة لى هى خير علاج لكل خيبة أمل فى الحياة ٠ ولم أجد ضيقا الا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة » ٠

ويقول استاروبنسكي معلقا على هـذا القول ان حيـاة مونتسيكيو السابقة على تأليف روح القوانين كانت موجهة نحو هذا الذى كرس له

---

(١) ديدرو : (١٧١٣ ــ ١٧٨٤) فيلسوف فرنسى وشخصية بارزة فى عصر التنوير ٠ أنشأ أول دائرة للمعارف ٠

(٢) هلفسيوس : (١٧١٥ ــ ١٧٧١) فيلسوف وموسوعى فرنسى ٠ ذهب الى ان الناس جميعا ذوو قدرات متساوية بطبيعتهم ، ثم تعمل ظروف التربية على تفاوتهم ٠

كل جهوده والذى ملأ عليه حياته ، فهو قد طبق قول المفكر والفيلسوف الانجليزى جون لوقه الذى قال « ان الانسان يجب عليه أن يفقد نصف وقته لكى يستطيع أن يفيد من النصف الآخر » اذ قضى أوقاتا ثمينة فى التردد على المنتديات والملاهى فى الرحلات والمناقشات والحوار واستقاء المعلومات بالطريق الشفوى وعن طريق الرسائل وقام بكتابة القصص .. كل ذلك كان يمثل نصف وقته الذى « اضاعه » لكى يفيد من النصف الآخر بتأليفه كتاب « روح القوانين » . ولقد فقد مونتسيكيو بصره كله تقريبا أثناء تأليف هـذا الكتاب مما اضطره فى النهاية الى املاء الأجزاء الأخيرة منه .

وكان كلما كتب فصلا أو جزءا عرضه على أصدقائه ولاسيما مدام دى لامبير التى استشارها فى معظم أجزاء الكتاب ، كما كان يستشير الوزير الأديب دأرجنسون والأب جاسكو . وأخيرا ظهر الكتاب كاملا فى جنيف سنة ١٧٤٨ فى مجلدين من القطع الكبير .

وما أن ظهر « روح القوانين » حتى أحدث ضجة كبرى اجتاحت فرنسا من أقصاها الى أقصاها فانقسم الفلاسفة ورجال الفكر والدين بين مؤيدين لآرائه ومعارضين لها ولكن رجال الدين على العموم على اختـلاف مذاهبهم قد نقدوا الكتاب نقدا مرا ، لان ما ورد به من نظريات تتعلق بنشأة الفلسفة والدولة وأثر النظم السياسية والهيئة الطبيعية على نشأة الأديان وما تنادى به من نظم .. كل تلك النقاط كانت ـ فيما يرى رجال الدين ـ تتعارض مع ما ورد فى الكتاب المقدس . ولا نكاد نجد أديبا أو فيلسوفا فى فرنسا الا وعلق على هذا الكتاب ، اما بالنقد الموضوعى أو بتحبيذ ما ورد به من آراء أو بالجملة عليه ، مما اضطر مونتسيكيو عام ١٧٥٠ الى اصدار رده على تلك الانتقادات فى كتاب عنوانه « دفاع عن روح القوانين » . ولقد راقبت الكنيسة الكاثوليكية فى روما الكتاب فى شيء كبير من الاعتدال ، وفحصه علماء السربون بدون أن يصدروا حكمهم عليه رسميا . وأخذ ديبان الملتزم العام للضرائب فى فرنسا فى دحض ما ورد به من آراء اقتصادية . وفى سنة ١٧٥١ وضعت السلطات الدينية كتاب « روح القوانين » فى القائمـة السوداء أو قائمـة الكتب المحرمة قراءتها .

●●●

ويحتوى الكتاب على تصدير يأتى بعده واحد وثلاثون بابا أو جزءا . وكل جزء مقسم الى فصول وتبلغ الفصول فى مجموعها ستمائة وخمسة .

وقد وضع المؤلف لكتابه عنوانا طويلا يعطى للقارىء ملخصا لما ورد فيه . فقد كانت العناوين على أيامه توضيحية حقا ، دقيقة غالبا ، ولذا سمى كتابه « روح القوانين » أو « العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة وغيرها » . وفى التصدير يتوسل مونتسيكيو الى القارىء ألا يتسرع فى الحكم على الكتاب بناء على نظرة خاطفة لبعض ما ورد به « ان لى رجاء أخشى ألا يتحقق ، وهو ألا يحكم قارىء عابر على عمل استغرق عشرين عاما ، وأن يقبل القارىء هذا المؤلف أو يرفضه جملة ولا يقتصر على قبول او رفض عدة جمل ، لان الانسان اذا أراد أن يفهم فكرة المؤلف فان يستطيع الوصول اليها الا اذا فهم فكرة الكتاب » .

ثم يقول : « لقد خبرت النـاس أولا ووجدت فى هـذه الأشـكال المتباينة ، بشكل لا نهاية له ، من العادات والقوانين أن النـاس ليسوا مساقين بمحض أهوائهم . فوضعت المبادىء العامة لسلوك الناس ووجدت الحالات الضرورية تخضع لها فى يسر ، كما وجدت ان تاريخ جميع الأمم ليست الا نتائج لتلك المبادىء العامة وان كل قانون خاص مرتبط بقانون أخر او يعتمد على قانون آخر أعم منه . ولمـا اتجهت لدراسة العصور القديمة بذلت الجهد فى استخلاص مبادئها حتى لا يشكل على الأمر فأعتبره من قبيل المتشابهات حالات مختلفا بعضها عن بعض ، وحتى لا تغيب عنها الفوارق الفاصلة بين حالات قد تبدو متشابهة ، اننى أستخلص مبادئى قط من آراء ظنية وانما من طبيعة الأشياء » .

وبعد التصدير تأتى الأجزاء أو الأبواب الواحدة والثلاثون وهى التى سنقسمها وفقا لرأى النقاد الى ثلاثة أقسام : القسـم النظرى ، والقسـم العملى ، ثم أخيرا قسـم نسـميه المتفرقات ويشمل بعض أجـزاء متفرقه وموضوعات خاصة .

● بحث فى تصنيف القوانين

القوانين : ويعالج المؤلف فى هذا القسم موضوعات مجردة . ففى الجزء الأول يتكلم عن القوانين على وجه العموم فيقول : « ان القوانين فى أوسع معانيها عبارة عن علاقات ضرورية تشتق من طبيعة الأشياء . ولكل الموجودات قوانينها بهذا المعنى ، فللآلهة قوانينها وللعالم المادى قوانينه وللعقول المتعالية على الانسانية والحيوانات قوانينها وللانسان قوانينه » .

والقوانين أيا كان نوعهـا ليست الا علاقات بين قوى متفاعله يؤثر في بعضها بعض ، ويتـأثر بعضها ببعض وهـذه القوى على نوعين ، فزيائية ومعنوية أو أخـلاقية فالطبيعـة ومبـادىء الحكومات والتعليم والضرائب والمناخ وعادات الأمة وتقاليدها وعدد السكان والدين السائد ـ كل تلك قوى تتفاعل والقوانين ليست شيئا آخر الا العلاقات التى تنتج عن ذلك التفاعل بشكل ضرورى · ويحمل مونتسيكيو حملة شعواء على الفلاسفة الذين أخضعوا القوانين والظواهر التى تسود العالم لقدرية عمياء ، اذ كيف يمكن أن نتصور أن تخلق مثل هذه القدرية موجودات مفكرة ، وهناك اذن عقل مبدئى وهو الله والقوانين عبارة عن العلاقات التى توجد بينه وبين الموجودات المختلفة فيما بينها وبين بعض ، فعلاقات الله بالكون تتلخص فى انه خلقه وفق قواعد وضعها هو وهو يحفظه ويصونه وفق نفس القوانين التى خلقه بمقتضاها ، والعالم المادى والحال هذه مسود بقوانين لا تتغير لانها أساس وجوده واستمراره ، أما الموجودات العاقلة فتخضع لنوعين من القوانين نوع طبيعى وهى القوانين التى تشـتق من طبيعـة تكوين تلك الموجودات مباشرة وهى تلك القوانين التى كانت تسود الانسان البدائى قبل تكوين المجتمعات لان مونتسيكيو كان يعتقد كأصحاب المذهب التعاقدى ان الانسان قبل تكوين المجتمعات قد مر بمرحلة طبيعية وكان فى هذا متأثرا بهوبس Hobbes ولون على وجه الخصوص ، ففى هذه المرحلة مثلا كان الخوف يسيطر على الانسان وكل انسـان كان يشعر انه أقل من الآخر وبذلك لم يكن بين الانسان وأخيه أية نزعات عدوانية ، كما كان يسيطر على الانسان نزعة البحث عن الطعـام والمحافظة على حيـاته والانجـذاب الجنسى ·· كل تلك تمثل عينـات من القوانين الطبيعية ، ويبـدو أن مونتسيكيو كان يقصد من القوانين الطبيعية تقريبا ما نسميه اليوم الدوافع الغريزية · أما النوع الآخر من القوانين فهو القوانين الوضعية التى يضعها الانسان لنفسه بعـد تكوين المجتمعات ، واذا كانت القوانين الطبيعيـة مفروضة على الانسان لانه ليس مصدرها فان القوانين الوضعية لما كانت صادرة عنه فانها متبعثرة حسب ظروف كل مجتمع ، وهذه القوانين على أنواع فمنها قانون الأمم الذى ينظم العلاقة بين المجتمعات·والقانون السياسى الذى ينظم شئون الحكم ، والقانون المدنى الذى ينظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ·· الخ ··ولما كانت القوانين ليست شيئا آخـر الا العـلاقات التى تربط العقل الأول أو الله بالموجودات وتربط الموجودات المختلفة بعضها ببعض فان « روح القوانين » يتلخص فى البحث فى العوامل التى تؤدى الى تغيير هذه العلاقات سواء بين الخالق والمخـلوقات أو بين المخـلوقات بعضها وبعض من جماعة لأخرى ومن عصر لآخر ·

● الأسس التى ترتكز عليها القوانين

ولقد بحث مونتسيكيو فى فلسفة السابقين والمعاصرين فلم يجد حلا يشفى غلته فوجد خليطا من المذاهب والآراء كما وجد معظم المؤلفين ينظرون للموضوع من زاوية ضيقة بدون المـام شامل به ، فعلماء القـانون وعلى رأسهم الرئيس داجسوا الفرنسى يذهبون الى أن القوانين تصدر عن فكرة أو فلسفة خاصة لسلطة عليا متحكمة فى المجتمع ومشبعة بتلك الفكرة ، والقانون الوضعى ليس فى هذا المعنى الا تعبيرا عن ارادة الله .

وقريب من هذا ما ذهب اليه سبينوزا Spinoza الفيلسوف الهولندى المشهور من ان العالم يسير بالقضاء والقدر وان كل ظواهر هذا العالم فيزيقية كانت أم انسانية انما تعتمد على الارادة الالهية ، ولم تكن مثل تلك التفسيرات لتروق فى رأى مونتسيكيو الذى كان مشبعا بالروح العلمى والذى كان يهدف الى ايجاد وتفسير علمى لاختلاف القوانين ، أى تفسير يقوم على منهج علمى يستند الى المشاهدة والتجربة والاستقراء ، فى حين أن هذه التفسيرات كانت تعتمد على أسس دينية ميتافيزيقية غامضة والى جانب هذه المذاهب الدينية وجد مونتسيكيو فريقا من رجال السياسة والقانون يستندون الى أسس أخـلاقية وذلك مثـل جروسيوس وبفندورف وباربيراك ، ويذهب هؤلاء الى أن فكرة العدل سابقة على كل قانون وصفى ، فهناك نموذج من العدالة وهو نموذج مثالى يرجع اليه كل المشرعين فى تشريعاتهم ، وهـذا النموذج المثالى ليس مصدره الانسان بل هو مفروض على الانسان ، وهو يتكون من الحقوق والالتزامات اللازمة لتنظيم العلاقات بين الأفراد الكائنين فى مجتمع واحد ، ولتنظيم العلاقات بين المجتمعات المختلفة ، وهذا النموذج هو ما يسمى بالحق الطبيعى . والانسان يشعر بهذا الحق الطبيعى بشكل تلقائى كأنما ولد الانسان مزودا بحاسة تجعله يفرق بين العدل والظلم وفقا لهذا القانون . وهذا القانون خالد أبدى أزلى لا يتغير بتغير الزمان والمكان وبناء على ذلك تصبح مسـألة تفسير القوانين مسـألة بحث مدى التطابق بين القوانين السائدة فى المجتمعات المختلفة والقانون الطبيعى . ولقد تأثر مونتسيكيو بهذه النظرية ردحا من الزمن ولكنه وجدها هى الأخرى نظـرية ميتافيزيقية لا يؤيدها الواقع لانهـا تتعارض مع فكرة الصيرورة ولا تفسر كيف ان فكرة العـدل تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر .

●●●

واذا كانت المذاهب السابقة قد فشلت فى ضم مونتسيكيو الى صفوفها فان ثمة عددا من المؤلفين بمثابة نور أدى بمونتسيكيو الى المنهج العلمى السليم لدراسة مشكلة القوانين فى أصلها وروحها وأول هؤلاء العلماء هو الايطالى جرافينا Gravina الذى كان ينصح الباحثين فى الدراسات القانونية بأن يضعوا فى اعتبارهم ان المشرعين عندما يشرعون انما يأخذون فى اعتبارهم الأول اختلاف الشعوب من حيث العادات والتقاليد التى تسودها والوسط الجغرافى الذى تعيش فيه ، والثانى هو الفيلسوف الألمانى أوتو افرارد Everard الذى نادى بضرورة الابتعاد عن التفسيرات التوكيدية والبحث عن « دوافع القانون » التى تتلخص فى فائدة الدولة وعقلية الشعوب والعادات والأفكار السائدة فيها والعدالة الطبيعية » . أما الثالث فهو اللورد الانجليزى بولنجبروك Bolingbroke الذى قال بضرورة مراعاة الأخلاق والعادات والتقاليد والمناخ والروح العام فى كل دولة عند التشريع لها . وكان ان انضم مونتسيكيو الى رأى هؤلاء العلماء . وبدأ يبحث عن سر ائتلاف القوانين الوضعية قاصرا على بحثه على القوانين الوضعية مقتصرا فيها على القوانين السياسية والمدنية ، أما قانون الأمم الذى ينظم علاقة الدول بعضها ببعض فانه ثابت لانه يرتكز على ركيزتين : الأولى ضمان السلام بين الأمم والثانية ضمان الاستقرار والبقاء لكل أمة . ولكن ما هى العوامل التى تتوقف عليها القوانين السياسية والمدنية السائدة ، فى كل مجتمع ؟ ثمة — فيما يرى مونتسيكيو — فئتان من العوامل : عوامل أخلاقية أو اجتماعية تنحصر فى العامل الأخلاقى الأول وهو شكل الحكومة الذى يتخذه المجتمع ، وعوامل فيزيقية تنحصر فى العامل الفيزيقى الأول وهو المناخ الذى يسيطر على الاقليم ثم تأتى بعد ذلك بقية العوامل الأخلاقية والفيزيقية لكى تدور حول هذين العاملين الرئيسيين ، فالقوانين تتعلق تعلقا ضروريا بنوع الحكومة السائدة والمبدأ الذى تقوم عليه .. كما تتعلق بالعوامل الفيزيقية كالمناخ ونوع الأراضى والموقع والمساحة التى يشغلها المجتمع .. كما تتعلق بدرجة الحرية التى يمنحها دستور الحكم بالدين السائد بين السكان وميول الشعب وثروته .. كما تتعلق أخيرا بعضها ببعض (أى كما تتأثر القوانين بهذه العوامل تتأثر كذلك بعضها ببعض) وبالمصدر الذى صدرت عنه وغاية المشرع من سنها والموضوعات التى تنظمها ولا تؤثر هذه العوامل على القوانين بدرجة واحدة، بل بدرجات متفاوتة ، فالعوامل الأخلاقية تؤثر بدرجة أكبر من العوامل الفيزيقية ، ذلك « ان العوامل الأخلاقية — فيما يرى مونتسيكيو — تشكل الطباع العامة للأمة وتحدد نوع روحها العام بدرجة أكبر مما تفعل العوامل الفيزيقية » ، ويؤكد الفيلسوف هذا المعنى قائلا : « ان النظم والعادات

والتقاليد والأخلاق تستطيع أن تتغلب بسهولة على قسوة المناخ » ٠
والعوامل الفيزيقية والأخلاقية التى تكشف مجتمعا من المجتمعات لا يقتصر تأثيرها على نشأة القوانين ، بل هى تؤثر كذلك على تطورها ونضوجها وتقويتها أو اضعافها ، حتى اننا نجد كل عصر « جيلا من القوانين » يختلف عن جيل العصر السابق أو اللاحق ، اذ ثمة أجيال من القوانين على غرار أجيال بنى الانسان ٠ وكل « جيل من القوانين » ليس بلا شك الا نتيجة لتفاعل كل هذه العوامل وتضافرها ٠

واذا كانت هذه العوامل هى الأسس التى ترتكز عليها القوانين فان مونتسيكيو يتناولها بالتحليل ، كل منها على حدة ٠

● القوانين ونظم الحكم

ويبحث مونتسيكيو هذه النقاط فيقول ان الأشكال التى يمكن أن يتخذها نظام الحكم ثلاثة : جمهورية وملكية وطغيان ٠ وهذا التقسيم كان محل نقد عنيف من العلماء لان الطغيان لا يعد شكلا قائما بذاته ، بل هو شكل ينحدر اليه كل أشكال الحكم اذا تطرق اليها الفساد ، ولكن مونتسيكيو قد فصل بين الملكية والطغيان لكى يحمل حملة شعواء على الحكم الطغيانى بدون أن يسىء مع ذلك الى البلاط الفرنسى الذى كان يقوم على الحكم التحكمى ، والحكم الجمهورى ــ فى رأى مونتسيكيو ــ هو حكم الشعب أو من ينوبون عنه أو جزء من الشعب ، والحكم الملكى هو الذى يتولى الحكم فيه شخص واحد وفق قوانين واضحة الحدود لا يتعداها ، أما حكم الطغيان فهو يقوم على شخص واحد يحكم بلا قانون ولا قاعدة الا أهواؤه وعواطفه ٠ والحكم الجمهورى على نوعين : فاما أن يحكم الشعب أو من يمثلونه وفق قواعد نيابية خاصة تلك هى الديمقراطية وأما أن يكون الحكم فى أيدى فئة من أغنياء الشعب وتلك هى الأرستقراطية ٠ وفى الديمقراطية يستطيع كل شخص وفق قواعد خاصة تمثيل الشعب أو حكم الشعب باسم الشعب ، أما فى حالة الأرستقراطية فان الحكم محصور فى طبقة معينة أو عدة طبقات لا يتعداها وأحسن شكل للحكم الأرستقراطى هو ذلك الذى يقترب قدر الامكان من الحكم الديمقراطى ٠ أما الحكم الملكى فهو الذى يقوم على هيئات تتوسط بين الملك والشعب وتكون لها اختصاصات محدودة تحديدا دقيقا يحد من سلطان الملك ٠٠ ومونتسيكيو اذ يتحدث عن هذه الأنواع من الحكم انما كان يفكر فى الحقيقة فى النظام

الملكي الاقطاعي الذي ساد معظم الشعوب الأوروبية في العصور الوسطى ، حيث كانت هيئات النبلاء والأشراف ورجال الدين والمدن الحرة تحد من سلطان الملك وتباعد بينه وبين الطغيان ، اذ بدون هذه الهيئات يصبح الملك ـ فيما يرى مونتسيكيو ـ لا حدود لسلطاته ولا رادع لتصرفاته . اذ : « لا نبلاء بلا ملك ولا ملك بلا نبلاء ، اذ في هذه الحالة الأخيرة يصبح الملك طاغية أما في حكم الطغيان فان الطاغية يخلق بجانبه بعض الأمراء الكسالى الجهلاء ذوي الشهوات التي لا تحدها حدود » . ومن سمات هذا النظام أن يعين الطاغية وزيرا يحمل الأعباء اسما ، بحيث يسمح هذا النظام للطاغية بأن يفعل كل ما يرضي نزواته ورغباته باسم ذلك الوزير .

والقوانين تحت الحكم الجمهوري ترتكز على التفصيلية لان من يضعون القوانين هم أنفسهم الخاضعون لها والمتحملون لمسئوليتها والتفصيلية هنا تعني التمسك بواجبات المواطن الصالح الشريف أي بتضحية المصالح الفردية ازاء الصالح العام ، أما الحكم الملكي فأساسه الشرف وثقة الشعب في ملكه أما أساس حكم الطغيان فهو الخوف والرهبة. لأن الرعايا ليسوا أحرارا بل هم عبيد أذلاء للطاغية الذي يبقى حكمه مرتكزا على هذه الرهبة من جبروته وسلطانه .

واذا كانت تلك هي الأشغال المختلفة لنظم الحكم فانها تؤثر تأثيرا كبيرا على القوانين المدنية والجنائية والادارية التي تنظم الحياة الاجتماعية ففي قوانين التربية والتعليم يعمل الحاكم على توجيه تلك القوانين بحيث تخدم أغراضه وتربي في مواطنها هذه المبادىء التي يقوم عليها النظام الأساسي أي غرس مبادىء الفضيلة أو الشرف أو الخوف بحسب ما اذا كان النظام جمهوريا أو ملكيا أو طغيانا . وكذلك يؤثر نوع الحكومة في القوانين الأخرى التي لا تتعلم بالتربية والتعليم ، فهو يؤثر على القوانين التي من شأنها أن تطمئن الناس على أشخاصهم وأموالهم حتى تستقر الأمور في المجتمع وحينئذ لابد من سن القوانين الجنائية وانشاء المحاكم ، وهذه القوانين تقوم على عقوبات خفيفة عادة تحت النظم التي أساسها الفضيلة أو الشرف ، أما في النظام الطغياني القائم على الخوف فنجد العقوبات صارمة وحشية غير انسانية . كما يؤدي الشكل السياسي للدولة الى سن قوانين تحمي الفرد من سوء استخدام النظام أو استغلاله ، وذلك فيما عدا النظام الطغياني الذي يخضع الفرد فيه لكل أنواع الظلم والاستغلال بلا ضمان . أما في النظامين الجمهوري والملكي فتسن قوانين تحمي الفرد وحرياته المختلفة ، على انه من الملاحظ ـ فيما يرى مونتسيكيو ـ انه كلما كانت الحكومة ديمقراطية تقوم باصلاحات يشعر بها الأفراد ، تقبل هؤلاء بسهولة ما تفرضه عليهم من أعباء مالية حتى تستطيع أن تضع ما يأتي كقاعدة

عامة : « فى مقدور الحاكم أن يجمع من الضرائب مقدارا يتناسب طرديا مع حرية المحكومين » .

ويتعلق بشكل الحكومة أيضا ما سماه مونتسيكيو قوانين الترف . فالترف فى أية دولة من الدول انما يكون نتيجة للتفاوت بين الثروات . فالدولة التى تكون الثروة فيها موزعة توزيعا عادلا بلا فوارق كبيرة لا يكون ثمه ترف يأتى من تمتع الانسان بعمل الآخرين ، وعلى ذلك نجد أن الترف قليل أو معدوم - فى رأى مونتسيكيو - فى الدول الديمقراطية أو الجمهوريات التى تكون الثروة فيهـا موزعة توزيعـا عادلا ، وعلى ذلك فالجمهوريات المثاليةهى التى يسودها حسن التوزيع وعدالته ، وهذا هو السر فى أن الأفراد فى كثير من الجمهوريات القديمة كانوا يطالبون دائما باعادة توزيع الثروات .

وهكذا اذا رحنا نبحث فى جميع أنواع القوانين التى تسود الدولة لوجدناها متعلقة تعلقا وثيقا بالنظام السياسى القائم فيها على أن النظام السياسى ككل شيء أخر قابل للفساد اما بطول « الاستعمال » أو بفساد القائمين عليه وحينئذ ينتشر الفساد والرشوة ، « الملكية تتحول بالفساد الى طغيان حاكم واحد والارستقراطية الى طغيان عدة أفراد بينما يؤدى فساد الديمقراطية الى طغيان الشعب » . فالسبب الأول مثلا فى فساد الديمقراطية هو أن يفقد الناس روح المساواة التى يجب أن تسود بينهم ، ومن ناحية أخرى تفسد الديمقراطية اذا زاد التمسك بروح المساواة عن حدود معينة ، اذ فى هذه الحالة سيعتبر كل انسان نفسه مساويا لرئيسه فى العمل وبذلك يرى من الخطأ أن يتلقى أول مرة منه وأن من حقه أن يعصيه ، فستضيع الثقة بين الناس وتضطرب المقاييس وتنتشر الفوضى .

● ● ●

واذا كان القسم الأول يعـالج القوانين وأنواع الحكومات وعلاقتها بالقوانين السائدة فى مجال التعليم والعقوبات والترف ، ثم فساد الأنواع المختلفة للحكومات ، فان القسم الثانى يعالج مسائل هى بطبيعتها أقرب الى العمل منها الى النظـر فيعالج مشكلة الحريات السياسية وأثرها على القوانين ومشـكلة الرق السياسى والاسـترقاق المنـزلى وقوانين الدفاع والهجوم فى الدولة ، وأثر المناخ فى تشـكيل القوانين ، وكذلك الدين وما سماه الروح العام للمجتمع ... وهى موضوعات أقرب الى مشكلة تطبيق القوانين منها الى فلسفة القوانين كما أن موضوعات القسم الأول تميل أكثر الى وصف ما هو كائن فعلا بينما موضوعات القسم الثـانى

لا تقتصر أحيانا على ما هو كائن بل تتبعه بتوجيهات عملية تطبيقية · على أن هذا القسم من ناحية أخرى يعد استمرارا للقسم الأول من حيث أن كلا القسمين يبحث فى موضوع واحد وهو العوامل المختلفة التى تشكل القوانين فى كل مجتمع من المجتمعات · وسنتناول موضوعات القسم الثانى فى شىء من التفصيل لانها أهم ما يتناوله الكتاب ·

● الحرية السياسية

يتكلم مونتسيكيو عن علاقة القوانين بحالة الدفاع عن الدولة وحالة الهجوم وأهم ما يذكر له هنا هو دفاعه عن الحرب والغزو ويوصف انهما وسيلتان من وسائل الأمة على بقائها وضمان استمرار حياتها ، فهما اذن وسيلتان مشروعتان « ان حق الدفاع الطبيعى قد ينطوى أحيانا بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل المثال ان حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام » ·

ثم ينتقل بعد ذلك ليبحث فى علاقة القوانين بالحرية السياسية وذلك موضوع من أهم الموضوعات التى تعرض لها اذ خصص له ثلاثة أبواب طويلة كاملة · والحرية فى رأيه لا تعنى ان يفعل الفرد كل ما يريد ، ففى المجتمع الذى تسوده قوانين لا يمكن أن تعنى الحرية الا القدرة على عمل ما يجب أن يريده الفرد ، وعدم الزامه بفعل ، لا ينبغى أن يفعله ». وأكبر ضمان للحرية السياسية هو فى مبدأ تقسيم السطات الى ثلاثة سلطات : تشريعية وتنفيذية وقضائية بحيث تستقل كل منها بالتشريع وتنفيذ القوانين والقضاء على التوالى ولا تتدخل فى شئون السلطتين الأخريين · ويعزى الى مونتسيكيو الفضل الأول فى نشر هذا النظام الذى نقله عن النظام السياسى الانجليزى مع بعض اصلاحات أدخلها عليه ، فأصبح مبدأ فصل السلطات بفضل مونتسيكيو السنة الأولى لكل حكم ديمقراطى فى العصور الحديثة · فالحرب السياسية يجب أن تكون مقيدة وفى حدود القوانين السائدة وذلك « لاننا لو أبحنا لكل مواطن أن يفعل كل ما يريد أو ما تحرمه القوانين فانه لن يكون حرا ، لأن الأفراد الآخرين سيكون عندهم نفس هذه السلطة » ·

ولكن اذا فرض وتحققت الحرية فى شعب من الشعوب فكيف السبيل الى ضمان بقائها واستمرارها ؟ « ان التجربة الخالدة قد دلت

على أن ثمة ميلا لدى كل رجل ذى سلطة الى اساءة استخدام هذه السلطة ، ومن جهة أخرى دلت التجربة على أنه لابد فى المجتمع من رجل أو سلطة تتولى شئون الحكم . وليس والحال هذه ثمة ضمان لتحقيق الحرية أو استمرارها في أى من النظم السياسية من ديمقراطية أو أرستقراطية أو ملكية لانها قد يتطرق اليها الفساد . فكيف السبيل اذن الى ايجاد نظام سياسى لا يتطرق اليه الفساد ؟ السبيل الوحيد يتلخص فى توزيع السلطات على عدة قوى تتوازن وتتكافأ معها ، اذ لا يوقف السلطة الا سلطة توازنها وتتكافأ معها اذ « لكيلا يستطيع أى ذى سلطة اساءة استقلال سلطته لابد من ترتيب الأمور بحيث توقف سلطته سلطة أخرى تعادلها » . فالسلطات يجب أن تنقسم الى ثلاثة سلطات تشريعية/وتنفيذية وقضائية . وهذه السلطات وان كانت منفصلة فى اختصاصاتها ستكون مضطرة بحكم حركة الأشياء للعمل سويا فى انسجام ووئام . فمونتسيكيو لم يتجاهل كغيره من الفلاسفة طبيعة الانسان بل نظر الى هذه الطبيعة نظرة موضوعية مقدرا بحساب دقيق ما جبلت عليه من شر وخير ونظر الى القوى التى تسيطر على الحياة السياسية ووضع لها توجيها سليما يكفل تعاونها وانسجامها ، ولكى « نصل الى حكومة معتدله لابد من ربط القوى بعضها ببعض والحد من غلوائها وتوجيهها للعمل مع تنظيمها ، أى تقوم بعمل ما يشبه الرافعة فى العالم الفيزيقى حيث نجد قوة فى جانب تعادلها مقاومة فى جانب آخر » .

● « المناخ وعلاقته بالقوانين »

لم يكن مونتسيكيو أول قائل بأثر العوامل الجغرافية على تشكيل العادات والتقاليد والقوانين السائدة فى المجتمع ، بل سبقه الى ذلك كثيرون نخص بالذكر منهم أبقراط فى رسالته « عن الأجواء والمياه والأمكنة » وأفلاطون فى كتاب القوانين وارسطو فى كتاب السياسة وكثير من العلماء الرومان مثل أوميدوس ، وابن خلدون عند العرب . ومن العصور الدينية نجد مالبرانس وبودان الفرنسيين وميكافيلى الايطالى والطبيب الانجليزى الشهير جون أرثيوى . ويبحث مونتسيكيو هذا الموضوع فى أبواب خمسة كبرى من كتاب « روح القوانين » فالعادات والنظم والقوانين تتأثر بالمناخ السائد فى الأقليم ذلك « أن الناس فى المناطق الباردة تقل حساسيتهم لأنواع السرور ، على حين تكبر هذه

الحساسية فى المناطق المعتدلة وتصل الى درجتها العظمى فى المناطق الحارة ٠ وكما نستطيع تمييز أنواع المناخ بخطوط العرض نستطيع بنفس الطريقة أن نميز درجات الحساسية ٠٠٠ ويتبع الألم نفس القاعدة فان الله قد أراد أن يكون الألم متناسبا في شدته مع ما يحدثه من اضطراب فى الجسم ٠ ولما كان من المحقق أن الأجسام الكبيرة والألياف الغليظة للشعوب الشمالية أقل قابلية للاضطراب من ألياف شعوب المناطق الحارة الرفيعة والرقيقة فان نفسية تلك الشعوب الأولى أقل حساسية للألم فالمناخ ذو أثر فيزيقى ضخم لا شك فيه على الأعصاب والعضلات الانسانية ومن ثم على أخلاق الأفراد وتصرفاتهم ٠ والعقل نفسه والانفعالات ترجع الى عوامل فزيولوجية ترجع بدورها الى عوامل مناخية ، وعلى ذلك يجب أن تكون القوانين السائدة فى المجتمعات متناسبة مع الظروف المناخية المختلفة » ٠

ويحاول مونتسيكيو فى عدة فصول طويلة بيان كيف ان للمناخ أثر على كل جزء فى الجسم الانسانى وما به من عصارات وافرازات وأثر ذلك على مزاج الانسان وأخلاقه وعاداته وطباعه « فقوة الناس أو حيويتهم مثلا تكون أكبر فى المناطق الباردة ٠٠ وهذا من شأنه أن يؤدى الى نتائج ضخمة اذ يكون لدى الأفراد ثقة أكبر فى أنفسهم وشجاعة أكبر وشعور أكبر بتفوقهم ورغبة أقل فى الانتقام وتكون لديهم صراحة أكثر وتبسط أقل من الرياء السياسى والشك والخداع ! ولكن هذا فى المناطق الحارة وحرارة الجو تبلغ أحيانا من الارتفاع فى بعض المناطق بحيث يصير الجسم بلا قوة وينتقل ذلك الى العقل نفسه وينتج عن ذلك سلبية الأفراد ، فلا حب للاستطلاع ولا مشروعات ذات قيمة ، مع ميل للكسل وتحمل للعقاب الجسدى الجسمى مع عدم التأثر بالعقاب المعنوى وتأنيب الضمير ، ومع ذلك مع ميل للاستبعاد ومن هنا نرى كيف يرجع مونتسيكيو وجود نظام الرق الى المناخ !

● « الروح العام فى المجتمع »

والروح العـام يتـكون فى المجتمع من تعـادل العوامل الطبيعية والثقافية التى تكتنفه ٠ فالناس يخضعون فى حياتهم لعدة عوامل : المناخ، والدين والقوانين ومبادىء الحكومة السائدة ٠٠ والعادات والتقاليد ، ومن كل هذه الأشياء يتكون الروح العام وكلما زادت قوة أحد هذه العوامل فى أمة من الأمم ضعفت قوة العوامل الأخرى بنفس النسبة ، فمثلا نجد

أن الطبيعة والمناخ يوجهان وحدهما تقريبا حياة المجتمعات البدائية وتسيطر العادات على الصينيين وتسود القوانين فى اليابان ...

وهذا الروح العام بمثابة تيار فكرى عام يسيطر على المجتمع وهو يختلف من جماعة لأخرى ، وفى نفس الجماعة فى فترة لأخرى وفق ما يحيط بالمجتمع من ظروف جغرافية وثقافية ويقول مونتسيكيو بأن على المشرعين أن يراعوا هذا الروح العام فى تشريعاتهم فلا يصدرون من التشريعات ما يتنافى معه لانه يمثل الذوق العام للمجتمع فالاصلاح السياسى والاجتماعى يجب أن يكون متمشيا مع هذا الروح والا فشل واتى بعكس المقصود منه . فاذا وجدت فى المجتمع عادات وتقاليد لم تعد ملائمة فان اصلاحها لا يتم بسن تشريع يحرمها لانها متعلقة تعلقا وثيقا بالروح العام وعلى ذلك سيكون مثل هذا القانون تعسفيا ، انما يتم الاصلاح هنا عن طريق غرس عادات وتقاليد جديدة يوجهها المصلحون ويعملون على نشأتها ونموها وتطورها . « فاذا أراد الحاكم القيام باصلاحات فيجب عليه أن يلجأ للقانون الا فى النواحى المنظمة بقانون ، أما فى النواحى المنظمة بعادات وتقاليد فيجب أن يلجأ فى شأنها الى غرس عادات وتقاليد جديدة » . ولا شك أن العادات والتقاليد تخضع خضوعا شبه تام للمناخ ومن هنا نجد ان ثمة شعوبا تسودها روح المحافظة على التقاليد وأخرى روح التجديد والتغيير بحسب ما يسودها من مناخ ، فالكسل المسيطر على شعوب المناطق الحارة يجعلها تتخذ مواقف سلبية من عاداتها وتقاليدها ومن هنا تنتج عندها روح المحافظة التى تتسم بها على حين يسود التغيير والتجديد المناطق الباردة ويجب أن يلاحظ المشرعون كل تلك الظروف عند تشريعاتهم .

● الدين وعلاقته بالقوانين

وكنا نود أن نعرض لرأى مونتسيكيو فى الدين فى شيء من التفصيل لولا انه قد غلب عليه التعصب الأعمى للديانة المسيحية ضد الاسلام مما باعد بينه وبين المنهج العلمى السليم . فعندما ينتقل الى الكلام عن علاقة الأديان بالقوانين السائدة ، فيدعى أن الديانة المسيحية تتفق مع الحكم الديمقراطى بينما الأديان الأخرى تتفق مع حكم الطغيان !! ويسوق كتعليل لذلك ان المسيحية حرمت تعدد الزوجات ومن ثم سمحت للحاكم بأن يكون أكثر صلة بالناس .

أما الأديان التى تسمح بتعدد الزوجات فانها تؤدى الى قطع صلة الحاكم بالناس ! وهذا هو السبب فى انتشار المسيحية فى أوروبا لأنها تتفق مع النظم الديمقراطية التى تسود تلك القارة بينما انتشرت الأديان الأخرى فى آسيا لانهـا تتفق مع حكم الطغيان السائد فى تلك القارة ، وأخيرا يوازن مونتسيكيو بين المذهب البروتستانتى والمذهب الكاثوليكى فيذهب الى أن المذهب الكاثوليكى يتناسب مع النظام الملكى بينما يتلاءم البروتستانتى مع النظام الجمهورى ٠

ولما كانت الشعوب الشـمالية فى أوروبا تتميز بروح الاسـتقلال والحرية بقسط أكبر من شعوب جنوب أوروبا فانها لم تتردد فى اعتناق البروتستانتية لانه مذهب يقوم على الحرية أكثر مما تقوم الكاثوليكية ، اذ لا تعرف البروتستانتية التنظيم الكنسى التصـاعدى فى شكله الحاد الصارم كما تعرفه الكاثوليكية ، ولا نعرف تلك الرئاسات التصاعدية التى تنتهى بالبابا ، وكل تلك الصفات تتفق مع النظام الجمهورى ٠ بينما تعلقت دول جنوب أوروبا بالكاثوليكية لانها لا تعرف بالتدرج الكنسى الذى يتناسب مع تدرج الملكيـة والرئاسات التى تسود فيهـا ٠ ثم يدرس مونتسيكيو الشعور الدينى دراسة مستفيضة أدت به الى استخلاص بعض القوانين فهو مثلا يذهب الى أن التعلق بالدين يزداد كلما ازدادت الطقوس التى تفرض على أتباعه لأن كثرة الطقوس تؤكد الصلة بين الفرد والايمان الذى يعتنقه ويستنتج قانونا آخر وهو انه لما كان الناس ميالين بطبيعتهم الى الرجاء أو الأمل المشوب بالخـوف فان الديانات التى قالت بالجنة والنـار والثواب والعقاب فى حياة أخرى قد استهوت الشعوب والأفراد أكثر من الديانات التى لا تقول بحياة أخرى يسودها العقاب والثواب ، ويدلل ذلك بأن شعوب اليابان التى لا تعرف ديانتها الثواب والعقاب فى حياة أخروية لا تتمسـك كثيرا بديانتها اذ تتركها بمجرد التبشير لتعتنق المسيحية أو الاسلام مثلا ٠ وتلك هى بعض أمثلة من بين كثير من الأمثلة التى يبين بها العلاقة بين الدين والقوانين ٠

●●●

ويمثل هذا الأسلوب يتكلم مونتسيكيو عن علاقة القوانين بالأرض والتربة ، ثم التجارة ثم النقود والسكان ، فيدرس علاقة القوانين بهذه النواحى مستنتجا استنتاجات على درجة خطرة من الأهمية : فمثلا اذا كانت الأرض قابلة للزراعة فاننا نجد السكان مشـغولين بمصالحهم الخاصـة ولا يكون لديهم أى اهتمام بتحقيق حريتهم مما يجعلهم أسهل انقياد للحكم الطغيانى ، بينما اذا كانت الأرض جدباء لا يجد السكان ما يشغلهم عن

تحقيق حريتهم ، كما أن هذه الأرض لا تكون عادة مطمعا للغزاة وبذلك تسود عند أهلها الشجاعة والعزة والتمسك بالحرية ٠

●●●

هذا هو ملخص لمحتويات كتاب روح القوانين تعرض فيه مونتسيكيو لكل ما من شأنه أن يؤثر من قريب أو بعيد فى تشكيل القوانين ٠ ولقد كان المؤلف يستعين بمئات الأمثلة من النظم المختلفة التى كانت سائدة عند القدامى ومجتمعات العصور الوسطى والحديثه ليدلل بها على صحة استنتاجاته ٠ فكتاب روح القوانين من هذه الناحية موسوعة كبرى فى شتى العلوم والفروع من قانون وفلسفة واجتماع واقتصاد ، بل وطب وفسيولوجيا ٠٠٠ الى أخر كل تلك الفروع ٠ ولا يسعنا الأن الا أن نتكلم عن أراء العلماء وموقفهم من هذا السفر الضخم الذى يمثل رغم مافيه من تعصب أحيانا ضد بعض الأديان وضد بعض الشعوب مؤلفا كان له من الأثر ما لم ينله كتاب أخر غيره من مؤلفات القرن الثامن عشر على الاطلاق ٠

● أهمية « روح القوانين » فى نظر العلماء

لقد اختلف العلماء ــ كما هى العادة دائما ــ على تقدير آثار مونتسيكيو العلمية ولا سيما كتاب روح القوانين الذى كان المؤلف يستهدف فيه ادخال اصلاحات دستورية وقانونية واقتصادية واجتماعية لا فى فرنسا وحدها بل فى جميع الدول ٠ ولذلك نجد « ميسار » وزير جمهورية جنيف آنذاك والذى لعب دورا ضخما فى سبيل نشر كتاب روح القوانين ، يقول « ان مونتسيكيو بتأليفه هذا الكتاب كان عالميا ، ذا دراية بجميع أقطار وجميع الأزمنة وجميع أنواع الحكم » ٠ ويقول الفرنسى فرنيه Vernet بمناسبة قراءته لروح القوانين مخاطبا مونتسيكيو « انك فرنسى عالمى صالح ، فكم أعطيت للجنس البشرى فى كتابك من دروس !! اننا نجد فى روح القوانين أشياء نافعة بقدر ما نجد من كلمات ، كما نجد أشياء عظيمة وأصيلة ومفيدة للجنس البشرى » ٠ ذلك المفكر الايطالى تشرارى Cerari الذى خاطب مونتسيكيو قائلا : « ان ملاحظاتك صالحة لرفع مجتمعات كل دولة الى مستوى الكمال والسعادة بالقدر الذى يستطيعه كل منها ٠ لقد اكتشفت نظاما وسط الخليط اللانهائى غير المنظم

للأهواء الانسانية . وانك لتوحى الينا بآراء تحمل فى طياتها قدر المستطاع اصلاح الاتصالات وأنواع الخبرة التى تسود كرتنا الأرضية » .

والواقع أن مؤلفات مونتسيكيو على العموم وروح القوانين على الخصوص كانت بالنسبة للعصر الذى فيه أفقر ما تكون نشرا لروح الحرية والمناداة بالاصلاح الاجتماعى ومن هنا كان تقدير معظم المؤلفين لآرائه . لذلك كان اللورد يولكلى الانجليزى يثنى عليه لنقده للدستور الانجليزى ، وهو النقد الذى أدى الى اصلاح كثير من نواحى هذا الدستور وأدى الى تثبيت الحياة الديمقراطية فى انجلترا . ويقول والمبير فى مقدمة الموسوعة « ان روح القوانين » كتاب سيظل أثرا خالدا يشهد لعبقرية مؤلفه وفضيلته وبتقدم العقل البشرى فى قرن سيعد منتصفه فترة خالدة فى تاريخ الفلسفة .

والى جانب ذلك نجد كثيرا من العلماء والمفكرين ينقدون مونتسيكيو. ففولتير بالرغم من ثنائه على روح القوانين فى عدة رسائل ، يحمل على استقراء مونتسيكيو فى كثير من رسائل أخرى ، ثم تحول نقد فولتير الى اطراء فنجده يمتدح « روح القوانين » ومؤلفه فيقول : « ان الانسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسيكيو.

وفى ذات الوقت كان الفلاسفة الناشئون آنذاك مستائين حيث اعتبروا « روح القوانين » كتيبا فى المحافظة على القديم ، واستاءوا ورعه العارض واعتدال اصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح الدينى . وكتب هلفسيوس الى مونتسيكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعى والمصاعب التى تعترضه .

ولكن كل تلك الآراء واشباهها لا يمكن أن تحجب حقيقة لا شك فيها وهو أن الكتاب يعد أولا موسوعة علمية كبرى فى علم الاجتماع الوصفى اذ يصنع فيه مؤلفه وصفا شاملا لمئات العادات والتقاليد والقوانين التى سادت المجتمعات فى شتى عصورها ، كما أنه من أوائل المؤلفات التى أظهرت أن النظم الاجتماعية لا تسير بلا ترتيب ، بل هى تخضع لقواعد وقوانين دقيقة صارمة لا تقل فى وقتها عن القوانين التى تسود العالم المادى فكان مونتسيكيو بهذا المبشر الأول لظهور علم الاجتماع الحديث ، حتى أن مؤلفا مثل اميل لازباكسى قد أطلق على مونتسيكيو اسم « أرسطوا علم الاجتماع » فأثره فى انشاء هذا العلم وفى توجيه المفكرين فيه فى العصور اللاحقة عليه لا يقل بحال ما من رأى لازباكسى

عن آثر أرسطوا فى الفلسفة والفلاسفة . ويقول فاجيه : ان كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسيكيو .

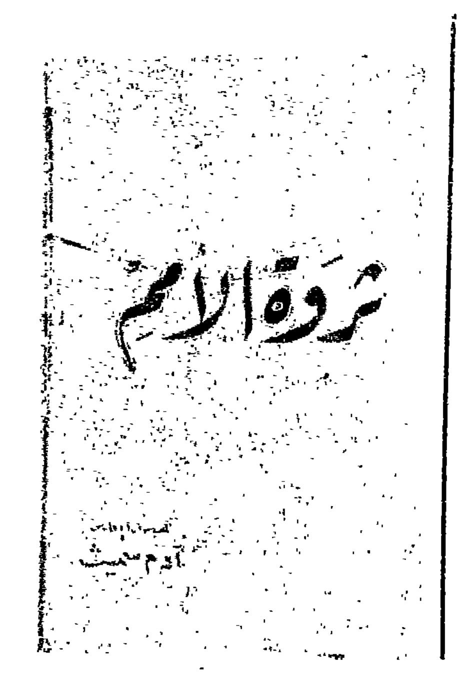
وبعد .. فقد أعتبر كتاب روح القوانين أعظم انتاج عقلى فى القرن الثامن عشر له آثار بعيدة المدى فى التاريخ ، فقد كانت آراء مونتسيكيو فى هذا الكتاب بمثابة ثورة فكرية هائلة فى الفكر السياسى والاجتماعى والفلسفي ... وحسبنا أنه منظر مبدأ السلطات « التشريعية / التنفيذية/ القضائية » الى يومنا هذا .

●●●



(١٠) ثروة الأمم

آدم سميث



ثروة الأمم

تاليف : آدم سميث

عام ١٧٧٦ م

وثيقة هامة فى تاريخ الفكر الاقتصادى لا تدانيها أية وثيقة أخرى

يعتبر آدم سميث (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠) من أئمة الاقتصاد فى القرن الثامن عشر ، وقد سماه البعض « أبو الاقتصاد الحديث » وان كانت الموضوعات التى طرقها هذا المفكر غير جديدة على الجنس البشرى ــ اذ أن المعاملات الاقتصادية قد نشأت منذ أن وجد الانسان على وجه البسيطة ــ فانه قد تناول هذه الموضوعات من زاوية جديدة فكانت معالجته لها فاتحة عهد جديد فى تاريخ علم الاقتصاد ٠

فآدم سميث هو حقا مؤسس المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى ظهر فيها مفكرون وفلاسفة اتسموا بخط فكرى يكاد يكون موحدا أساسه حرية الفرد فى نشاطه السياسى وحريته فى أن يمتلك ما شاء له أن يمتلك

من الثروة المادية التى تنقله الى أعلى درجات المجتمع وحريته فى أن يمارس التجارة الداخلية والدولية دون ثمة تدخل من جانب الحكومة ٠

كذلك فان المدرسة الفكرية الكلاسيكية التى هى وليدة آراء آدم سميث ثم ريكاردو Ricardo ومالتس malthus من بعده هى أيضا وليدة الثورة الصناعية واكتشاف قوة البخار فى تسيير العدد والآلات ، وهى وليدة المصانع الكبيرة والمنافسة الحرة بين الوحدات الاقتصادية المختلفة ٠ وفى كلمة موجزة فان المدرسة الكلاسيكية وليدة الرأسمالية المبكرة التى غلفت العالم الغربى منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن !

والمعروف ـ علميا ـ عن المدرسة الكلاسيكية ـ أنها من تلك المراحل التاريخية التى نعم الناس فيها بالاستقرار وسكينة النفس وراحة البال ، لا لشىء الا لأن هناك توافقا بين المكتوب من جهة والواقع الاقتصادى الذى يعيش فيه الناس من جهة أخرى ٠

وقد أودع آدم سميث أفكاره الاقتصادية كلها فى هذا الكتاب الذى يعتبر بحق آية من آيات الفكر الانسانى ٠

ولهذا كله كانت الكتابه عن آدم سميث وكتابه « ثروة الأمم » ، بل كان مجرد استرجاع سيرة حياته وخلاصة فلسفة ، فى الوقت الحاضر ، مساهمة مفيدة من أجل فكرة لتقدم الاقتصاد ٠

● سيرته ومؤلفاته

ولد آدم سميث فى ٥ يونيو ١٧٢٣ فى مدينة كيركالدى باسكتلندا٠ وفى سنة ١٧٣٧ التحق بجامعة « جلاسجو » حيث تميز عن أقرانه فى دراسة الرياضة والفلسفة ٠

وفى سنة ١٧٤٠ أوفد الى أكسفورد لكى يعد لسلك القساوسة ، وهناك درس اللغات وتذوق روائع الشعر الانجليزى بجوار آداب اللغة اليونانية واللاتينية والفرنسية والايطالية ٠ وبعد أن أقام سبع سنوات فى اكسفورد ، لم يلق خلالها معامله طيبة لشغفه بالاطلاع وتحرر فكره ، تركها ، رغم نصيحة أصدقائه ، وعاد الى كيركالدى ليعيش فى كنف أمه ،

وعدل عن اختيار سلك القساوسة . وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين انتقل الى أدنبرة وألقى محاضراته فى الأدب والبلاغة .

وفى سنة ١٧٥١ عين استاذا للمنطق فى جامعة « جلاسجو » ونقل فى العام التالى استاذا للفلسفة الأخلاقية فى نفس الجامعة خلفا لأستاذه فرنسيس هتشو . وكان الاقتصاد السياسى يدخل ضمن دراسة الفلسفة. وقد قسم آدم سميث منهاج دروسه الى أربعة أقسام كبرى الأول : يتناول اللاهوت الطبيعى حيث يعالج الأدلة على وجود الله ، ويتناول صفاته الحسنى والمبادىء التى يقوم عليها الدين ، والثانى : يشمل مبادىء الأخلاق والثالث يدرس مبادىء الأخلاق المتصلة بالعدالة ، أما القسم الرابع : فيتناول بحث النظم السياسية التى من شأنها زيادة الثروة والقوة والرخاء فى الدولة .

وفى سنة١٧٥٩ نشر كتابه الشهير « نظرية المشاعر الأخلاقية » وتناول فى هذا الكتاب القسم الثانى من دروسه ، الخاص بمبادىء الأخلاق .

وبعد أن نشر سميث هذا الكتاب الذى أذاع اسمه فى أوربا كلها ، أخذ نصيب هذا الجزء الخاص « بمبادىء الأخلاق » ينكمش فى دروسه ، وبدأ يتوسع فى دراسة القسم الثالث الخاص بمبادىء الأخلاق المتصلة بالعدل، آملا أن يصل الى صياغة المبادىء العامة فى القانون ونظام الحكم مع بيان تطورها .

ولكن لم يطل المقام بآدم سميث فى جامعة جلاسجو ليحقق آماله فى البحث الفلسفى القانونى ، اذ ترك الجامعة سنة ١٧٦٣ بعد سنوات أربع من اخراجه لكتاب « العواطف الأخلاقية » ورحل الى فرنسا كمرافق ومعلم لدوق « بكلية » Duke of Buccleuge ولكن ما ترامى الينا من دروس آدم سميث فى أواخر أيامه فى جامعة « جلاسجو » قبل رحيله الى فرنسا يدل على انه قد رسم فى هذه الدروس الخطوط العريضة لكتابه الثانى « بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم » المعروف عادة باسم « ثروة الأمم » .

أقام سميث فى « تولوز » ثمانية عشر شهرا تمكن خلالها ، بسبب علاقاته ببعض رجال السياسة من التعرف على النظم السياسية والاقتصادية السائدة فى فرنسا ، وبعد رحلة له فى جنوب فرنسا واقامة شهرين فى « جنيف » بلغ باريس حيث اتصل بمشاهير الفلاسفة السياسيين من

«الفيزيوقراطيين» (١) الذين كانوا يسمون «بالاقتصاديين» ومنهم «كزناي» و « ترجو » ٠

ثم عاد الى « كيركالدى » ليعيش عشر سنوات يقضى معظمها فى البحث والتأمل ليتم كتابه الكبير « ثروة الأمم » ٠ وكانت الخطوط العريضة لهذا الكتاب قد نبتت من القسم الرابع من دروسه فى الفلسفة الأخلاقية خلال الأعوام الثلاثة عشر التى قضاها أستاذا فى « جلاسجو » ويتضح ذلك مما نقل الينا عن دروسه فى سنة ١٧٦٣ ٠ولقد كان لاقامة آدم سميث فى « تولوز » أثرها فى تبلور أفكاره وتحديدها ٠ أما اخراج الكتاب فى صورته النهائية فقد استغرق عشر سنوات طويلة قضى سميث معظمها فى عزلة وتأمل ، وان كانت تخللتها زيارات للندن وأدنبرة فى تزويده بمعلومات وحقائق أفادته فى اخراج الكتاب على النحو الذى نعرفه ٠

وقد قسم سميث كتابه « ثروة الأمم » خمسة أجزاء أو خمسة موضوعات أساسية :

يعالج فى الجزء الأول أسباب تحسن القوى الانتاجية العمالية وتوزيع الثروة على من أسهم فى انتاجها ، فيناقش فكرة تقسيم العمل التى تصل بالانتاجية الى مستواها الأمثل ، ومن هنا يعرج الى فكرة التبادل والى النقود ، ثم الى الأسعار ويدرسها جميعا دراسة مستفيضة ٠ وهو ينتقل بعد ذلك الى دراسة مشكلة التوزيع ، فيعالج الأجور والريع والفائدة والربح معتبرا اياها عوائد عوامل الانتاج ــ العمل والأرض ورأس المال ، والتنظيم على الترتيب ــ وهكذا يمكن أن يقال : ان الجزء الأول من ثروة الأمم يعالج كلا من الانتاج والتوزيع ٠

ويخصص سميث الجزء الثانى من كتابه لدراسة رأس المال ودوره فى العملية الانتاجية فينادى بضرورة زيادته وتجميعه طالما أن المنظم يسير قدما فى عمليته الانتاجية مسميا عملية التجميع هذه بظاهرة التجميع الرأسمالى معتبرا اياها سمة من سمات الرأسمالية الصناعية وبدونها قد تقف تماما الصناعة الرأسمالية ٠

---

(١) الفيزيوقراطيين : مدرسة فكرية اقتصادية سادت فرنسا فى منتصف القرن ١٨ ٠ تؤمن بوجود قوانين طبيعية تكفل سعادة البشر ولا ينبغى للدولة التدخل فى سير هذه القوانين ٠ وان الزراعة وحدها هى مصدر الثروة ٠ ومن أبرز قادة هذه المدرسة « كيناى » ٠

أما الجزء الثالث من الكتاب فقد خصصه سميث لدراسة التنمية الاقتصادية والظروف الملائمة لها ، وهو الموضوع الذى يعالج بتفصيل واف فى هذه الأيام • وسميث حين يتعرض لمشكلة التنمية يبدى بعض التحفظ والشك فى امكان تحقيق تنمية اقتصادية بمعدل معقول فى الدول والشعوب المستعمرة : فالاستعمار – فى رأيه – ظاهرة من ظواهر العصر الذى وجد فيه ، والمستعمرات وجدت لتغذى الدول الصناعية العظمى بالمادة الأولية والطعام بأسعار زهيدة وليس لها الحق فى أكثر من هذا • وهو رأى استعمارى سخيف لا يجد له مكانا بالطبع بين الاقتصاديين المعاصرين •

ويعمد سميث فى الجزء الرابع من مؤلفه الى نقد بعض المدارس الفكرية التى سبقته : فانتقد التجاريين (أى أصحاب المذهب التجارى الذى ساد ابان القرنين السادس عشر والسابع عشر) وهو فى انتقاده هذا يرسى الحجر الأساسى فى بناء المدرسة الكلاسيكية التى تدين أولا وقبل كل شيء أخر بالحرية الاقتصادية : أى رفع القيود والاجراءات التى فرضها التجاريون لتنظيم الاقتصاديات القومية الأوربية حين ذاك •

أما الجزء الخامس فقد خصصه لرسم سياسة مالية واقتصادية أمثل لزيادة الايرادات المالية فى الدولة وترشيد الانفاق • وهو فى هذا لا يباعد بينه وبين الحرية الاقتصادية ، وانما يعمد الى اقرار هذه الحرية فى ظل التجارة الدولية الحرة بين الدول على أساس تخصص كل دولة فيما هى أهل له فى الانتاج ومبادلته بشكل حر مع انتاج أخر لدولة أخرى تتمتع فيه بميزة انتاجية مطلقة •

فكأن آدم سميث قد قضى أكثر من عشرين عاما فى الاستقراء والبحث والتفكير والتأمل ليخرج كتاب « ثروة الأمم » فى أوائل سنة ١٧٧٦ • وقد ساعدته اقامته فى البيئة التجارية التى اشتهرت بها مدينة جلاسجو واتصالاته برجال الأعمال على تكوين فكرة حقيقية عن النشاط الاقتصادى • كما أن سفره الى فرنسا واتصاله « بالفيزيوقراطيين » كان له أثره فى تأكيد فكرته عن مزايا الحرية الاقتصادية وأصالة النظام الطبيعى •

وبعد أن أخرج سميث كتابه بسنتين عين مراقبا للجمرك باسكتلندا وهى وظيفة ذات أهمية كبرى • وانتخب فى سنة ١٧٨٧ مديرا لجامعة جلاسجو وقد كتب بهذه المناسبة ما يدل على مدى تعلقه بالحياة العلمية يقول :

« لا يستطيع رجل أن يكون مدينا لجماعة ما بقدر دينى لرجال

جامعة « جلاسجو » . فلقد علمونى ثم بعثوا بى الى « اكسفورد » . وعند عودتى الى اسكتلندا اختارونى عضوا معهم ثم نقلونى لأشغل مركزا أحاط به الشرف ، اذ شغله الدكتور هتشسون من قبل . ان فترة الثلاثة عشر عاما التى قضيتها عضوا فى هذه الجماعة أذكرها باعتبارها أنفع فترة فى حياتى وبالتالى أكثر فترات حياتى سعادة وأكبرها شرفا . والآن وقد مضى ثلاثة وعشرون عاما على تركى الجامعة أجد أصدقائى القدامى يذكروننى بانتخابهم اياى مديرا للجامعة فيمتلىء قلبى بسرور لا يتأتى التعبير عنه » .

وقد قضى سميث الفترة الأخيرة من حياته مريضا ، واستطاع فى مرضه أن يعيد طبع كتابه « نظرية المشاعر الأخلاقية » بعد ادخال بعض الاضافات عليه . ولم يترك لنا آدم سميث شيئا آخر غير كتابيه الكبيرين فيما عدا بعض الأبحاث الفلسفية التى نشرت بعد وفاته سنة ١٧٩٥ .

● الفلسفات المؤثرة فى آراء سميث

اذا نظرنا الى الفكر الاقتصـــادى قبل أواســـط القرن الثامن عشر لم نجد بحثا شاملا يحاول تفسير الظواهر الاقتصـــادية فى جملتهـــا . والفلسفة الاقتصادية التى كانت تتحكم فى العالم خلال القرون الثلاثة التى سبقت القرن الثامن عشر هى فلسفة التجاريين التى كانت ترى تنظيم الحياة الاقتصادية على نحو يزيد من كمية الذهب والفضة داخل الدولة ، فالهدف النهائى للسياسة الاقتصـــادية عند التجـــاريين كان ينحصر فى التحكم فى ميزان المدفوعات لتحقيق فائض ، أما أساليب هذه السياسة فكانت تختلف من دولة لأخرى تبعـــا لظروفها الخاصـــة ووفقا للفلسفة التجارية التى تسود حكامها . واذا كان بعض الكتاب قد حاولوا فى أواخر القرن السابع عشر أن يقارنوا الميزة النسبية بين التجارة والزراعة وكان الفكر قد بدأ يتجه فى أوائل القرن الثامن عشر الى مناقشة مذهب تقييد التجارة ، الا انه لم توجـــد أية دراسة تقـــوم على بحث شامل للمشـــكلة الاقتصادية قبل منتصف هذا القرن . ولم تظهر هذه الدراسة الا على يدى الفيزيوقراطيين وآدم سميث .

ونود أن نشير قبل التعرض للفيزيوقراطيين الى أسماء بعض الفلاسفة الذين اتفق المؤرخون على أن آدم سميث قد تأثر بهم تأثرا مباشرا .

فقد قيل ان سميث قد تأثر بفرنسيس هتشسون الذى سبقه فى

شغل كرسى الفلسفة الأخلاقية في جلاسجو ، نظرا لوجود شبه بين كتاب « ثروة الأمم » وبين دروس هتشسون من ناحيــة منهاج البحث وترتيب المواد ، وكذلك لان هتشسون قد عالج فكرة تقسيم العمل وبعض المسائل المتصلة بنظرية القيمة ، كما ان كان من المدافعين عن فكرة الحرية ٠

وكذلك قيل ان آدم سميث تأثر بدافيد هيوم نظرا لانه قد عالج فى دراسات قصيرة بعض المسائل الاقتصادية الهامة التى تعرض لها آدم سميث فيما بعد ، مثل موضوع النقود وسعر الفائدة وحرية التجارة ونقد مذهب « التجاريين » الذين كانوا يخلطون بين النقود وبين ثرَوة الأمم ويقيسون درجة غنى الدولة ورخائها بما لديها من المعادن النفيسة ، وكذلك نقـد سياسة التجاريين فى تقييد التجارة ، وبيان أن رخاء دولة ما لا يضر الدول الأخرى بل يفيدها ٠

وممن قيــل بأنهم أثروا فى فلســفة آدم ســميث بل فى فلســفة « الفيزيوقراطيين » الطبيب الفيلسوف برنارد دى مندفيل الذى كتب فى ســنة ١٧٠٤ القصيدة المشهورة « قصــة النحل » وفكرتها الأساسية ان المدينة بما تتضمنه من ثروة ومن علم انما ترجع الى ما غرس فى نفوسنا من رغبــة فى اشباع حاجاتنا غير المحــدودة وسعينا الى الرفاهية والمتعــة ٠ فرذائل الانسان ، لا فضائله ، هى أساس المدنية فى رأى « مندفيل » ٠ هذه الفكرة نجدها عند آدم سميث أيضا فى كتاب « نظرية المشــاعر الأخلاقية » ٠ ثم نجد نفس الفكرة « فكرة الرغبة الانسانية » أو « المصلحة الشخصية » فى كتاب ثروة الأمم أساسا عريضا لكل فلسفته فى النظام الطبيعى ٠ باعتبــارها الدافع الأساسى للنشــاط الاقتصــادى فى جميــع صــوره ٠

أما عن « الفيزيوقراطيين » فانهم قد حاولوا البحث عن سر الرخاء ومصــدر الثروة وعن أفضل النظم لتحقيق الرخاء وزيادة الثروة ٠ وقد وجدوا أن المصدر الأصلى لكل ثروة هى الأرض ٠ وان العمل الزراعى هو العمل الوحيد المنتج ، لانه يترك ناتجا صافيا يزيد عما أنفق على الانتاج ٠ أما الأعــمال الأخــرى كالعمل الصــناعى أو التجــارى فان ما يضيفه من قيمــة جــديدة يتعادل تمــاما مع ما أنفق على عمليــة الانتــاج ، وذلك لان الطبيعة التى تتعاون مع الانسان فى الانتاج الزراعى لا تتعاون معه فى صور الانتاج الأخرى ٠ وقد بين كيناى Kenai فى كتابه الشهير « الجدول الاقتصادى » سنة ١٧٥٨ أن الناتج الصافى لطبقة الزراع يتداول فى جسم الهيئــة الاجتماعية كما يسرى الدم فى جسم الانســان ٠ وبين « الفيزيوقراطيين » ان هذا النظام الطبيعى الذى وصفه الخالق هو الذى يؤدى الى قدر من الرخاء ، وهو نظــام يقوم على احتــرام الملكية والحرية

ولا يحتاج الى قانون وضعي يقرره ، وان مهمة الدولة تنحصر فى ضمان احترام الملكية الفردية والحرية الاقتصادية • ولذا كان من الواجب اطلاق الحريات الاقتصادية بصورة كاملة حتى يتحقق الرخاء • وقد كان « الفيزيوقراطيون » يرون أن خير من يحكم هو المستبد العادل الذى يوجه الأفراد الى النظام الطبيعي ولا يتدخل فيه • وكان من رأيهم ان النظام المالى للدولة يجب أن يقوم على فرض ضريبة وحيدة هى ضريبة الأرض الزراعية •

● ● ●

واذا كان آدم سميث قد تأثر بمن سبقه من الفلاسفة والباحثين فى المسائل الاقتصادية ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فانه قد تلقى طابع فلسفة عصره ، فالقرن الثامن عشر قد تميز بفلسفة القانون الطبيعي التى تقول : ان ثمة مجموعة من القواعد تبين ما هو صواب وما هو عدل ، ومتمشى مع الأخلاق بصفة عامة ، وانه من الممكن التعرف على هذه القواعد عن طريق العقل أو الاحساس الخلقى ، كما تقول أيضا : ان لهذه المجموعة من القواعد سلطة أعلى مما تمليه سلطة الحاكم الانسانى أو يقضى به العرف • ولقد حاول آدم سميث أن يكشف عن هذه القواعد بالنسبة للنظام الاقتصادى • هذا ولما كان النصف الثانى من القرن الثانى عشر قد شهد بدء التحول الى النظام الرأسمالى الصناعى القائم على المنافسة ، وتبدت عيوب النظام الاقتصادى القديم المؤسس على القيود المفروضة على حرية العمل والمبادلة ، فقد أدى هذا التطور المادى ، كما أدت الدعوة الفلسفية سالفة الذكر الى زعزعة الثقة بفلسفة التجاريين وسياستهم ، وأخذ يحل محل هذه السياسة فى العمل قدر من الحرية الواقعية ، سواء أكان ذلك بالنسبة للقيود المفروضة على التجارة الدولية وعلى حرية العمل فى بريطانيا أم بالنسبة للقيود المفروضة على حرية المبادلات الداخلية فى فرنسا •

فآدم سميث قد وجد فى فترة مكنته من أن يشاهد عيوب النظام الاقتصادى القديم المتداعى ، وهو نظام كان قوامه القيود العتيقة على نظام الانتاج والمبادلة ، وقد استطاع أن يلاحظ بشائر نظام الحرية الوليد • واذا كان آدم سميث لم يستشعر الثورة الصناعية التى كان ميلادها قد تم باختراع المحركات الآلية فانه قد استنبط ان ثمة نظاما أفضل قوامه الحرية والمصلحة الفردية ومن شأنه أن يؤدى الى الخير العام • ولقد جاء ما كتبه تعبيرا رائعا عما كان يختلج فى ضمير عصره ، ولذا فان كلمته لم تذهب أدراج الرياح ، بل كان لجرسها وقع عميق فى خيال جيله ، وفى نفس من تبعه من الأجيال •

● المظاهر الكبرى لاقتصاديات آدم سميث

واذا كان آدم سميث قد رأى مدى ما تنطوى عليه سياسة التجاريين من أخطار الثروة وجد فى البحث عن سر الرخاء ومصدره ، واذا كان أيضا مثل « الفيزيوقراطيين » الذين عرفهم وأعجب بهم قد تأثر بفلسفة القانون الطبيعى التى سادت القرن الثامن عشر ، فانه قد وصل الى تحديد صورة للنظام الطبيعى تختلف كثيرا عما قال به الفيزيوقراطيين كما انه كان أكثر منهم احساسا بحقائق الحياة وأقل تعبدا بالفكرة الواحدة المجردة · ذلك أن آدم سميث كان أبعد ما يكون عن المذهبية العمياء ·

وقد وجد سميث ان المصدر الأول للثروة ليس الأرض بل هو العمل وبدأ كتابة « ثروة الأمم » بتلك الجملة المشهورة : « العمل السنوى لكل شعب هو الرصيد الذى يمونه بالمواد التى يستهلكها خلال السنة من ضروريات المعيشة وكماليات الحياة سواء أكانت هذه المواد مما ينتجه العمل الوطنى أم مما يشترى من الشعوب الأخرى مقابل منتجات العمل الوطنى » · وبالتالى فان ثروة الأمم تزداد كلما زادت قوة العمل · وتتحقق هذه الزيادة فى رأى آدم سميث عن طريق التخصص وتقسيم العمل ، وكذلك تزداد ثروة الأمم بازدياد عدد العمال المشتغلين على نحو يتمشى مع زيادة المستهلكين « عدد السكان » وهو ما لا يأتى فى رأيه الا بزيادة رؤوس الأموال المستثمرة ·

● النظام الطبيعى يؤدى الى الصالح العام

ولكن ما هى القوى التى تعمل على أن تبلغ الثروة أقصاها وبفضلها يتحقق تقسيم العمل وتوزيع الاستثمار على أوجه النشاط على النحو الأمثل ؟ يرى آدم سميث أن ثمة غريزة قد ركزت فى الانسان وهى المصلحة الشخصية التى تدفع به الى محاولة تحسين حاله · هذه الغريزة التى تحكم تصرفات الأفراد تؤدى الى تحقيق الخير كله للجماعة · وذلك لان الأفراد عند سعيهم لتحقيق مصلحتهم الشخصية ، تقودهم كما يقول آدم سميث « يد خفية » ولا شك فى انه يقصد يدا الهية ، تقودهم الى غاية

لم يقصدونها وهى تحقيق الصالح العام · والنظام الطبيعى عند آدم سميث نظام تلقائى ينبثق عن الدوافع النفسية للانسان ، وهو نظام يؤدى الى تحقيق الصالح العام ما دامت هناك حرية اقتصادية · فتقسيم العمل مثلا لم يأت نتيجة تفكير انسان نظم العالم ، بل انه ينشأ من سعى الانسان لتحقيق مصلحته · فالفرد الذى يعيش فى جماعة يعرف انه يستطيع الحصول على ما يريده من انتاج الآخرين لو باعهم فائض انتاجه ، ولذلك يتخصص فى انتاج السلعة التى يمتاز فى انتاجها ثم يستبدل بها السلع الأخرى · فتقسيم العمل أساسه رغبة الفرد فى تحسين حالته ، كما أن أساسه غريزة المبادلة وكذلك الحال بالنسبة للنقود فانها لم تنشأ من قرار من السلطة العامة ، ولكنها خرجت من الغريزة الانسانية ، فكل فرد يسعى الى أن يكون لديه كمية من مواد أو منتجات معينة ، يمكن أن يستعملها لتسهيل عملية المبادلة للحصول على ما يحتاج اليه من منتجات ، هذه السلع التى تتميز بالقبول العام فى جماعة معينة هى الأصل التاريخى للنقود ، فالنقود أيضا تعود بشأنها الى الغريزة الانسانية ، وكذلك تكوين رأس المال يتم بصورة طبيعية تلقائية نتيجة سعى الأفراد الى تحسين حالتهم · فهذا الميل يدفع بهم الى الادخار ، ويحثهم على استثمار هذه المدخرات ، وبالتالى يؤدى الى زيادة رؤوس الأموال والى زيادة انتاجية العمل وزيادة عدد العمال المشتغلين ، أى الى زيادة ثروة الأمم ·

وقد مضى آدم سميث فى شرح تفاصيل هذا النظام الطبيعى المنبعث من الغرائز الانسانية ، المؤدى الى زيادة ثروة الأمم ونمو نظمها الاقتصادية على نحو يصل بالأمم الى الرفاهية وراح يبسط القول فى هذا النظام الطبيعى سواء أكان ذلك من ناحية الانتاج أم المبادلة ·

ولنا أن نسأل : ماذا كان رأى آدم سميث بشأن الدور الذى يتعين أداؤه على الحكومة أو « الحاكم أو الكومنولث » كما دعاها ؟ الجواب عنده بسيط جدا · فهو يرى أن يقتصر دور الدولة على محاولة توسيع نطاق السوق بشق الطرق وتنظيم النقد وضمان تنفيذ العقود تنفيذا أمينا · وعلى الدولة أن تعمل على تحقيق حرية الصناعة والتجارة بامتناعها عن التدخل ، فعليها أن تلغى نظام « المنح » ونظام « الاعانات » وأن تمتنع عن التدخل فى التنظيم الصناعى وأن تترك الحرية الكاملة للعمل ورأس المال، اذ أن رأس المال فى هذه الحالة سيتجه تلقائيا الاتجاه الذى يتمشى مع صالح صاحبه ، ويؤدى الى زيادة الثروة القومية ·

● الاتزان والنسبية فى الاقتصاد السياسى

هذا ولم يكن آدم سميث ، فى بحثه عن تفسير الظواهر الاقتصادية ، وفى عرضه للنظام الطبيعى ، وفى تفاؤله بنتائج هذا النظام ، وفى دعوته الى الحرية والفردية ، بغافل عن عيوب هذا النظام أو عن جشع الانسان ومخاطر هذا الجشع • ولذا فقد أدخل الاتزان والنسبية فى الاقتصاد السياسى ، ودفع بهذا العلم فى نطاق العلوم الاجتماعية ، معارضا بذلك الاتجاه الفيزيوقراطى الذى اتجه بالاقتصاد السياسى الى زمرة العلوم الطبيعية • هذه الناحية فى آدم سميث من أمتع نواحيه وأكثرها ابرازا لطبيعته ، التى تأبى الانسياق وراء الاعجاب باتساق البنيان النظرى ، ولا تنسى حقائق الوجود الانسانى •

فنراه ، وان كان من أنصار المشروع الخاص والنظام الفردى ، متيقظا لاحتمال قيام الاتفاقات بين أصحاب المصالح من أرباب الأعمال ، مما يعطل قيام النظام الطبيعى القائم على المنافسة ويفوت ما كان يراه من آثار الطيبة بالنسبة للجماعة ، فيقول « انه لا يتأتى لأفراد من مهنة واحدة أن يجتمعوا ، حتى ولو كان اجتماعهم لمجرد التسلية ، الا واتجه الى التآمر ضد الجمهور أو التحايل على رفع الأسعار » •

واذا كان آدم سميث قد بين دور الدولة على النحو الذى أوضحناه ، الا أنه قد وافق على القوانين المحددة للفائدة تفاديا من أن يستشرى خطر الربا • وكذلك نادى بتنظيم اصدار النقود حتى لا تؤدى المحافظة على « حرية بضعة أفراد الى تعريض أمن الجماعة كلها للخطر وهو ما يفرض على قوانين الدولة أن تقيد مثل هذه الحرية سواء أكانت حكومتها أكثر الحكومات تحررا أو أشدها دكتاتورية » •

وكذلك اذا كان آدم سميث من أنصار حرية التجارة ، فانه قد أجاز الحماية التجارية لحماية الصناعة التى تعد ضرورية للدفاع الوطنى ذلك لانه كان يرى « أن الدفاع أكبر أهمية من الثراء » •

وكذلك أجاز فرض رسوم تعويضية على الواردات مماثلة للرسوم المفروضة على الانتاج المحلى • كما أجاز المعاملة بالمثل بالنسبة للدول التى تتخذ اجراءات حماية ضد الصادرات الوطنية ، وكان من رأيه التدرج عند الغاء نظام الحماية التجارية رعاية للصناعات الوطنية التى كانت تتمتع بتلك الحماية والتى تستخدم عددا كبيرا من العمال •

أما عن نظرته الى الطبقة العاملة فانه كان شديد الحساسية لظروفها ، الى درجة انه يبدو غير مؤمن بعدالة النظام الطبيعى فى التوزيع رغم ايمانه بفائدته فى الانتاج فنراه بعد أن يقرر فى صدر الفصل الثامن من الجزء الأول انه « فى الوضع السابق على تملك الأراضى وتكوين رأس المال كان للعامل كل نتاج عمله ، فلم يكن له مالك أو سيد ليقتسم معه » . ثم يبين كيف أن نظام الملكية واستخدام رأس المال فى الانتاج يؤديان الى اقتطاع جزء من دخل العمل لكل من هاتين الفئتين .

ولاحظ سميث كذلك انعدام المساواة فى قوة المساومة بين الاجراء وأرباب الأعمال وفى هذا يقول : « ان بين السادة دائما وفى كل مكان تفاهما شبه خفى ، ولكنه دائم ومتجانس ، من حيث عدم رفع آجر العمل فوق العدل الفعلى » وقلما سمع الجمهور بهذه الاتفاقات فيما بينهم ، ولكن محاولات العمال من أجل التكتل ومقاومة خفض الأجور أو زيادة الأرباح ، كانت تؤدى الى الاستنكار الشديد ، كما أن العنف الذى لازم أحيانا أمثال هذه الحركات كان يقمع بشدة .

ولم يفت سميث أن يلاحظ الحاجه الى المنافسه كشرط لقيام نظام الحرية الطبيعية الذى يتحدث عنه . لقد كان عدوا عنيدا للاحتكار ما عدا وظائف قليلة تكون فيها المنافسة باعثا على الاسراف كما هى الحال فى شق القنوات . وكان يقول : « ان الاحتكار عدو الادارة الحسنة التى لا يمكن توافرها الا نتيجة المنافسه الحرة العامة التى ترغم كل امرىء على الالتجاء اليها كوسيلة للدفاع عن النفس » .

ويعلن سميث أن الريع فى جوهره سعر احتكارى . ان كمية الأرض الجيدة أو المرغوب فيها محدودة ، والذين يملكونها يمكنهم استخلاص شىء من المستهلك ، وهو ما لا يدفعه مقابل العمل أو رأس المال الضرورى فالريع المرتفع ليس الا وليد الثروة القومية الكبيرة أو الأجور العالية . وحين يحلل سميث الريع فانه يستبق مذهب « الريع غير المكتسب » الذى أصبح له تأثير كبير ، كما أنه فى هذا التحليل انما يعكس لنا شعور المنتج الصناعى ضد مخلفات النظام الاقطاعى والملاك الزراعيين .

● العمل ودوره الأساسى فى خلق الثروة

وينحصر الهدف الأساسى من كتاب « ثروة الأمم » كما يدل عنوانه فى البحث فى طبيعة هذه الثروة وأسبابها . ولقد سبق أن عرضنا

باختصار نظرية آدم سميث فى النظام الطبيعى الذى يحكم تطور ثروة الأمم ويؤدى الى زيادتها ، واذا ترك الأفراد أحرارا فى اتباع غرائزهم ، وسعوا لتحقيق مصلحتهم الشخصية ، وكفلت لهم الدولة الأمن والعدالة والتعليم · فآدم سميث يؤمن بتلقائية التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، ويرى من ناحية أخرى أن النظام الطبيعى يعفى الحكومة من المسئوليه الاقتصادية « ويعفيهـا من واجب تعرضها محـاولته أدائه الى حالات كثيرة من خيبة الأمل ، وذلك لان أداء هذا الواجب يستلزم ما تنوء به رجاحة أى عقـل ونفاذ كل عام ، مهما كان هذا الواجب الذى يتضمن مراقبة نشاط الأفراد وتوجيههم الى الأعمال الأكثر تمشيا مع الصالح العام » · فهو لم يكن يتخيل وضع برنامج مفصل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية على أساس علمى ·

وفى النظام الطبيعى الذى رسم آدم سميث صورته ، يلعب العمل الدور الأساسى فى خلق الثروة ، سـواء أكان عملا صـناعيا أم زراعيا أم تجاريا · وهو فى هذا الصدد قد تقدم كثيرا عن الفيزيوقراطيين الذين كانوا يرون أن العمل الزراعى هو العمل المنتج الوحيد · ولكن آدم سميث لم يستطع التحرر تمـاما من فكرة عـدم انتاجية بعض صـور النشاط الانسانى ، بل ظل يقسم الأعمال الى أعمال منتجة وأعمال غير منتجة · فالأعمال المنتجة هى الأعمال التى تزيد من قيمة المواد التى تتركز عليها ، أما الأعمال غير المنتجة فهى الأعمال التى قد تكون نافعة ولكنها لا تزيد من تلك القيمة · وهذه الأعمال كما يقول سميث : « تهلك فى نفس لحظة أدائها ، مثل عمل الخادم » ويلحق به أعمالا أساسية مثل عمل الحاكم والقسيس وراقص الأوبرا ·· الخ · فالخـدمات لا تدخل عنده فى باب الأعمال المنتجة ·

واذا كان آدم سميث قد أدخل فى نطاق الأعمال المنتجة الى جانب العمل الزراعى ، العمل الصناعى والتجارى ، فانه برغم ذلك قد رتب أهمية أوجه النشاط فى التقدم وفقا لما أسماه « السير الطبيعى للأمور » وأعطى المرتبة الأولى للنشاط الزراعى ، باعتبـاره أكثر صـور النشاط توظيفا للعمـال ، ثم أعطى المرتبة الثانية للنشـاط الصناعى ، والثالثة للنشاط التجارى ، مقسما هذا النوع الأخير الى درجات متفاوتة الأهمية ·

وتزداد انتاجية العامل تبعا لمدى تقسيم العمل ، وبالتالى تزداد ثروة الأمم كلما انتشر فيها تقسيم العمل · وذلك لان تقسيم العمل يؤدى الى زيادة مهارة العامل والى توفير الوقت اللازم للانتاج ، كما أن التخصص

الذى يترتب على تقسيم العمل يؤدى الى الوصول الى أفضل الطرق لأداء العمل والى اختراع الأدوات التى تساعد العامل على زيادة الانتاج . وقد ضرب لذلك المثال المشهور فى زيادة انتاج الدبابيس تبعا لتقسيم العمل :

وان الفقرة الشهيرة التى أوضح فيها أن تخصص العمليات فى عمل الدبابيس يرفع من انتاجية العامل ، لتعد **نموذجا فى حسن الشرح والايضاح :**

« ولنضرب على ذلك مثلا نستقيه من احدى الصناعات القليلة الأهمية التى روعى فيها تقسيم العمل وهى صناعة الدبابيس ، فالعامل الذى لم يتدرب على هذه الصناعة ربما يعجز عن صنع دبوس واحد يوميا حتى ولو بذل أقصى جهده ، وبالتالى لا يستطيع أن يصنع دبوسا . ولكن بالطريقة المتبعة الآن فى هذه الصناعة لا يصبح العمل بأكمله حرفه خاصة بل انه ينقسم الى فروع يعتبر معظمها حرفا قائمة بذاتها . اذ يقوم أحد العمال بجذب السلك بينما يقوم الثانى بجعله على استقامة واحدة ويقطعه عامل ثالث ثم يجعل عامل رابع أحد طرفى الدبوس مدببا ويتولى عامل خامس اعداد الطرف الآخر من الدبوس الذى ستثبت عليه الرأس . أما عملية صناعة رأس الدبوس فهى تتطلب عمليتين أو ثلاث عمليات مستقلة ، ونضيف الى ذلك أيضا عملية تثبيت رأس الدبوس وتلميعه . بل يمكننا أن نعتبر عملية وضع الدبوس فى الورق لاعداده للبيع حرفة فى حد ذاتها . بهذه الطريقة تنقسم عملية صناعة الدبوس الى حوالى ١٨ عملية منفصلة يقوم بها عمال يستقل كل منهم عن الآخر فى بعض المصانع بينما يقوم فى المصانع الأخرى عامل واحد بعمليتين أو ثلاث عمليات فى وقت واحد .

وقد شاهدت مصنعا صغيرا لصناعة الدبابيس يعمل فيه عشرة عمال فقط يقوم بعضهم بعمليتين أو ثلاث عمليات ولكن على الرغم من أنهم كانوا فى غاية الفقر ولم تكن لديهم الآلات اللازمة فانهم كانوا يستطيعون أن يصنعوا ــ اذا بذلوا جهدهم ــ ١٢ رطلا من الدبابيس يوميا .

ولما كان الرطل يحتوى على ٤٠٠٠ دبوس من الحجم المتوسط . فان هؤلاء العمال العشرة يستطيعون أن يصنعوا ما يربوا على ٤٨ ألف دبوس يوميا ، يعنى ذلك أن كل عامل يصنع ١/١٠ هذا العدد ، أى يبلغ متوسط عدد الدبابيس التى يصنعها ٤٨٠٠ دبوس يوميا . ولكن لو كان كل منهم يعمل مستقلا عن الآخر ودون أن يتعلم أى منهم صناعة الدبابيس لما تمكن كل منهم من أن ينتج ٢٠ دبوسا بل ربما لم ينتج كل عامل منهم

دبوسا واحدا أى ما استطاع كل منهم أن ينتج الى ٢٤٠ أو ربما ١ الى ٤٨٠٠ من متوسط عدد من الدبابيس التى يمكن أن ينتجها كل عامل بفضل تقسيم العمل والتعاون فى العمليات المختلفة ·

ان نتائج تقسيم العمل فى أى فن أو صناعة أخرى تتمثل فى النتائج التى أمكن تحقيقها فى هذه الصناعة القليلة الأهمية · هذا على الرغم من أنه لا يمكن تقسيم العمل فى الكثير من الصناعات ولا يمكن أن تصل الصناعة الى مثل هذه البساطة ·

ولكن المعروف أن تقسيم العمل عموما يتيح بقدر الامكان زيادة نسبية فى القوى الانتاجية للعمال فى كل حرفة · ويبدو أن الفصل بين الحرف المختلفة قد حدث نتيجة لهذه الميزة ·

ويبلغ هذا الفصل بين الحرف أقصى حد له فى تلك الدول التى تنعم بأقصى درجات التقدم فالعمل الذى يقوم به شخص واحد فى المجتمع البدائى يقوم به عدد من العمال فى المجتمع المتقدم ·

وهذه الزيادة العظيمة فى كمية الانتاج التى يستطيع أن يحققها العمال بفضل تقسيم العمل **تسفر عن ثلاث نتائج مختلفة :**

اولا : زيادة مهارة كل عامل

ثانيا : توفير الوقت الذى ينفق فى الانتقال من نوع من أنواع الانتاج الى نوع آخر ·

ثالثا : اختراع كثير من الآلات التى تسهل العمل وتقلل تكاليفه وتمكين العامل الواحد من القيام بأعمال عدد كبير من العمال ·

●●●

واوضح سميث فى كتابه الحدود التى رأى انها تقصر التقدم وتوقفه عند وضع معين ، فتقسيم العمل يحده الطلب على المنتجات ، يحده بالتالى نطاق السوق · فاذا كان السوق ضيقا كان احتمال تقسيم العمل محدودا ، وكانت احتمالات زيادة الثروة أو ما نسميه الآن احتمالات التقدم الاقتصادى محدودة أيضا ·

وهذه الآراء ككثير غيرها مما أبداه سميث أصبحت اليوم جزءا من تراثنا بحيث تبدو عادية ، ولكنها لم تكن كذلك حين طلع بها ·

● نواحى الاختلاف عن المذاهب السابقة عليه

من أعنف أجزاء كتاب سميث ذلك الجزء الذى هاجم فيه المذاهب التجارية ، وهو أمر يترتب حتما على آرائه • فاذا كانت المنافسة وحرية التجارة والتخصص أمورا مرغوبا فيها داخل الشعب الواحد ، فيجب أن تكون مرغوبا فيها بالقدر ذاته بين الشعوب ، اذ ما من شعب يكسب من انتاج شىء يستطيع أن يشتريه بثمن أرخص من مكان آخر ، ولكن تحقيق هذا الاسراف هو الهدف الكامن وراء التعريفات الجمركية والاعانات المالية. فبدونها نجد أن كل شعب يتخصص طبعا فى تلك الأنواع من الانتاج التى يكون أكثر استعدادا لها • وعلى أى حال فان انتاج هذا الشعب هو المصدر الوحيد لثروته • وكلما زاد مقـدار ما ينتج من القيمة باستخدام العمل المتوافر لديه ، زاد ثراؤه وغناه • وهكذا يتضح ان الاحتكارات التى تؤثر فى التجارة الدولية غير مرغوب فيها ، شأنها فى ذلك شأن الاحتكارات بالداخل •

وبوصفه بريطـانيا ذا عقلية عملية نراه يسـمح بالاستثناء ، فمن المرغوب فيه لأغراض تتصل بالأمن العسـكرى ، العمل على تنمية الملاحة البريطانية ، وينبغى فرض الرسوم الجمركية على السلع المستوردة اذا كان الانتاج المحلى منها يتعرض لنفقات أعلى بسبب فرض ضريبة خاصة عليه ، وبذلك يمكن أن تتسـاوى المنافسـة • وكذلك يمكن استخدام الرسـوم الجمركية لأغراض المساومة ، وأخيرا يمكن تبرير خفض الرسوم تدريجيا بدلا من خفضها دفعة واحدة اذا ترتب على التغيير المفاجىء متاعب لاداعى لها •

أما الاتهام الأساسى الموجه ضد السياسة التجارية فقد لخصه آدم سميث بقوله انها تضحى بمصلحة المستهلك من أجل مصلحة المنتج ، مع أن « الاستهلاك هو الغاية الوحيدة من الانتاج » •

ويشارك سميث الطبيعيين فى الكثير من آرائهم ولكنه ينتقد مذهبهم اذ يعده رد فعل مغالى فيه للكولبيرتية ، اذ طبقا للمثل : « اذا أمكن أن تثنى العصا كثيرا فى أحد طرفيها لجعلها مستقيمة يجب أن تثنى الطرف الآخر بالدرجة ذاتها » وهذا ما فعله الطبيعيون اذ اعتبروا الزراعة المصدر الوحيد للثروة • ان للزراعة أهمية أولية عند سميث ولكنه يرى فى الوقت نفسه أن الصناعة والتجارة حرفتان منتجتان •

● ● ●

● سميث •• أبو الاقتصاد السياسى !

كان كتاب آدم سميث ذات المجلدين قنبلة زمنية فى حينه • وقد صادف الكتاب فى حياة صاحبه وبعد مماته نجاحا منقطع النظير ، فبمجرد نشر الكتاب تلقفه المثقفون فى بريطـانيا بل فى أوروبا كلها وتنـاولوه بالتعليق والمناقشة ، ولقد ظل هـذا الكتاب المحور الأساسى للمناقشات الاقتصادية والسياسية خلال قرن من الزمان . وما زالت بعض المبادىء والنظريات التى قررها أساسا للبحث حتى وقتنا هذا •

وقد نال آدم سميث من التكريم والنجاح فى حياته وبعد مماته ما لم ينله الا عـدد نادر من الكتاب فى العلوم الاجتمـاعية • وقد ذهب بعض المؤرخين الاقتصاديين الى اعتبار آدم سميث أباً لعلم الاقتصاد السياسى ومؤسسا لمبادئه • بينما ينكر عليه البعض صفات الابداع ويضعونه فى مصاف الناقلين عن الفيزيوقراطيين ، أو عمن سبقه من الاقتصاديين الانجليز أو من تقدمه من الفلاسفة • ونرى فى كل من الرأيين مبالغة ، فالمسائل الاقتصادية قد شغلت تفكير الفلاسفة ورجال السياسة منذ أقدم العصور ، وكان للقدماء والمحدثين ممن سبقوا آدم سميث آراء يختلط معظمها بما قاله، فالبحوث الاقتصادية أقدم بكثير من آدم سميث • كما أن التوافق بين ما جاء فى « ثروة الأمم » وما كتبه سابقوه لا يضع آدم سميث فى مركز الناقل غير المجدد • ومما لا شك فيه ان « علم الاقتصاد » قد جمع وتبلور فى كتاب « ثروة الأمم » على نحو لم نشهده فى كتاب سابق عليه •

وعلى أية حال فقد أجمع كل من نقاد آدم سميث ومريديه ان كتابه « ثروة الأمم » وثيقة هامة فى تاريخ الفكر الاقتصادى القديم لا تدانيها أية وثيقة أخرى فى ذلك الوقت • ويكفيه فخرا انه ضمن كتابه هذا أفكار قرن بأكمله ــ أى القرن الثامن عشر ــ قرن الثورة الصناعية أو ثورة البخار •

وهذا خـير مديح يمكن أن يزجى الى العمل الذى قام به سميث ، كذلك فان مهاجميه ومؤيديه يسلمون باتفاق تام بأن علم الاقتصاد السياسى بدأ بآدم سميث ، ومن ثم فانه (أى سميث) يجب أن يسمى بحق بأبى الاقتصاد السياسى • ذلك العلم الانسانى الهام الذى يدرس اليوم فى جميع الجامعات والمعاهد •

●●●

فالمعالم الأساسية لفلسفة آدم سميث الاقتصادية قد قدمت للعالم فى القرن الثامن عشر تفسيرا معقولا للظواهر الاقتصادية ، ووضعت أساسا منطقيا لسياسة اقتصادية تتمشى مع ظروف تلك الحقبة واحتياجاتها · بين أن هذا وحده ما كان ليكفي الى ايصال آدم سميث الى قمة المجد التى بلغها، لو لم تكن كتاباته وبحوثه قد امتدت الى جذور الكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية · فقد تعرض لمختلف المشاكل الاقتصادية ، وحاول أن يربط بين الظواهر الاقتصادية بتفسير نظرى متماسك وبين الصفة التلقائية للظواهر الاقتصادية · وفتح بذلك السبيل الى التركيز على دراسة القوانين الاقتصادية ·

ومما ساعد على تعميق أثر آدم سميث ، أن من سبقه من الكتاب فى فرنسا وبريطانيا كانوا قد مهدوا له السبيل الى النجاح · هذا الى أن قيام ثورة الاستقلال الأمريكية ونجاحها وما ثبت نتيجتها ، وبسبب زيادة المبادلات وازدهارها بين بريطانيا وبين مستعمراتها الأمريكية القديمة بعد تحرر هذه المستعمرات ، من أن التنظيم التحكمى بين الدولة المستعمرة وبين البلد المستعمر قد لا يكون أفضل تنظيم بالنسبة للدولة الكبرى ، وان اقامة العلاقات بين هذين البلدين على أساس من الحرية قد يأتى بنتيجة افضل وأكثر ربحا بالنسبة للدولة التى فقدت سيطرتها الاستعمارية · كل ذلك قد أوجد حجة عملية كبيرة تسند فلسفة النظام الطبيعى القائم على الحرية · وكذلك فان قيام الثورة الفرنسية وقضاءها على النظام القديم فى فرنسا ، بما كان يتضمنه من تنظيمات عتيقة للنشاط الاقتصادى · كل ذلك قد رفع فلسفة الحرية بكل صورها الى مصاف العقائد الثابتة فى نهاية القرن الثامن عشر ، ومكن لهذه العقيدة من أن تحكم الفلسفة والسياسة الاقتصادية قرابة قرن من الزمان ، ومكن بالتالى لآدم سميث ـ أكبر المنادين بمبادئها فى النطاق الاقتصادى ـ أن يجد سبيله الى مكان الصدارة بين الطلائع الموجهة للفكر الانسانى · وكذلك قد أدت الثورة الصناعية الى ايجاد توافق تام بين مصالح الرأسماليين وأصحاب الصناعة وبين فكرة الحرية الاقتصادية طوال القرن التاسع عشر ، مما دعم أثر آدم سميث ومد ظله على هذا القرن كله ·

ان ما امتاز به سميث من سعة فى الأفق ومعرفة موسوعتى الطابع لا يمكن أن يستحقا سوى الاعجاب ، وما كان فى الوسع ان يوضع مثل هذا الكتاب الضخم الشامل كل شيء والثابت اللازع والذى يمتاز بالعمق الا فى القرن الثامن عشر القرن الذى كانت تسوده الفلسفة الاحيائية

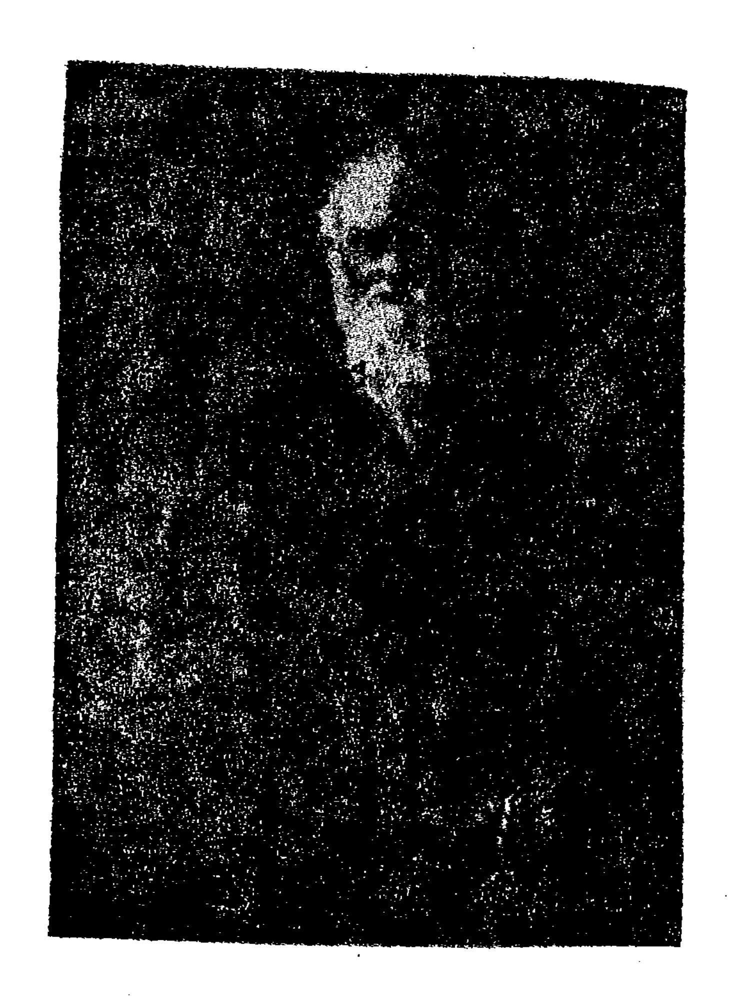
والعقل . وربما لن يظهر من جديد اقتصادى بمثل هذا الالمام الشامل كما فعل آدم سميث .

●●●

وفى أواخر أيام سميث انهالت عليه مظاهر التكريم والاحترام فترجم كتابه الى الدنمركية والفرنسية والألمانية والايطالية والأسبانية ، وكغيره من العظماء المفكرين كان سميث مبعث الالهام لمجموعة من الاقتصاديين العظام أمثال : جان بابتيست ساى وجيمس مل Jamesmill ، وجون رمزى ماكولوخ ، ونساو وليم سينيور وأيضا دافيد ريكاردوDavid Ricardo الذين تناولوا نظريات سميث بالصياغة والصقل والتصحيح دون أن يضيفوا الى الموضوع شيئا كثيرا من الحقائق وعمق النظرة .

والجدير بالذكر انه حين دفن سميث فى كنيسة كانونجيت نقش على قبره هذه العبارة :

« هنا يرقد آدم سميث مؤلف كتاب « ثروة الشعوب » . ومن الصعب أن نتصور تمثالا يمكن أن يعيش كما تعيش هذه العبارة .



(١١) أصل الأنواع

تشارلز داروين

أصل الأنواع
لداروين
١٨٥٩

١

ميلاد نظرية التطور التي ما زالت تثير العلماء حتى يومنا هذا

نظرية التطور من النظريات الكبرى التي تسيطرعلى الثقافة العالمية ، وتصبغ عقلية المفكرين فى جميع أنحاء العالم الآن . وهى قائمة فى الأصل على درس التاريخ الطبيعى للانسان والحيوان والنبات .

والواقع ان أية نظرية علمية ، لم تحظ بجـدل واسع ، ونقـاش مستمر ، مثلما حظيت به نظرية التطور ، وأصل الأنواع ، وظهور الانسان على هذا الكوكب ، وعلاقته بما ظهر قبله من ملايين الأنواع ـ الباقية منها والمنقرضة ـ وطبيعى أن الجدل المستمر فى أية مسألة علمية ، هو ظاهرة صحية ، خاصة اذا قام بهذا الجدل علماء متخصصون ، وليس ذلك مرده الى رداءة أو قصور فى النظرية ، لأن الردىء لا يستحق جدلا أو مناقشة يضيع العلماء فيها وقتهم ، ويستهلكون طاقتهم ، فالردىء هو الذى يسقط

نفسه بنفسه ، بل يرجع استمرار الجدل حتى اليوم ، أو فيما قد يتلوه من أجيال الى اختلاف فى وجهات النظر على النظرية التى وضع داروين بذرتها ، أو النظريات الأخرى التى جاءت بعدها ٠

ورغم مرور أكثر من مائة عـام على موت داروين ، الا ان نظريته لا زالت حية بل انها تزيد حيوية واشراقا ــ لا فى عقول الناس ، بل فى عقول العلماء الذين يفكرون بطريقة منظمة ، مستمدين زادهم الفكرى من قوانين الكون وشرائع الحياة ، اذ كلما مرت السنون وتطورت البحوث ، وزادت حصيلة العلماء من الأسرار الكثيرة التى تنطوى فى خلق الكائنات ، كلما أصبحوا من حقيقة التطور قاب قوسين أو أدنى ٠

وبعـد ٠٠ فان من حق القارىء أن يعرف شيئا عن ترجمة هذا المفكر العظيم ، لانه لا يمكن أن ينفصل مؤلفا عن مؤلفاته ، اذ هى تصطبغ وتصاغ وفق مزاجه وذكائه ، وقبل كل ذلك وفق العوامل الثقافية التى تعاصره ٠

● حياة داروين وتكوين فكره

ولد تشارلس داروين فى ١٢ فبراير عام ١٨٠٩ فى «شرو سبورى» من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية حيث خرج منها قبل مؤلفنا عالم آخر نال شهرة كبيرة وهو « ارازموس داروين » جد تشارلس ومؤلف كتاب « قوانين الحيـاة الحيوانية » وهو الكتاب الذى نجـد فيه بذور النظرية التطورية التى خلدت اسم داروين ٠

وقد ظهر الميل الى جمع نماذج النباتات والحشرات عند تشارلس داروين فى سن مبكرة ٠ وذكر هو نفسه ذلك فى مذكراته التى كتبها عن تاريخ حياته اذ يقول : « كان حب جمع النماذج عميقا فى نفسى مما يدفعنى الى التأكيد بانه كان عندى غريزة فطرية ، اذ لم يظهر هذا الميل عند واحد من أشقائى أو شقيقاتى ٠ ولا شك ان هذا الميل هو الأساس الذى يجعل من الانسان عالما طبيعيا مدققا أو يجعل منه أحيانا مهووسا أو شحيحا » ٠

وفى سن السادسة عشرة رحل داروين الى أدنبرة ليدرس الطب ولكنه ما لبث أن أظهر امتعاضه وكراهيته لتلك الدراسة ، وان كان فيما بعد

قد أسف أسفا شديدا لانه فوت على نفسه إلفرصة التى كان يستطيع أن يتقن فيها فن التشريح • وبعد مضى سنتين على التحاقه بدراسة الطب أدرك والده الدكتور روبرت وارنج داروين أن ابنه تشارلس لا يرجى منه أمل فى أن يكون طبيبا ناجحا • وفكر في تحويله لدراسة اللاهوت ليصبح رجلا من رجال الكنيسة • ولم يكن يدور بخلد الوالد أن ابنه ، بدلا من أن يصـبح خادما لمبادىء الكنيسـة ، سيعلن بنظريته عن العـالم وخلق الكائنات وتطورها مبادىء تقلب نظريات اللاهوت رأسا على عقب ، وتقيم الكنيسة وتقعدها وتجعلها تشن حربا لا هوادة فيها ضد هذا الرجل الذى اتهمته بالالحاد والكفر والمروق •

ورحل داروين الى كمبَردج في أوائل عام ١٨٢٨ • ولكنه لم يدرس اللاهوت بل أمضى فى هذه المدينة الجامعية ثلاث سنوات انصرف فيها الى حياة اللهو ، على أن هذه السنوات الثلاث في الحقيقة لم تضع كلها هباء • اذ أن معيشـة داروين فى المدينة الجامعية القديمة قد ساعدت على ظهور الموهبة الكامنة فيه ، ونعنى بها موهبة العالم الطبيعى • وكما يحدث فى كثير من الحالات ظهرت هذه الموهبة على اثر قراءته لبعض الكتب • فاستطاع على اثر هذه القراءة أن يتعرف على مواطن القوة فى نفسه ، وأن يقبل على البحث فى المجال الذى يتفق مع ميوله واستعداده • واستحوزت على نفسه فكرة سامية أراد أن ينفذها بعزم وقوة وهى أن « يضيف الى بناء العلوم الطبيعية الشامخ حجرا يضعه بنفسه مهما كانت قيمته المتواضعة » •

وما لبث أن ظهرت فرصة أخرى ساعدت على توجيه الشاب الجامعى نحو هوايته الحقيقية قراءته لأخبار « همبولت » Humboldt وصداقته للأستاذ « هنسلو » أستاذه فى علم النبات ، وانتماءه « لنادى الذواقين » فقد اقترح بعض أعضاء هذا النادى القيام بأبحاث تجريبية على أنواع من النبات والحيوان قد تؤدى الى استنباط « آكلات جديدة » غير تلك التى ألفها الناس • هذه الظروف لفت الطالب فى جو غريب امتزج فيه حماسه للعلوم التجريبية بخياله عن البلاد والقارات النائية التى تحوى عجائب من الحيوان والنبات وبتعلقه المتهوس بجميع الطوائف والغرائب • ففى هذا الوقت أخذ داروين يجمع الحشرات ويحلم بالرحلة الى « جزر كنارى » فى المحيط الأطلسى •

وعندما ترك داروين كمبردج حاملا درجة الماجستير في الآداب عام ١٨٣١ كان يدرك تمام الادراك انه ما من شيء يستحق منه الاهتمام سوى دراسة التاريخ الطبيعي .

● الرحلة التي كونت فكره

وبينما كان داروين على هذه الحال ، اذ أتيحت له فرصة ذهبية مكنته من تحقيق جميع أحلامه ، فتحت أمامه مجال البحوث وجمع المعلومات التي أدت في أواخر الأمر الى نظريته عن « أصل الأنواع » .

فقد كتب أستاذ الفلك في كمبردج الى « هنسلو » أستاذ داروين يطلب اليه أن يختار له شابا له المام وولع بدراسة التاريخ الطبيعي ليرافق بعثة علمية الى « أرض النار » والأرخبيل الهندي . وفكر هنسلو على الفور في داروين . وكتب الى تلميذه يقول : « انني لم أخترك لانني أعتبرك عالما طبيعيا بلغ منتهى الكمال ، ولكني أعرف انك تستطيع أن تستغل أحسن استغلال هوايتك لجمع النماذج وملاحظة الأشياء وتدوين هذه الملاحظات بدقة وعناية . ولا شك انك ستسجل كل ما يستحق أن يسجل بالقياس الى التاريخ الطبيعي » .

وبالرغم من ان هذه البعثة قد استغرقت خمس سنوات فهي تعد أخصب فترة من حياته ، فقد كانت سلسلة من المجهودات الشاقة والمتاعب المضنية .

وكان أعضاء البعثة التي أبحرت على ظهر سفينة الأبحاث « بيجل » مكلفين بدراسة أجواء وتضاريس سواحل بتاجونيا وأرض النار وشيلي وبيرو وبعض جزر المحيط الهادي ، أما داروين فقد كلف بدراسة النبات والحيوان في تلك المناطق . وقبل أن ترسو السفينة على الشاطىء لأول مرة كان داروين قد استطاع أن يحلل الأتربة التي يحملها الهواء في جو المحيطات ، ويميز في هذه المحيطات سبعة وستين نوعا من الحيوان والنبات . ورست السفينة على أرض النار حيث استطاع مؤلفنا أن يتأمل لأول مرة الانسان في حالة البدائية ، وتركت هذه المشاهدة في نفسه أثرا لا يمحى . فكان قوة تأثره بهذا المنظر دليلا على ان المشكلة العلمية والفلسفية الخاصة بأصل الانسان كانت قد بدأت تشغل ذهنه وتحتل مكانا معينا من تفكيره .

ومما لا شك فيه ان النظريات الأساسية التى أعلنها داروين فى كتابه « أصل الأنواع » قد تكونت فى ذهنه رويدا رويدا خلال هذه الرحلة . فدراسته لحفريات الحيوانات فى سهول « البمباس » وملاحظته للاختلافات البسيطة التى تحدث عند الحيوانات التى من أنواع متقاربة كلما تقدم نحو الجنوب من القارة الأمريكية ، جعلته يتصور بوضوح فكرة التغير التدريجى للأنواع . كما أن التجارب والملاحظات التى أجراها خلال هذه الرحلة الطويلة كانت بمثابة الغذاء والمؤونة التى عاش عليها طوال حياته العلمية .

وبعد عودته من رحلته عام ١٨٣٦ استقر فى لندن ، ثم انتقل بعد ذلك الى كمبردج . ويبدأ فى ترتيب الوثائق والمجموعات النباتية والحيوانية التى جمعها ، ويكتب فى الوقت نفسه « رحلة عالم طبيعى » عام ١٨٣٩ . وتجسمت فى ذهنه نظرية « أصل الأنواع » والواقع أن هذه النظرية لم تكن عنده وليدة تأملات فلسفية حاول بعد ذلك أن يدعمها بالمشاهدات ، بل ان الأمر على العكس من ذلك تماما فان الظواهر التى لاحظها والعلاقات التى لمسها بين هذه الظواهر وأوجه الشبه التى صادفها هى التى قادته الى هذه النظرية التى أصبحت كشفا عظيما فى علم الحياة . وقد كان داروين نفسه يدهش أحيانا أشد الدهشة من عدد الظواهر التى تقع تحت ناظريه فى تسلسل واضح ، ولا تدع لديه أى مجال للشك فى صدق نظريته . وكتب الى صديق له يصف هذا الأمر بقوله : « لقد ملأت كراسات بعد كراسات بالملاحظات ، ودهشت للظواهر التى كانت تتجمع من تلقاء نفسها بوضوح بحيث يسهل وصفها تحت قوانين ثانوية » .

ولما كانت حياة داروين تسير وفق نظام دقيق ، فقد خلقت له هذه الحياة خير الظروف لازدهار جميع قواه ومذاهبه وللانتفاع بها على أحسن وجه . والواقع ان التنظيم الدقيق لمواعيد يومه هو الذى يسر له جميع ملاحظاته العديدة وتبويبها وترتيبها . وكان يعمل فى صبر وأناة لتدعيم مستقبله العلمى بدون أن يهتم بالمظاهر أو ألقاب الشرف أو النياشين ، كما لم يكن عنده غرور أولئك العلماء الذين يصمون آذانهم عما يتردد فى العالم الخارجى . ولم يكن يحتد أو يغضب لما ينشر عنه من نقد مجحف بسبب ما يصل اليه من نتائج علمية جريئة ولم تستطع المناقشات الحادة والجدل العنيف الذى ساد أوساط العلم على اثر صدور كتابه « أصل الأنواع » أن تعكر من صفو حياته الرتيبة المنتظمة أو تبدل من هدوء ذلك الرجل .

وفى الوقت الذى ظهر فيه كتاب « أصل الأنواع » أى فى عام ١٨٥٩ كان لداروين مؤلفات أخرى وبحوث عديدة فى علوم النبات والحيوان

« الانتخاب الطبيعي » كان أهم عامل في حدوث هذه التغيرات ، التي طرأت على الأنواع ، وان لم يكن العامل الوحيد » ·

ان هذه الفقرة ، علاوة على ما تبينه لنا من اقتناع داروين بمذهبه الجديد ، اقتناعا لا يشوبه أى تردد أو شك ، فانها تلخص كذلك أهم الآراء والاتجاهات التي سيعنى الكتاب بابرازها واثباتها بالبراهين العلمية·

●●●

استرعى انتباه داروين ، في بادىء الأمر الاختلافات الواضحة بين سلالات نوع واحد من الحيوانات المستأنسة أو المنزلية ، كما استوقف نظره استمرار عملية التنوع ، وتكوين سلالات جديدة بدون انقطاع · وقد شهد بنفسه ، وفي خلال حقبة من الزمن قصيرة نسبية ، ظهرت سلالات جديدة من الكلاب والخيول ، والمواشي والحمام في انجلترا · وبذلك تأكد له « ان أى نوع من الأنواع المنزلية أو المستأنسة عرضة للتنوع والاختلاف الذى لا نهاية له » ·

وقد بدا له ، في أول الأمر ، « ان ظروف الحياة المنزلية ، أو الظروف التي تخضع لها حياة الحيوان المستأنس ، هي السبب الأساسى في احداث هذه التغيرات الملحوظة في الأنواع الحيوانية » · ومال الى الاعتقاد ، بصفة خاصة ، « أن عملية الانسال عند الحيوانات المستأنسة ، لابد أن تكون قد تأثرت بتغير ظروف حياتها فاذا كانت حياة الاستئناس تغير ، الى حد كبير ، من طبيعة الحيوان نفسه ، فليس من العجيب أن تؤثر كذلك على عملية الانسال عنده » ·

بحث داروين هذا الاحتمال ، ولكنه رفض أن يعتبره تفسيرا كافيا للتغيرات التي تطرأ على الأنواع ، (فليست تغيرات الطقس ، أو ظروف الحياة عوامل يمكن أن تفسر على أساسها التغييرات العميقة ، التي تؤدى مثلا الى تلك التنوعات المتباينة من الطيور ، التي تبتعد في كثير من صفاتها عن الحمام العادى · والحقيقة ان العامل الحاسم في حدوث هذه التغيرات ، وهو المربى نفسه (ونعنى بذلك المشتغل بهواية تربية الحمام) · فهو الذى يختار للانتاج ، والتوالد زوجا معنيا ، اجتذبته فيه صفة من الصفات · ولا تلبث هذه الصفة أن تتأكد ، بعد عدة أجيال ، وتفتح المجال أمام أنواع من التغيرات الأخرى ، حتى نصل بعد وقت يختلف مداه ، الى سلالة جديدة ،لا تربطها بالنوع القديم الا الصفات العامة ، وفي غالب الأحيان تكون الصفة المختارة التي أراد المربى أن ينميها ، قد ظهرت بمحض الصدفة ، ولكن توجيه عنايته لها يجعلها تتأكد في الأجيال اللاحقة عن طريق

التزاوج ، وخصوصا اذا اختير له ذكر وأنثى يتصفان بتلك الصفة الجديدة. واذا حرص المربى بعد ذلك على استبعاد الأفراد الذين لا تظهر فيهم هذه الصفة المطلوبة أولا بأول ، فانه بعد مضى وقت معين لا يصبح فى حوزته الا حماما من ذلك النـوع الجـديد ، الذى يمكن القول انه شكله بنفسـه وحسب رغبته » ·

هذه الملاحظات التى لاحظها داروين على الحيوانات والطيور المستأنسة أدت الى القول « انه يبدو أن تأثير « الاختيار » ، الذى يتضاعف من جيل الى جيل ، هو العامل الأساسى ، فى حدوث التغيرات · وسواء أكان هذا الاختيار يتم بطريقة منهجية ـ أى عن طريق تدخل الانسان ـ أو بطريقة لاشعورية ، فان أثره لابد أن يحدث ، وكل ما هنالك ان التدخل المنهجى يظهـر أثره سريعا · وفى وقت قصـير ، أما الاختيـار الذى يتم بطريقة لاشعورية ، فان أثره يظهـر ببطء ، ويستلزم لحـدوث التغير الملحوظ ، وقتا طويلا » ·

هذا هو ما خلص اليه داروين ، فيما يتعلق بالتنوعات التى تظهر فى محيط الحيوانات المستأنسة ·

● نظرية التغيرات المتلازمة (١)

« اذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر ـ حتى ولو كان من أشد أعداء نظرية التطور ـ ان عملية « الانتقاء » المقصود تؤدى الى ظهور تنوعات أو فروع جديدة للنوع الأصلى واذا كانت هذه الحقيقة قد لاحظها بالسليقة ، وأفاد منها البستانى كما أفاد منها هواة تربية الحيوانات والدواجن · الا انها لم تمنع من اثارة اعتراض له وجاهته · فقد قيل ان هذا « الانتقاء » المقصود الذى يباشره البستانى أو مربى الطيور قد يفسر تكوين التنوعات أو الفروع varieties ولكنه لا يفسر ظهور أنواع جديدة species · ولتوضيح ذلك بمثال حسن نقول انه ليس هناك ما يبعث على الدهشة من تفرع « الحمام الطاووسى » عن الحمام العادى بتأثير العناية التى يبذلها

---

(١) نظرية التغيرات المتلازمة correlated variations ومعناها ان أى تغير فى الشكل يصاحبه أو يلازمه تغير عضوى أو وظيفى ·

المربى لاستنباط هذا الفرع الجديد . ولكننا لم نر قط ان أحد الهواة استطاع - مهما بذل من جهود وأظهر من حرص - أن يوجد « طيرا » يختلف تمام الاختلاف عن « الحمام » .

أحس داروين بقيمة هذا الاعتراض واهتم اهتماما كبيرا بالاجابة عليه وحرص على أن ينطبق تفسيره على كل من « الانتقاء المصطنع » أو المقصود و « الانتقاء » الطبيعى . وقد ضمن هذا التفسير ما سماه بنظرية « التغيرات المتلازمة » Correlated variation .

ومضمون هذه النظرية ان التغيرات الشكلية morphdogiques التى يعنى مربى الطيور بتأكيد ظهورها فى الفروع الجديدة كلون الريش أو شكل المنقار ... الخ تؤدى بطريق التلازم الى ظهور تغيرات يصعب ملاحظتها فى بادىء الأمر فى أعضاء الحيوان أو الطير وأجهزته الداخلية كالجهاز التناسلى ، الجهاز العصبى . وهذه التغيرات العضوية هى أساس الانتقال من تفرع variely الى « نوع ثانوى » sub-species ثم الى « نوع » جديد فى النهاية specics . واذا كانت هذه التغيرات العميقة التى تؤدى الى ظهور الأنواع الثانوية ثم الى ظهور الأنواع الجديدة لا تظهر فى مجال « الانتقاء » المقصود فما ذلك الا لقصر الوقت الذى يمارسه فيه الانسان . فلا يمكن أن يظهر نوع جديد من خلال عمر انسان أو عدة أفراد يهتمون الواحد بعد الآخر باستنباط سلالة جديدة ولكن الأمر يحتاج الى مئات بل أحيانا الى آلاف من السنين . ولكن ما دمنا قد اقتنعنا بامكان الانتقال من النوع الأصلى الى تنوعات تظهر فيها صفات جديدة ثم الى أنواع فرعية تتأكد فيها هذه الصفات وتفسح المجال أمام تغيرات عضوية أساسية فليس من الصعب أن نقتنع بعد ذلك بان هذه الأنواع الفرعية تؤدى بمضى الوقت الى ظهور الأنواع الجديدة . وهناك كثير من الشواهد فى حياتنا اليومية تؤيد صحة هذه النظرية فنحن اذا نظرنا الى بعض الحيوانات المستأنسة وجدنا أن تنوعاتها تختلف فيما بينها اختلافات جوهرية حتى ليمكن القول انها تكون أنواعا تختلف بعضها عن بعض ويلاحظ ذلك بصفة خاصة بين سلالات الكلاب . فأين « البلدج » بوجهه المفرطح وفمه الغائر ومشيته المتثاقلة من « السلوقى » ذى الجسم النحيل والأرجل الطويلة . وتختلف هاتان السلالتان عن سلالة « الكلب الاسبانى » ذى الحجم الصغير والأذنين الطويلتين والشعر الكثيف ؟ هل نستطيع أن ننكر ان هذه الأنواع المختلفة تمام الاختلاف تنتمى فى الأصل الى نوع واحد هو « الكلب » بصفة عامة ؟ وهل نستطيع أن ننكر ان هذا التباين الشديد فيما بينها لم يحدث

الا نتيجة لتغيرات وتنوعات طفيفة تأكدت من جيل الى جيل بتدخل الانسان حتى انتهت الى ظهور هذه الأنواع المختلفة ؟ » ٠

« كذلك يوجد على الأقل عشرين تنوعا متباينا من تنوعات الحمام لا يتردد هواته تربية هذا النوع من الطيور فى تصنيفها كما لو كانت أنواعا منفصلة باعتبار الاختلاف فى بعض صفاتها الأساسية ٠ وهذا الاختلاف منشؤه التهجين والعناية باستنباط سلالات جديدة ٠

وبعد عرض هذه الأمثلة وغيرها ينتهى داروين الى القول باننا « فى الحقيقة لا نستطيع أن نرسم خطا فاصلا بين الأنواع والأنواع الفرعية أى بين الأشكال التى قد يميل بعض علماء التاريخ الطبيعى الى اعتبارها أنواعا مستقلة بالرغم من عدم استحقاقها تماما لهذه التسمية ٠ كما اننا لم ننجح كذلك فى تحديد خط فاصل أو حدود ثابتة بين الأنواع الفرعية و « التنوعات » Varieties التى تأكدت بوضوح أو بين « التنوعات » التى بدأت تظهر فى النوع والاختلافات الفردية ٠ هذه الاختلافات يندمج بعضها فى بعض فى تدرج غير ملحوظ بحيث تكون سلسلة محكمة الحلقات ٠ ومما لا شك فيه أن معنى التسلسل يتضمن فكرة التغير الحقيقى » ٠

هذه هى النتيجة التى وصل اليها داروين من ملاحظاته العديدة على انتقاء فصائل جديدة من الحيوانات المستأنسة أو النباتات بتدخل الانسان وتوجيهه للتطور وفق ما يبتغيه من صفات معينة ٠ ومفتاح هذه العملية التى تتطلب وقتا وصبرا طويلين هو مقدرة الانسان على تجميع الصفة أو الصفات المختارة Power of accumulative selection ٠

ولا نستطيع أن نقول ان ملاحظات داروين عن استنباط سلالات جديدة بفعل الانسان تتصف بطابع الجدة ولكن ما يعتبر بحق كشفا جديدا وهو استغلاله لنتائج هذه الملاحظات فى الوصول الى قوانين « الانتقاء الطبيعى » وتمكنه من أن يضع يده على وجوه التشابه بين تلك العملية المنهجية التى تتم باختيار الانسان وعملية الاختيار التى تتم بفعل الطبيعة ثم وصوله فى النهاية الى معرفة العوامل التى تتدخل بدلا من الانسان لاحداث التغير الطبيعى ٠ وقد أطلق داروين أحيانا على عملية الانتقاء اسم « الانتقاء اللاشعورى » inconscious selection « وغايته تحسين الأنواع الموجودة بالفعل ومعاونتها على التكيف بالبيئة بدون أن يكون فى ذلك أى اتجاه محدد لخلق صفات جديدة » ٠

●●●

● تنـازع البقـاء ٠٠ والبقـاء للأصلح

ويوضح داروين ان التنوع يحدث فى حالة الطبيعة أى فى حيـاة الغابة والأحراش والسهول كما يحدث عند الحيوانات المستأنسة ٠ ووجود الاختلافات الفردية الواضحة بين أفراد نوع واحد بل وضروب الشذوذ عن الصفات والملامح النوعية أمور قد أثبتتها المشاهدات العديدة ٠

ولا شك أن عامل « العدد » له أثره الفعال فى اظهار الفروق الطفيفة ووضوحها ومعنى ذلك أن الأنواع كثيرة العدد تتطور بأسرع مما تتطور الأنواع النادرة أو القليلة العـدد ٠ كمـا أن كثرة العدد ذاتها تؤدى الى السيطرة على البيئة والتحكم فيها ٠

فالتنوع فى ذاته ليس من الأمور التى تحتـاج الى نقاش أو التى تحتمل الجدل ٠ ولم يقف داروين عند هذا الحد بل انتقل من ملاحظاته وتجاربه الى محاولة الاجابة على هذه الأسئلة التى تعد أس المشكلة ٠

« كيف تتكون الأنواع فى حالة الطبيعة ؟ وكيف يتحقق الانسجام بين عضو متطور وبين الأعضاء الأخرى فى جسم الكائن الحى ؟ وكيف يتم التكيف بالبيئة وظروف الحياة ؟ » ٠

من هذه المشكلة تتلخص المشكلة التى تعين على داروين أن يجابهها وأن يجد لها حلا وقد استطاع فى النهاية أن يتغلب عليها بنظريته عن تنازع البقاء أو « الصراع من أجل الحياة » « struggle for existence»
« فبفضل هذا الصراع تنزع التغيرات التى تطرأ على الكائنات مهما كانت ضعيفة ومهما كانت أسباب حدوثها للمحافظة على أفراد النوع وتنتقل من جيل الى جيل بشرط أن تكون نافعة لهؤلاء الأفراد فى علاقاتهم العديدة مع الكائنات الأخرى وملائمة الظروف الطبيعية لحياتهم » ٠

وفى كثير من كتابات داروين نجد أنه لا يفرق بين « الصراع من أجل الحياة و « الانتقاء الطبيعى » اذ أن عملية الانتقاء الطبيعى فى نظره عملية تلقائية تعين الكائنات على حفظ النوع وبقاء الأصلح وهى تقابل فى ميدان الحياة المنزلية عملية الانتقاء المصطنع التى يمارسـها هواة تربية الحيـوانات للحصـول على صفات تلائم أهواءهم وأمزجتهم ٠ ولكن هـذه المقابلة لم تمنعه من أن يؤكد ان « الانتقاء الطبيعى قوة هائلة مستعدة دائما للعمل وانها فى تفوقها الهـائل على مجهودات الانسـان الضئيلة تذكرنا بالفرق بين ابداع فن الطبيعة واللوحات التى تصنعها يد الانسان » ٠

ومن الطريف أن نذكر فى هذا المقام ان داروين قد تأثر فى نظريته عن تنازع البقاء بالآراء التى أذاعها « مالتوس » (٢) malthus فى القرن الثامن عشر عن تزايد السكان ٠ فقد بين مالتوس بوضوح ان جميع الكائنات الحية تنزع الى التكاثر بسرعة كبيرة ولكن القليل من نسلها أو من نتاجها هو الذى يكتب له البقاء والوصول الى سن النضج ٠ وذكر أن عدد البويضات التى تضعها اناث الكائنات الحية وعدد حبوب اللقاح التى تنتجها الأزهار والنباتات تبلغ من الكثرة بحيث لو قدر لها أن تصل جميعا الى مرحلة الاكتمال والنضج لما كان هناك مكان على الأرض يتسع لها ٠

والانسان نفسه الذى يتناسل فى بطء اذا قيس تناسله بالكائنات الأخرى يتضاعف عدده كل خمس وعشرين سنة ٠ وهذه النسبة وحدها كافية لولا تدخل عوامل الموت والفناء لكى يصبح سطح الأرض بعد مرور أقل من ألف سنة لا يتسع لوقوف انسان على قدميه ٠

واستطاع مالتوس بعد ابداء هـذه الملاحظـات أن يؤكد ان جميـع النباتات والحيوانات تنزع الى التكاثر وفق متوالية هندسية ٠ ولا يحد من هذا النزوع الطبيعى سوى فناء بعض الأفراد فى فترات متفاوتة من حياتها ولو قدر للنتاج جميعه أن يعيش لما استطاع أن يجد ما يتغذى به ٠

تأمل داروين هذه الملاحظات التى آكدها مالتوس ووجد انها تنطبق على ما لاحظه على تكاثر النبـاتات ٠ ثم ما لبث أن وجـه الى نفســه هذا السؤال : « اذا كانت هناك عقبات تحول دون تكاثر الكائنات وفقـا لما تنتجه من بويضات أو من حبوب لقاح فما هى هذه العقبات ؟ » ٠

وأعترف بأن العلم لم يصل الى تحديد دقيق للعوامل التى تؤثر فى تحديد عدد كائنات نوع معين ٠ ولكنه بملاحظاته الذاتية وتجاربه يستطيع أن يقول « ان كمية الغذاء التى توفرها البيئةوالعوامل المناخيةوعلى الأخص ظهور فترات استثنائية من البرد والجفاف والأوبئة وأخيرا ضرورة وجود عدد معين من الأفراد لحفظ النوع كل هذه العوامل تؤدى الى تكاثر نوع معين على حساب نوع آخر وذلك بالنسبة الى منطقة معينة كما تحول فى الوقت نفسه دون تكاثر الأفراد من غير حد » ٠

« وعلى هذا النحو ينشأ نوع من التنافس العام بين الكائنات ويزداد

---

(٢) يشير مالتوس بهذه العبارة الى أن الانسان يتزوج فى حوالى الخامسة والعشرين ثم ينجب طفلا فيتضاعف بذلك عدده ٠

الصراع حدة كلما كانت الأفراد تنتمى الى نوع واحد اذ انها تقطن مناطق واحدة وتبحث عن غذاء واحد وتتعرض لأخطار متشابهة ٠

ويكون الصراع على نفس الدرجة من الحدة تقريبا اذا كان الأمر يتعلق « بتنوعات » تنتمى الى نوع واحد ٠ فلو زرعنا مثلا أصنافا مختلفة من القمح فى وقت واحد وزرعنا فى السنة التالية الحبوب المخلوطة التى نتجت عن المحصول الأول فان الأصناف التى تلائمها التربة والمناخ أكثر من غيرها سيكون محصولها أوفر ٠ ولا تلبث نتيجة لذلك أن تحل فى نهاية بضع سنوات محل الأصناف الأخرى وتلغيها تماما » ٠

وبعد أن يعيد داروين الامثلة التى يدعم بها نظريته ينتهى الى هذه النتيجة الهامة وهى ان « النظام الذى نراه فى الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكثيف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التى يعيش فيها » ٠

هذا الصراع من أجل البقاء ينطوى بلا شك على صور وحشية ومخزية وعندما يفكر المرء فيه ـ كما يقول داروين فى ختام هذا الفصل الرئيسى من كتابه تنبعث فى نفسه عوامل الأسى « ولكننا نستطيع أن نعزى أنفسنا حين نوقن ان الحرب ليست حالة دائمة من حالات الطبيعة وان موت الكائنات التى يكتب لها الفناء يحدث فى كثير من الحالات بسرعة وبدون ألم وان الكائنات القوية الصحيحة السعيدة هى التى تستطيع أن تعيش وتتكاثر » ٠

●●●

بقى علينا الآن أن نعرف ما هو الأثر الذى يحدثه تنازع البقاء أو الصراع من أجل الحياة على تنوع الكائنات ٠

يمكننا أن نفهم هذا الأثر اذا أخذنا فى اعتبارنا أن تنازع البقاء يترتب عليه كنتيجة حتمية فناء عدد كبير من أفراد النوع كما يترتب عليه كذلك ان الأفراد التى تستطيع أن تواصل الحياة هى الأكثر تكيفا بالبيئة وظروف الحياة ٠ ويقول داروين فى هذا الصدد : « اذا كنا قد رأينا أن تدخل الانسان عن طريق التهجين يوجد صفات مستحبة لديه ولكنها كانت لا تفيد الحيوان فكيف تدهش اذا ظهرت بطريق طبيعى هذه المرة ـ صفات جديدة عند الحيوان ، صفات نافعة له بالذات ومن شأنها أن تعينه على التغلب فى هذه المعركة القاسية معركة الصراع من أجل الحياة ؟ ان هذه الصفات « النافعة للحيوان » لابد أن تقوى بدون أدنى شك على مر الأجيال

وتؤدى الى ظهور سلالات جديدة ثم الى ظهور أنواع جديدة فى نهاية الأمر ٠ واذا كنا لا ننسى انه يولد من أى كائن أعداد تفوق بمراحل ما يكتب له البقاء منها فيجب علينا أن نعترف بالضرورة ان الأفراد التى تتميز بأية ميزة مهما كانت طفيفة وضئيلة هى الأفراد التى يكون لها حظ أكبر فى البقاء والتناسل وذلك على شرط أن يكون تميزها فى صالحها ٠ أما اذا اعترى الحيوان أى تغير من شأنه أن يضر بتكيفه بالبيئة كأن يثقل جسمه فى بيئة تحتاج الى الحركة السريعة والخفة أو يرق جلده فى بيئة باردة تحتاج لجلد سميك فان هذا الحيوان لا محالة هالك » ٠

ويختتم داروين تفسيره هذا بقوله : « لقد أطلقت اسـم « الانتقاء الطبيعى » أو «بقاء الأصلح» survival of the fittest على ظاهرة الاحتفاظ بالتغـيرات الفردية النافعة للكائن وعلى ظاهرة اختفـاء وتلاشى التغيرات الضارة به » (٣) ٠

الاحتفاظ conservation لا الخلق creation هذه هى الحقيقة التى أكدها داروين والتى لم يفهمها معارضوه ٠ انه لم يقل أبدا ان عملية « الانتقـاء الطبيعى » تخلق صـفات جديدة وانما قال فقط انها تعين على الاحتفاظ بالصفات والتغيرات النافعة التى تظهر بمحض الصدفة ولا تتعرض فكرة « الانتقاء الطبيعى » بتاتا لتفسير ظهور هذه التغيرات ٠

هذا الانتقال من مجرد التحسن الذى يطرأ على فصيلة معينة الى ظهور فصيلة أخرى متنوعة وذلك عن طريق الانتقاء وبقاء الأصلح ثم الانتقال مرة أخرى الى تكوين نوع جديد يختلف الى حد كبير عن النوع الأصلى — هذا الانتقال التدريجى الذى يوصلنا فى النهاية الى ما يمكن اعتباره خلقا جديدا هو فى الحقيقة لب النظرية الداروينية عن أصل الأنواع ٠

●●●

وبعد ٠٠ فان نظرية التطور تعد من أهم ما قدمه علم الحيوان للعلم والمعرفة والحضارة الانسانية بوجه عام ٠٠ اذ انها لفتت الأنظار الى ميدان فسيح من ميادين البحث والدراسة ما زال العلماء يجدون فيه كل جديد ٠

هذا وقد نفذت الطبعة الأولى من كتاب داروين هذا فى يوم ظهوره ٠ وقد قوبلت نظريته وقتذاك بهجوم مرير ، اذ كان المظنون انها مناقضة للعقيدة الدينية عن خلق الكون ٠

---

(٣) وردت هذه الفقرة فى خاتمة كتاب « أصل الأنواع » ٠

ولا شك اننا نعترف بما في هذا العمل المضنى الذى قام به داروين من صرامة ، وعناد لا حد لهما ، ومن قوة احتمال وصبر ، قل أن تجد لهما نظيرا • وقد استعان داروين بهذا العناد ، وتلك الصلابة في الرد على مهاجمى نظريته والدفاع عن آرائه • وكانت طريقته في النقاش تقوم على قرع الحجة بالحجة ، وعلى توخى الدقة كما كان منهج نقاشه يقوم على البساطة ، والاقتناع الذى يصل الى مرتبة اليقين • فكان يبدأ بعرض رأى خصمه عرضا كاملا نزيها ، ويذهب فى ذلك أحيانا الى اقتباس عباراته نفسها ، وبعد أن يبين فى قوة ان هذا الرأى يناقض ما قدمه من تفسير لظاهرة من الظواهر ، يترك هذه الحجة وينصرف الى حجة أخرى أشد خطرا على خصمه ، حيث يبين أن آراءه تنطوى على تناقض داخلى ، وتتعارض فيما بينها أشد التعارض ، وبعد ذلك يعرض داروين تفسيره الذاتى للظاهرة ، وذلك بطريقة موضوعية ، ولا يخشى أن يبين للقارىء فى نزاهة ، نقط الضعف فيها ، وهى النقط التى يجب أن يتجه اليها النقد العلمى النزيه •

وهكذا نرى ان داروين يتسلح فى تفكيره دائما بالصبر والاناة ، ولا يتسرع فى تعميم الأحكام ، بل يخضع رأيه لما تثبته الظواهر والتجارب العلمية • وهو لا يؤكد أو ينفى الا فى حذر شديد • واذا أحس بانه امتلك الحقيقة عض عليها بالنواجذ ، وجعلها جزءا من كيانه وعقله • وكان يرى ان التفكير السليم يجب أن يكون دائما الى جانب الحقيقة •

ولم يكن داروين يطمع الا فى أن يفهمه علماء التاريخ الطبيعى القلائل ، الذين وهبتهم الطبيعة مرونة فى العقل والذين استطاعوا أن يتخلصوا من الآراء السابقة ومن أشكال التفكير المصبوبة فى قوالب ، أما الآخرون فانه يرثى لهم ، لانهم يفضلون الأسرار الغامضة التى لا يمكن تفسيرها فى ضوء التفسير الوصفى لظواهر الطبيعة الحية » •

وكان من الطبيعى أيضا أن يثير مذهب داروين فى الطبيعة وخلق الكون مسألة تدينه وايمانه بالله • ونزع الناس من معاصريه ، ومن تلاهم فى ذلك كل منزع • ولكن فصل القول فى هذا الموضوع هو ما أكده داروين نفسه • فقد أكد بقوة قبل موته ببضع سنوات انه لم يكن ملحدا • وها هى ذى عبارته التى نشرت فى مذكراته « لقد ترددت كثيرا فى حياتى بين كثير من المعتقدات وتأرجحت عاطفتى الدينية كثيرا بين الصعود والهبوط ، ولكنى فى أشد اللحظات ترددا لم أشعر بانى كنت ملحدا • ولم أنكر قط وجود الله • واعتقد بصفة عامة وخصوصا عندما أخذت

أقترب من الشيخوخة أن اللا أدرية هى المبدأ الذى ينطبق أكثر من غيره على آرائى الدينية » ٠

●●●

ورغم أن فكرة التطور ، واشتقاق الحياة من اللا حياة ، ليست شيئا جديدا فى دنيا الفكر والعلم ، فقد سبق بها أرسطو وتحدث عنها العرب فى كتبهم ٠

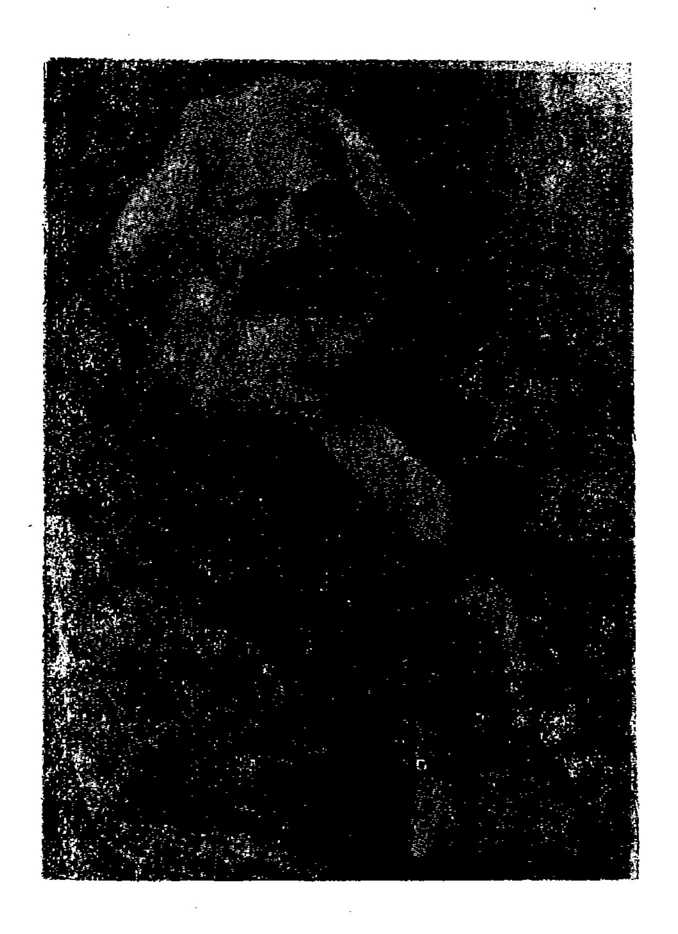
الا أن داروين هو الذى أفرغ هذه النظرية فى ثوبها العلمى الصارم ، جاعلا منها قانونا وقاموسا ، بعد أن أضفى عليها مظهرا من الوضوح والترابط ، وبعد أن ساق ألوف الحجج والملاحظات على تأييد فكرته ٠

ولم يكن داروين فى هذا الذى يقوله عن سنة الحياة والطبيعة من أنها تطور نحو الأكمل والأوفى من خلال الصراع المستمر ، الا عاكسا فى الحقيقة روح عصره الذى كان ينمو فى هذه الفترة من خلال الصراع ومن خلال اهدار كل القيم القديمة والأخذ بالقيم الجديدة ٠

غير أن داروين لم يكد يؤلف كتابه ، واصفا نواميس الحياة فى هذا القالب القاسى ، حتى أصبحت انجيل العلم والمعرفة لا فى علم الحياة فحسب ، بل فى شتى فروع العلوم كلها ، فأخذت كل العلوم والمعارف تنسق نفسها على أساس الفكرة الجديدة ، فكرة التطور الدائم والمستمر من خلال الصراع وتنازع البقاء والبقاء للأصلح ٠

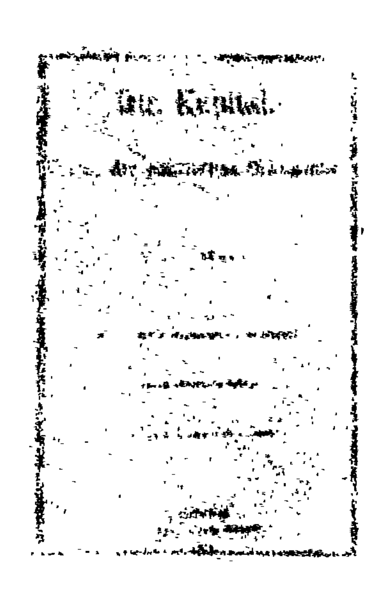
ونحن الآن وبعد وفاة داروين بأكثر من قرن من الزمان ، نستطيع أن نقول أنه أكسبنا من خلال مؤلفه هذا فهما جديدا للطبيعة والكون والانسان ٠ وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل ٠ فان كتاب « أصل الأنواع » قد حمل الى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات ، وانها جميعا ترجع الى أصل واحد أو أصول قليلة ، وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة ، وأن الانسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر ٠

كذلك فان نظرية التطور ليست معرفة فحسب ، لاننا لا نقتصر فيها على الوقوف على تاريخ الأحياء ، بل نكتسب منها مزاجا واتجاها ٠ لانها تجعل التطور مذهبا حيويا ، والارتقاء ضرورة اجتماعية ٠ ومن هنا قيمتها العالية للفرد والجماعة ٠ اذ هى تشعر الفرد الذى استوعبها انه يجب الا يركد أو يجمد ، لانه بهذا الركود ، و بهذا الجمود يناقض سنة الوجود ، كما أنها تشعر الجماعة أن تقصيرها فى الارتقاء هو مخالفة خطيرة وتحطيم مدمر لأسباب وجودها ٠ فالنظرية ليست معرفة عملية فحسب وانما هى مذهب اجتماعى أيضا ٠



(١٢) رأس المال

كارل ماركس



رأس المال
لكارل ماركس
١٨٦٧ م

الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع

ليس هناك من بين مفكرى القرن التاسع عشر من ترك أثرا مباشرا قويا فى الجنس البشرى مثـل كارل ماركس • فقد كان له على اتباعه ، ابان حياته وبعد موته ، نفوذ فكرى ومعنوى فريد فى قوته ، لا يماثله نفوذ آخر حتى فى ذلك العهد الذهبى ـ عهد القومية والديمقراطية ، الذى شهد ظهور أبطال وشهداء شعبيين عظماء وشخصيات رومانسية ، بل هى تكاد تكون أسطورية ، سيطرت حيـاتهم وكلمـاتهم على أخيلة الجماهير وخلقت تقليدا ثوريا جديدا فى أوربا • ومع ذلك لا يمكننا القول بأن ماركس كان شخصية شعبية فى أى وقت من الأوقات بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، فمما لا ريب فيه أن ماركس لم يكن بأى حال كاتبا أو خطيبا شعبيا • فقد كتب كثيرا ولكن أعماله لم تحظ بجمهور واسع من القراء ابان حياته ، وحتى عندما حظيت مؤلفاته بذلك الانتشار الضخم الذى

صـادفه الكثير منها فى أواخر العقـد الثامن من القرن الماضى ، لم تكن الرغبة التى حدت بالناس الى قراءتها وليدة ادراكهم لقيمتها الذاتية بقدر ما كانت ناجمة عن نمو شهرة الحركة أو سوء شهرتها التى اقترنت باسمه ٠

● سيرته من خلال فلسفته ومؤلفاته

ولد كارل ماركس فى الخامس من مايو سنة ١٨١٨ بمدينة تريير بألمانيا عن أب محام يهودى سرعان ما انقلب الى الديانة المسيحية ، بل ان أجداده من الجانبين كانوا ولأجيال متعددة من الحاخامات ولقد كان السبب فى تحول والده الى المسيحية هو تهدد مركزه بسبب القوانين المعادية لليهود بعد سقوط نابليون وضم أراضى الراين ٠

وبعد أن أتم ماركس دراسته الثانوية التحق بجامعة برلين فدرس الحقوق بصفة عامة وتخصص فى دراسة الفلسفة ، ودفعه استعداده الذهنى الرائع الى الانكباب على دراسة التاريخ فى نفس الحين ٠

وفى سنة ١٨٤١ استطاع ماركس أن ينجز دراسته بتقديم مناقشة حول فلسفة ابيقور Epicurus ولقد كان فى ذلك الحين تتسلط فلسفة الفيلسوف هيجل على القانون بصفة خاصة وعلى الفكر الألمانى بصفة عامة ٠

ولقد فشلت مسـاعيه فى أن يلتحق بالجامعة البروسية للتدريس بها ٠ فقد كانت محرمة على أمثاله من أصحاب الفكر الحر ٠ وفى سـنة ١٨٤٢ انتقل ماركس الى مدينة كولونيا وعمـل بالصـحافة المتطرفة ، وازدادت كتاباته الثورية واتضحت ، فعمدت الحكومة الى فرض رقابتها عليها ثم سرعان ما قررت اغلاقها ٠

أدرك ماركس من خلال نشاطه فى الصحافة أن معلوماته فى الاقتصاد السياسى غير كافية فاندفع ينهل من مصادرها ٠ وفى سنة ١٨٤٣ تزوج من كريز صديقة طفولته وقد كانت تنحدر من عائلة نبيلة ، وفى نفس العام انتقل الى باريس ليصدر مجلة مع أرنولد روغه ، وكانت تسمى « الحولية الألمانية الفرنسية » ولم يصدر منها سوى العدد الأول ثم اضطر الى التوقف لصعوبة التوزيع السرى والعلاقات مع روغه فى المبادىء ٠

فى عام ١٨١٤ حضر فردريك انجلز الى باريس لقضاء بضعة أيام ــ وكان انجلز قد بعثه أبوه الى انجلترا للتدريب على الأعمال ، وكان هيجلى يسارى استرعى نظره حال الوسط الصناعى فى انجلترا الذى أوحى اليه بكتابه الذى ظهر سنة ١٨٤٦ عن « حالة الطبقة العاملة فى انجلترا » وقد أصبح فردريك انجلز الصديق الحميم لماركس ٠٠ وفى يناير ١٨٤٥ طردته الحكومة الفرنسية بناء على طلب سفير بروسيا فلجأ الى بروكسل ٠

ولقــد انتحى ماركس وانجلز الى جمعيــة سرية تدعى « عصبــة الشيوعيين » وبعد ذلك عاد ماركس وانجلز الى مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى الذى انعقد فى لندن وبناء على تكليف من المؤتمر قاما بوضع « بيان الحزب الشيوعى » ٠

وعقب ذلك عاد ماركس مرة أخرى الى ألمانيا ليصدر جريدة جديدة وقد كتب فيها عن جميع الحركات العمالية والديمقراطية فى جميع بلدان العالم ٠ ثم أحيل ماركس الى القضاء سنة ١٨٤٩ ثم نفى من ألمانيا ، فانتقل ثانية الى باريس ، ثم طرد الى لندن فعاش فيها حتى آخر عمره ٠ ولقـد كانت ظروفه العائلية فى لندن شديدة الفقر ٠٠وفى مرحلة انتعاش النشاط فى الحركات الديمقراطية اندفع ماركس من جديد الى النشاط العلمى سنة ١٨٦٢ ، حيث تأسست فى لندن أول جمعيــة مشهورة « جمعيــة السفلية العمالية » وكان ماركس روحها ورافع رسالتها واستطاع بعد جهاد مرير أن يرسى دعائم نضال الطبقة العاملة فى مختلف البلدان ٠

● فلسفة ماركس فى التــاريخ :

لم يكن ماركس مجرد مفكر سياسى ، ولكنه كان داعية للثورة والتغيير بل وسعى لترجمتهــا الى واقع وأفكار ماركس قد ألهمت أيديولوجيــات الملايين من البشر فى كافة أنحاء العالم نظرا لمنطقيتها والطابع الانســانى الغالب عليها ومناداتها بتحرير الانسان من الاستغلال والاضطهاد ٠

وقد اعتقد ماركس كما اعتقد هيجل ــ ان التاريخ هو المفتاح الى فهم الانسان وصفاته ، ذلك لان هناك نموذجا متميز وهدفا معقولا فى تطوير القدرات الانسانية وثمة أنماط بعينها من النشاط ، سواء أكانت عقلية أم عملية لم تكن لتظهر الا بعد أن نمت الملكات الملائمة لها نموا كافيا وهذه بدورها شجعت على ظهور ملكات ومناشط جديدة لم تكن ممكنة أو متصورة فى مرحلة أشد تبكيرا ٠

ولقد قسم ماركس تاريخ البشرية الى خمس مراحل رئيسية وذلك طبقا لعلاقات الانتاج ودورها فى تاريخ البشرية :

١ ــ **مرحلة الشيوعية الأولى :** أو المجتمع البدائى والتى قامت على أساس الشيوع فى الملكية وفى استغلال الموارد الطبيعية ٠

٢ ــ **مرحلة العبودية :** حيث تميز المجتمع هنا ــ ويقصد به المجتمع الاغريقى الرومانى ــ بظهور الملكية الخاصة وبالتالى ظهور نظام الرق والعبيد كطبقة وظهور نظام الاستبداد كطبقة أخرى ٠

٣ ــ **مرحلة الاقطاع : أو** مرحلة القرون الوسطى وتميزت أيضا بوجود الملكيات الخاصة وبوجود الطبقات وأدوات الانتاج الرئيسية ٠

٤ ــ **مرحلة الرأسمالية :** أو مرحلة المجتمع الرأسمالى وهى النظام الذى تولد عن انتصار الطبقة البرجوازية وتحطيم النظام الاقتصادى الاقطاعى ٠

٥ ــ **النظام الاشتراكى :** أو مجتمع المستقبل الاشتراكى ، وهو النظام الذى سيرث النظام الرأسمالى ويرى ماركس انه أولى خطوات الشيوعية التى ينشد تحقيقها ٠ ويرى ان النظام الاشتراكى حتمى الحدوث وفقا للمادية التاريخية ويتميز هذا النظام بسيادة طبقة واحدة أطلق عليها اسم طبقة البروليتاريا حتى يتم التحول للشيوعية وتختفى الطبقية نهائيا ٠

● ● ●

● كتبه ومؤلفاته :

تأثر ماركس بالظروف فى انجلترا ــ الدولة التى عاش فيها بعد نفيه من ألمانيا ــ حيث أدرك ان الأوضاع فيها فى ظل النظام الرأسمالى فى التصنيع تعتبر أكثر تدنيا مما ساد فى ألمانيا مما جعله يعمم تحليله ليس فقط من واقع ألمانيا ولكن أيضا من الظروف السائدة فى وقته وتعتبر أفكار ماركس متكاملة وتكون أساس ما يعرف « بالاشتراكية الثورية » التى درج على تسميتها « بالشيوعية » والتى تختلف عن غيرها من الاشتراكيات فى انها اشتراكية علمية كما أطلق عليها ماركس على خلاف الاشتراكيات المثالية : حيث ترتكز على فلسفة محددة وحتمية للتاريخ كما انها ثورية

حيث تختلف عن الاشـــتراكيات الديمقراطية التى تنبذ الثورة وتهـدف الوصـول الى الاشتراكية بوســائل تدريجية بدلا من الثورة التى جعلتها الشيوعية أساسا لتحقيق أهدافها ، وفى هـذا المجال يؤكد ماركس رأيه قائلا : « ان المفكرين السياسيين طالما سعوا الى التعرف على العالم ولكن الفكرة الأساسية هى تغيره وليس التعرف عليه » ٠

والمتتبع منا لحياة ماركس يجد أن هناك ثلاث تيارات أثرت على أفكاره :

١ ـ **الفلسفة الكلاسيكية الألمـانية** : حيث تأثر بمنهـاج وفلسفة الفيلسوف الشهير هيجل Hegel ٠

٢ ـ **الاشتراكية الفرنسية التى واكبت الثورة** : فلقد تأثر بأفكار العديد من المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين من أمثال « بابيف » و « سان سيمون » Sain Simon ٠

٣ ـ **الاقتصاد السياسى الكلاسيكى الانجليزى** :

ولقـد بدأ ماركس كتاباته الاشتراكية المحـددة بالبيـان الشيوعى « المانفيستو » وقد وضعه بالاشتراك مع صديقه انجلز ، ولقد نشر هذا البيان فى ثلاثة وعشرين صفحة ، تنطوى على أفكار كل من ماركس وانجلز، مصـاغة فى شـكل مبـادىء وخطط على قدر المستطاع بأسـلوب يتميز بالحماسة والثورية والهجومية ٠

ولقد افتتح ماركس هذا البيان بعبارته الشهيرة : « ان تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات ومعنى النضال بين الطبقات هو ان كل شعب يحتوى فئات مختلفة فى المعيشة والمستوى الثقافى وسائر المستويات الأخرى وان هذا التباين هو ما يولد المسيطر والمسيطر عليه ٠ ومن هنا تنبعث هوة تؤدى الى الحرب الدائمة بين الطبقتين وان هذه الحروب لا تنتهى دئما الا بثورة أو بانهيار الطبقتين » ٠

ولقد تبع ذلك البيـان ، كتاب هام هو مساهمة فى نقـد الاقتصـاد السياسى ثم تبعه بكتابه الأسطورة « رأس المال » ذلك الكتاب الذى هز الفكر الاقتصادى والفلسفى والسياسى للعالم أجمع ، فلقد استودع ماركس هذا الكتاب خلاصة نظريته الاقتصادية وحللها تحليلا دقيقا وأوضح الطريق للوصول اليها ٠

وكتب ماركس أيضا عدة كتب أخرى منها : « الأيديولوجية الألمانية »

و « الصراعات الطبقية فى فرنسا » و « بؤس الفلسفة » و « حول المسألة اليهودية مساهمة فى نقد فلسفة القانون عند هيجل » و « الإقتصاد السياسى والفلسفة » و « العائلة المقدسة » ، « تاريخ المذاهب الفلسفية » :

هذا وقد عاش ماركس خمسة وستون عاما عانى فيها من الفقر والبؤس والمرض كأشد ما يكونوا ولقد رأى وهو بكامل صحته أول جزء من كتابه « رأس المال » بعد طبعه ، ولكن سرعان ما وهن القلم فى يده قبل ارساله المجلد الثانى والثالث الى المطبعة ، وفى السنوات العشر اللذين سبقوا وفاته عانى أشد المعاناة من المرض الى أن توفى عام ١٨٨٣ بمدينة لندن ٠

● رأس المال وقوانين التنظيم الاقتصادى

فوجىء العالم الأكاديمى بالمجلد الأول من كتاب كارل ماركس « رأس المال » Daskapital عام ١٨٦٧ ، وقد صدره بمقدمة قال فيها : « هذا المؤلف الذى أعرض القسم الأول منه على أنظار الجمهور ، هو استمرار لكتابى المنشور عام ١٨٥٩ بعنوان «نقد للاقتصاد السياسى» ٠

ولم يمتد بماركس الأجل كى يخرج بقية الكتاب الذى يعتبر بحق أعظم مؤلفاته ، ووقع العبء على انجلز الذى راح يجمع المسودات وينقحها ويربط بين أجزائها ، وبذلك أخرج المجلدين الثانى والثالث فى عامى ١٨٨٥ ، ١٨٩٤ على التوالى ، ثم جاء كارل كاوتسكى فأشرف على اخراج المجلد الرابع وهو من ثلاثة أقسام ويتضمن عرضا للمذاهب الاقتصادية . وقد ظهر هذا المجلد باسم Theorien uber den mehwert خلال السنوات ١٩٠٤ ــ ١٩١٠ ٠

وكان لظهور المجلد الأول من هذا الكتاب حدثا هاما فى تاريخ الاشتراكية الدولية وفى حياة ماركس نفسه ٠ وقد كتب على صورة بحث شامل فى قوانين التنظيم الاقتصادى للمجتمع الحديث وطريقة تكوينه ، يهدف الى وصف عمليات الانتاج والتبادل والتوزيع كما تحدث بالفعل ، وتفسير حالتها الراهنة بوصفها مرحلة بذاتها من مراحل النمو أوجدتها حركة الصراع الطبقى ، أو فى عبارة ماركس نفسه « لاكتشاف قانون

الحركة الاقتصادى فى المجتمع الحديث » عن طريق كشف القوانين الطبيعية التى تحكم تاريخ الطبقات • وجاءت النتيجة مزيجا غريبا من النظريات الاقتصادية ومن التاريخ وعلم الاجتماع ، مزيجا لا ينطبق عليه أى نمط من الأنماط المألوفة • ولا شك فى ان ماركس كان يعتبر مؤلفه هذا فى جوهره بحثا فى علم الاقتصاد ، فالاقتصاديون السابقون ، فى رأيه ، قد أساءوا فهم طبيعة القوانين الاقتصادية عندما قارنوها بقوانين علم الطبيعة والكيمياء وافترضوا انه على الرغم من أن الظروف الاجتماعية قد تتغير فان القوانين التى تحكمها تبقى ثابتة لا تتغير ، وكانت النتيجة أن جاءت نظمهم اما منطبقـة على عوالم خيـالية يسكنها أشخاص حـددت أنماطهم الاقتصادية على نسق المعاصرين للكاتب ذاته ، ومن ثم جاءوا عادة مزيجا من سمات لم تبرز بوضـوح الا فى القرنين الثـامن عشر والتاسع عشر ، واما انها تصف مجتمعات اختفت منذ أمد بعيد ، اذا كانت قد وجدت أصلا • ومن ثم فقد رأى ماركس أن مهمته هى أن يبتكر نظاما جديدا من المفهومات والتعريفات تنطبق بصورة محددة على العالم المعاصر وتوضع بحيث تعكس التكوين المتغير للحياة الاقتصادية ، لا فى علاقتها بالماضى فحسب ، بل وفى علاقتها بالمستقبل كذلك • وقد حاول ماركس فى المجلد الأول فى وقت واحـــد أن يضع سردا منظمـا لنظريات أساسية معينة فى علم الاقتصاد ، وأن يصور بصفة خاصة ظهور النظام الصناعى الجديد باعتباره نتيجة للعلاقات الجديدة بين أصحاب الأعمـال والعمل التى خلقها تأثير التقدم الفنى على وسائل الانتاج •

ومن ثم فقد تناول المجلد الأول من « رأس المال » عمليات الانتاج ، أى العـلاقة بين الآلة والعمل من ناحية ، والعـلاقة بين المنتجين الفعليين (العمـال وأولئك الذين يستخدمونهم ويوجهونهم) من ناحية أخـرى • وأما المجلدات الباقية ، التى نشرها منفذو وصية ماركس بعد وفاته ، فقد تناولت الأساليب المستعملة فى تسويق المنتجات المنتهية ، أى نظام التبادل والجهـاز المالى الذى ينطوى عليه ، كمـا تناولت العـلاقات بين المنتجين والمستهلكين التى تحدد سعر الفائدة والربح •

والفكرة العامة التى تتخلل المؤلف كله تشبه التى وردت فى « البيان الشيوعى » وفى كتابات ماركس الاقتصادية السابقة • فهى تتبع ظهور البروليتـاريا الحديثة عن طريق ربطها بالنمو العام للوسائل الفنيـة فى الانتاج • اذ عندما تصبح هذه الوسائل ، خلال تطورها التدريجى ، أكثر كلفة وأكثر تعقيدا من أن يستطيع كل فرد تكييفها لاستعماله الخاص ، يسيطر بعض الأفـراد ، عن طريق تفوقهم فى المهارة والقوة والقدرة على

التنظيم · أو عن طريق حادث من حوادث المصادفة ، على الآلات والأدوات ، وهكذا يجدون أنفسهم فى مركز يسمح لهم باستئجار عمل الآخرين بأن يعرضوا عليهم مكافآت ، فى صورة أجور منتظمة ، تفوق ما يحصلون عليه كمنتجين مستقلين يحاولون دون جدوى تحقيق نفس النتائج بوساطة الآلات القديمة العديمة النفع التى لا يملكون سواها ، وهكذا أضحى هؤلاء الرجال بأنفسهم ، نتيجة بيعهم عملهم لآخرين ، سلعا فى السوق الاقتصادى لعملهم سعرمحدد يتقلب كما تتقلب أسعار السلع الأخرى تماما ·

والسلعة هى أى شىء يتضمن عملا بشريا عليه طلب اجتماعى ، فهى بذلك كما عنى بايضاحه ماركس فى كتابه ، مفهوم لا ينطبق الا على مرحلة حديثة نسبيا من مراحل النمو الاجتماعى ، وليس مفهوما أبديا ، شأنه فى ذلك شأن أى قالب اقتصادى آخر · وذهب ماركس الى أن القيمة التجارية للسلعة تتكون مباشرة من عدد ساعات العمل البشرى التى يقتضيها صنع نموذج متوسط من نوعها بيد منتج متوسط (وهى وجهة نظر مستمدة من مبدأ شبيه بذلك على حد ما قال به « ريكاردو » Ricardo والاقتصاديون الكلاسيكيون) · وقد ينتج عمل يوم واحد يقوم به عامل شيئا ذا قيمة أكبر من قيمة الحد الأدنى من السلع التى يحتاج اليها هذا العامل لسد حاجات المعيشة ، وهكذا ينتج شيئا أثمن مما يستهلكه ، بل هو اذا لم يفعل ذلك فلن يكون لدى سيده أى سبب اقتصادى يدعوه الى استخدامه · فان قدرته ، بوصفها سلعة فى السوق ، يمكن الحصول عليها مقابل مبلغ « س » الذى يمثل الحد الأدنى الذى تتطلبه المحافظة على حياته فى حالة صحية تسمح له بأن يقوم بعمله بكفاية ، والبضائع التى ينتجها « ل » ، والفرق بين « س » و « ل » يمثل مدى ما أضفاه من زيادة على جملة ثروة المجتمع ، وهذا هوالفائض الذى يضعه صاحب العمل فى جيبه · وحتى استنزال المكافأة المعقولة مقابل ما يقوم به صاحب العمل بوصفه منظما ومديرا لعمليات الانتاج والتوزيع فسيظل هناك فائض ضرورى من دخل المجتمع يوزع ، فى رأى ماركس ، لا على المجتمع كله فى مجموعه ، بل يقتسمه فى رأيه — فى صورة ايجارات أو فوائد على الاستثمارات أو أرباح عمليات تجارية — أعضاء المجتمع الذين يطلق عليهم الرأسماليون أو البورجوازيون وحدهم ، وهم الذين يميزهم عن سائر أفراد المجتمع انهم وحدهم يحصلون ، بوصفهم الملاك الوحيدين لوسائل الانتاج ، على مثل هذه الزيادة التى لم يبذلوا فيها أى عمل ، ويكدسونها · وسواء فسر مفهوم ماركس فى القيمة على أنه يعنى سعر السوق الفعلى للسلع ، أو المعيار المتوسط الذى تدور حوله الأسعار ، أو الحد المثالى الذى تتجه نحوه الأسعار ، أو أنه السعر الذى يجب أن يكون فى أى مجتمع منظم على أسس

عقلية ، أو أنه شيء أكثر ميتافيزيقية وهيجلية بوصفه جوهرا لا يدرك يضيفه العمل البشرى الخلاق على المادة الصماء ، أو هو ، كما يقول النقاد الذين لا يميلون الى ماركس ، مزيج مشوش من هذا كله ، وسواء كانت فكرة الموجود الموحد الذى يسمى العمل البشرى « غير المميز » (الذى تتكون منه القيمة الاقتصادية تبعا لهذه النظرية) والذى لا يمكن مقارنة تعبيراته المختلفة الا من ناحية الكم وحدها ، صحيحة أو غير صحيحة ــ فليس من اليسير الدفاع عن الطريقة التى استعمل بها ماركس أى المفهومين ــ سواء كان هــذا أو ذاك فان نظـــرية الاستغلال التى تعتمد عليهـــا تظل متأثرة نســبيا • والفكرة الأساسية التى اجتـــذبت العمـــال ، الذين لم يفهموا فى أغلب الأمــر الدقائق المعقـــدة فى رأى ماركس عن العـــلاقة بين القيمـــة التبادلية والأسعار الفعلية ، هى انه لا لاوجـــد ســوى طبقة اجتمـــاعية واحـــدة ، هى طبقتهم ، تنتج ثروة أكثر ما تتمتع به ، وان هـذا الفائض يستولى عليه أشـخاص آخرون لا لشيء الا بفضل مركزهم الاستراتيجي بوصفهم المالكين الوحيـدين لوسائل الانتـاج ، أى للموارد الطبيعية والآلات ووسائل النقل والائتمان المالى وما اليها ، لانه بدون هذه الوسائل لا يستطيع العمال أن ينتجوا ، بينما تمنح السيطرة عليها أولئك الذين بيدهم هذه السيطرة القـدرة على ارغام بقية الجنس البشرى على التسليم بشروطهم تحت تهديد الموت جوعا •

ويصــور الكتاب الأنظمـة السياسية والاجتمـاعية والدينية على انها أسلحة فكرية ومعنوية القصد منها تنظيم العالم لصالح أصحاب الأعمال • فان هـؤلاء يستخدمون جيشـــا من الايديولوجيين : من خبــراء الدعاية والمفسرين والمدافعين والذين يتولون مهمـة الدفاع عن النظـام الرأسمالى وينمقونه ويخلقون حوله جوا أدبيا وفنيا الغرض منه زيادة الثقة والتفاؤل لدى أولئك الذين يستفيدون فى كنفه وجعل هذا النظام يبدو مستساغا فى نظر ضحاياه • بيد انه اذا كان تقدم الأساليب الفنية ، كما اكتشف « سان سيمون » (١) بحق ، قد منح ملاك الأرض ورجال الصناعة والمال ــ وكل نوع من أنواع الوسطاء ــ هذه القوة الفريدة لفترة ما ، فان تقدمها الذى لا يمكن التحكم فيه سوف يدمرهم بنفس الحتمية •

بعد ذلك يفرق ماركس بين جزأين من رأس المال ، وهما رأس المال الثابت constant الذى ينفق على وسائل الانتاج (المبانى ، الآلات ، المعدات، الوقود، المواد الأولية الخ) ، ورأس المال المتغير variable capital

---

(١) سان سيمون : فيلسوف اجتماعى فرنسى (١٧٦٠ ــ ١٨٢٥م) •

الذى ينفق على قوة العمل (الأجـور) ، ولكل من هذين الجزأين دور مختلف فى انتاج فائض القيمة • فوسائل الانتاج لا تخلق أية قيمة عن طريق اشتراكها فى عملية الانتاج ، بمعنى ان قيمة رأس المال الثابت تنقل بصورة كلية أو جزئية الى المنتج التام الصنع • أما رأس المال المتغير فينمو عن طريق خلق فائض القيمة فى أثناء عملية الانتاج • ونسبة فائض القيمة الى رأس المال المتغير تمثل درجة استغلال رأس المال للعمل ويقال لها معدل فائض القيمة النسبى • ويتحقق هذا الفائض المال الكلى (الثابت + المتغير) تمثل معدل الربح ••

ويحدث نمو فائض القيمة بطريقين ، أولهما اطالة يوم العمل ويطلق ماركس عليه اسم فائض القيمة المطلق • أما الطريق الثانى فيتمثل فى انقاص وقت العمل الضرورى ، ويسمى هذا فائض القيمة النسبى • ويتحقق هذا الفائض النسبى عن طريق زيادة انتاجية العمل ، فكلما زادت انتاجية العمل وانخفضت قيمة المنتجات قل وقت العمل الضرورى وبالتالى زاد وقت العمل الفائض ، وهذه هى الزيادة التى تحدث فى تلك الفروع من الصناعة التى تصنع للعمال تلك الضرورات للحياة التى تحدد قيمة قوة العمل • كذلك يحـدث الخفض فى وقت العمل الضرورى نتيجة لازدياد انتاجية العمل فى الفروع التى تنتج وسائل الانتاج التى تستخدم فى عمل السلع الاستهلاكية •

وقد يحاول الرأسماليون الفرديون أيضا الحصول على مزيد من فائض القيمة اذا أدخل أحـدهم تحسينات فنية لا يستخدمها الآخرون ، وبهـذا فالرأسمالى الذى يستخدم أساليب تكنولوجية متقدمة يحصل على فائض قيمة يزيد عن المعدل المعتاد • ولكن المنافسة ترغم الآخرين على أن يحذوا حذوه بأن يدخلوا فى عملياتهم الانتاجية تحسينات فنية •

●●●

وعندما حلل ماركس خلق فائض القيمة النسبى بحث ثلاثة مراحل تاريخية من زيادة **انتاجية العمل فى ظل الراسمالية** ، وهى :

١ ـ التعـاون البسيط •

٢ ـ والصناعة اليدوية •

٣ ـ والصناعة الآلية الكبيرة •

والتعاون البسيط الراسمالى هو تركيز عدد كبير من العمال الأجراء تحت اشراف أحد الرأسماليين حتى يصنعوا نفس النوع الواحد من المنتج •

ان الانتاج يقوم على تكنيك الحرفة اليدوية ، وليس فيه تقسيم للعمل ، ولكن تجميع مثل هذا العدد الكبير من العمال يحدث زيادة فى الانتاجية ٠

والصناعة اليدوية هى تعاون رأسمالى مبنى على تقسيم العمل ولكنه لا يزال مرتكزا على تكنيك الحرف اليدوية ٠ هذا النوع يجعل فى الامكان رفع انتاجية العمل بالقياس الى التعاون البسيط ، ولكنه لم يتمكن من القضاء على الانتاج الصغير ومن أن يصبح الشكل الغالب من الانتاج غير ان الرأسمالية استطاعت أن تحقق السيادة الكاملة حين انتقلت الى الصناعة الآليـــة ٠

●●●

هذا وقد تنبه ماركس فى كتابه « رأس المال » بأن الأزمات الدورية الناجمة عن الاقتصاد الذى يعوزه التخطيط وعن الصراع الصناعى الذى لا ضابط له ، لابد بالضرورة أن تزداد فى عددها وحدتها ، ولابد من قيام حروب على نطاق واسع لم يعرف لها مثيل من قبل تدمر العالم المتمدين الى أن يتحقق فى النهاية حل عنيف لمتناقضات النظام الهيجلى (٢) التى يعتمد استمرارها على صراع يتزايد أثره المدمر باستمرار بين الأجزاء التى يتكون منها ٠ وسوف ينتهى أمر مجموعة الرأسماليين الذين يأخذ سلطانهم السياسى فى التناقص باستمرار ، عندما يخلعهم العمال الذين يكون هؤلاء الرأسماليون أنفسهم قد دربوهم تدريبا ممتازا وجعلوا منهم هيئة متساندة منظمة ٠ وباختفاء آخر الطبقات المالكة ينتهى نهائيا الصراع بين الطبقات الذى هو وحـــده السبب الكافى فى النـــدرة الاقتصادية والتشـــاحن الاقتصـــادى ٠

ويقول ماركس فى نبذة مشهورة وردت فى الفصل الثانى والعشرين من المجلد الأول من كتاب « رأس المال » : « بينما يتناقص عدد أقطـــاب الرأسمالية بصورة متزايدة تكون هناك بطبيعة الحال زيادة مماثلة فى مجموع الفقر والاستعباد والامتهان والاستغلال ، ولكن دور الطبقة العاملة يزداد قوة باطـــراد فى نفس الوقت ــ وهى الطبقـــة التى يزداد عـــددها باستمرار ، وتدربها وتوحدها وتنظمها نفس آلية الأسلوب فى الانتاج الذى ازدهرت معه وفى ظله ٠ الى أن يبلغ تركيز وسائل الانتاج وازدياد

---

(٢) هيجل : فيلسوف المانى (١٧٧٠ ــ ١٨٣١) فلسفته مثالية مطلقة ٠ ولفلسفة هيجل أثر كبير على ماركس الذى أقام مذهب المادية الجدلية على أساس منطق الجدل الهيجلى ٠

عدد العمال نقطة يصبحان فيها غير متناسبين مع الاطار الرأسمالى الذى يوجدان داخله · وهنا ينفجر هذا الاطار ، فتدق الأجراس معلنة نهاية الملكية الخاصة ويجرد الذين كانوا يجردون غيرهم » ·

أما الدولة ، وهى الأداة التى كانت تستعمل فى فرض سلطة الطبقة الحاكمة بطريقة مصطنعة فستختفى بعد أن تكون قد فقدت وظيفتها ، وأخيرا نصل الى المجتمع المثالى ، الذى طلاه أصحاب المدن الفاضلة فى الماضى بألوان أكثر خيالا وأكثر بساطة مما ينبغى ، مجتمع لا سيد فيه ولا عبد ، لا غنى ولا فقير ، مجتمع تنتج سلع العالم فيه وفقا للمطالب الاجتماعية ولا تعرقل فيه نزوات الأفراد انتاجها ، ويتم توزيعها ، لا بالتساوى ــ فهذه فكرة عرجاء أخـذه العمـال عن الأيديولوجيين التحرريين بمفهومهم النفعى عن العدالة بوصفها مسـاواة حسـابية ــ بل على أساس عقلى ، أى على غـير مساواة : لانه كما تختلف حاجات الانسان وقدراته ، فان جزاءه ، اذا أراد أن يكون عادلا ، يجب أن يكون وفقا للقاعدة التى جاءت فى « البيان الشيوعى » « لكل حسن حاجته ، ومن كل حسب قدرته » · ويبدأ الناس ، وقد تحرروا أخيرا من طغيان الطبيعة وطغيان أنظمتهم التى أسىء تكييفها وأسىء الاشراف عليها فاستبدت بهم ، فى تنمية قدراتهم الى أقصى حدودها· وهـكذا تتحقق الحرية الحقيقية التى أشـار اليها هيجل فى كثـير من الغموض · وعندئذ فقط يبدأ التاريخ البشرى بمعناه الحقيقى ·

●●●

هذا الذى قدمناه خلاصـة مسرفة فى الايجاز لم نقصـد بها سوى التعريف بأهم الأفكار التى تضمنها هـذا الكتاب الذى أثر فى التـاريخ المعـاصر بأكثر مما أثر أى كتاب آخـر ، بل أن أثره يعادل تحطيم الذرة بالنسبة الى العالم الفيزيقى ·

● الكتاب الذى قامت باسمه الثورات

هذا وقد هيأ ظهور كتاب « رأس المال » آخر الأمر أساسا فكريا محددا للاشتراكية الدولية بدلا من تلك المجموعة المبعثرة من الآراء الغامضة المتعارضة · وقد كشف هذا الكتاب الضخم عن الاعتماد المتبادل بين كل النظريات الاقتصادية التاريخية والنظريات السياسية التى بشر بها ماركس

وانجلز ، كل منهما على الأخرى ، وأضحى هدفا يتركز حوله الهجوم والدفاع على السواء . وأصبحت جميع صور الاشتراكية اللاحقة تعرف على ضوء موقفها من الوضع الذى يرسمه . وتفهم وتقسم بالنسبة لأوجه الشبه بينها وبينه . ولم يلبث بعد فترة قصيرة من الركود أن بدأت شهرته تنمو حتى بلغت حدا غير عادى ، واكتسب قيمة رمزية أكثر من أى شىء آخر كتب منذ عصر الايمان ، بل لقد أصبح هذا المؤلف موضع تقديس أعمى وموضع حقد أعمى أيضا من ملايين من الناس الذين لم يقرأوا منه حرفا واحدا . أو هم قرأوا أو لم يفهموا أسلوبه ، وقامت باسمه ثورات فلم تلبث الثورات المضادة أن حشدت جهودها لمصادرته باعتباره أقوى أسلحة العدو مضيا وأشدها خداعا . وقام نظام اجتماعى جديد يعتنق مبادئه ويرى فيه تعبيرا نهائيا لايمانه الذى لا يتغير . وأدى الى ظهور جيش من المفسرين وأصحاب الفتاوى الذين بذلوا جهودا لا تنقطع قرابة ثلاثة أرباع قرن دفنت الكتاب الأصلى تحت جبل من التعليقات التى بز أثرها اثر هذا السفر المقدس نفســه .

أما فى حياة ماركس نفسه فقد كان نشر الكتاب لحظة حاسمة . لقد قصد من كتابه أن يكون أعظم ما أسهم به فى تحرير البشرية ، فضحى من اجله بخمسة عشر عاما من حياته وبكثير من طموحه ومطامعه ، نعم ، فلقد كان الجهد الذى بذله فى تأليفه ضخما حقيقة . ومن أجله تحمل الفقر والمرض والاضطهاد الشخصى والعام ، عانى كل ذلك لا بسرور طبعا ، ولكن بطريقة رواقية فيها من القوة والخشونة ووحدة الهدف ما أثر فى كل من اتصل به وأضافه .

وقد علقت زوجته على هذا الكتاب بقولها : انها كانت تفضل أن يكون لزوجها رأس مال ، بدلا من الكتابة عن رأس المال .. !

ولسنا نعدو الواقع اذا قلنا أن « رأس المال » أخطر كتاب ظهر فى العصر الحديث ، بل انه كتاب بدأ عملية تغيير مجرى التاريخ .

●●●



(١٣) النظرية النسبية

أينشتين

النظرية النسبية
لأينشتاين
١٩٠٥ م

اعظـم قانون عـرفه البشـر

في صمت وهـدوء أحدث آينشتاين ثورة هائلة في العـلم ٠٠ ثورة أذهلت العالم . وقلبت في العقل البشرى مفاهيم الزمان والمكان والحركة والمادة والطـاقة وغيرها ٠٠ بل انها امتدت الى اعادة تشـكيل نظرتنا الى المستقبل ٠

ولا أظن ان أحدا استطاع آن يحدث أثرا في العلم أعظم مما فعل ألبرت آينستاين ٠٠ لقد أحدث ثورة عميقة في مجال علم الفيزياء سوف تمتد آثارها بغير شـك الى أجيال أخرى قادمة ٠٠ وهي بغير تجاوز حـدود الموضـوعية والأمانة تعد ثورة بكل ما تعنيـه هـذه الكلمة من مفـاهيم ومدلولات ٠

فقد كان لما جاء به آينشتاين الفضل الأول في تلك الطفرة العلمية التكنولوجية التي شهدها العالم في الربع الأخير من هذا القرن ٠ ولا أعتقد انني في حاجة الى الحديث عن آثار هذه الطفرة العلمية التكنولوجية في

مختلف مجالات الحياة · فنحن نعيش وسط ما نحققه من معجزات علمية تتدفق كطوفان هادر من حولنا كل يوم ، ومن ثم فان ما أحدثه آينشتاين فى تاريخ البشرية هو ثورة بحق وبصدق وبغير ادعاء ·

ولقد وضعه برناردو شو مع عدد قليل من عظماء التاريخ فى مكانة سامية ، ووصفهم بقوله : « انهم بناة التاريخ والعالم » · وقال عنه أعظم الكتاب العلميين فى انجلترا وهو ج· صلفين « انه أحد ثلاثة فقط فى تاريخ العلم يجلسون على القمة » · بل لقد وصفه بعض العلماء الذين يعرفون قيمة نظرياته العلمية بانه « انسان فوق مستوى البشر » ·

وقد يملأنا العجب اذا علمنا انه قد كتب عن آينشتاين منذ نشأته الاولى سنة ١٩٠٥ وحتى سنة ١٩٥٢ وقبل وفاته بثلاث سنوات ٤٣٠٠ كتاب كامل ولا يدخل فى هذا العدد الكتب التى وردت فيها اعماله العلمية وهى تعد بعشرات الآلاف !!

● جـــذور العبقـــرية

واذا أردنا أن نحدد ملامح العبقرية عند آينشتاين · نجد انها مؤلفة من عناصر **مختلفة ومتناقضة :**

ثورة على التقاليد ·· قدرة على النقد الصائب ونقد لنفسه ونظرياته ·· حب الهدم والعناية بالبناء ·· نظرة شاملة للأمور تتناول جميع نواحى الموضوع وتسعى الى تفسير عام شامل على أساس علمى واحد ·· خيال خصب وقدرة مذهلة على التركيز ·

وساعد على ذلك الظروف التى نشأ فيها آينشتاين · فقد ولد فى يوم ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ فى مدينة أولم بالمانيا ـ وهى نفس المدينة التى ولد فيها القائد الالمانى الاسطورى روميل ـ وكانت طفولته لا تنبىء بأدنى قدر من العبقرية · فقد بدا طفلا متخلفا بدرجة هائلة · وظل عاجزا عن الكلام حتى بلغ الثالثة من عمره ·

وفى سنوات عمره الأولى لم تكن هناك أية ملامح نبوغ تبدو عليه · كان مشاغبا يثير المتاعب لمدرسيه بكثرة أسئلته والى الحد الذى قال له مدرس يوما ما : « أنت لن تفلح مطلقا فى حياتك ·· ولن تكون شيئا على الاطلاق » ··

ولكن المدرسين لم يعرفوا آينشتاين جيدا ·

وهو فى الخامسة من عمره عشر على بوصلة صغيرة ٠٠ أذهله هذا الجهاز الصغير ـ ما هى القوة التى تجعل الابرة تأخذ هذا الاتجاه دائما ٠ كان متدينا الى درجة كبيرة خلال سنوات عمره الأولى ٠٠ فى السادسة عشرة من عمره استنبط أول نظرية جديدة ٠٠ ليس فى المعمل ولكن فى عقله ٠٠ دارت النظرية حول انتقال الضوء ٠٠ فى هذه الفترة كانت العقول الضخمة تؤمن ان الضوء مادة ٠٠ تنتقل كما تنتقل المواد الأخرى ٠٠ ولكن آينشتاين كان أول من تصور أن انتقال الضوء مختلف وأنه ينتقل فى شكل موجات ٠٠

كان والده قد افتتح محلا تجاريا فى ألمانيا ولكن تجارته فشلت ٠٠ فقرر الأب أن يزاول نشاطا تجاريا آخر فى ايطاليا ٠٠

وجد آينشتاين نفسه مضطرا الى ترك المدرسة والى ترك جنسيته الألمانية أيضا ٠٠ كان طالبا فى مدارس ميونيخ ٠ ثم قرر الالتحاق بمعهد التكنولوجيا فى زيوريخ ٠ رسب فى الامتحان ٠ لم يحصل على الدرجات المطلوبة فى علم الحيوان واللغات ٠ دخل مدرسة خاصة لرفع مستواه فى هذه المواد ٠٠ ثم عاد بعد عام للمعهد التكنولوجى ٠٠

ولكن ثورته الداخليـــة كانت مســتمرة ٠ لم يكن يحضر الدروس ولا يستمع الى المحاضرات ٠ كان يقرأ فقط ما يمتعه وما يستهويه من المواد العلمية ٠ كان مصرا على البقـــاء فى المعمـــل بدلا من الذهاب الى قاعـــة المحاضرات ٠ وصف مدرس الرياضـــيات هرمان منيوبســكى ٠٠ الطـــالب آينشتاين خلال هذه الفترة بأنه كالكلب الكسول ! فى نهاية العام ٠٠ طلب آينستاين من زميل له أن يقـــدم له كراسة المحاضرات ٠٠ بهـــذه الكراســـة وبقراءة ما فيهـــا بسرعـــه وعلى عجـــل نجح آينشـــتاين فى امتحان نهاية العام ٠ ولكى يتخرج من المعهد سنة ١٩٠٠ كانت درجاته ضعيفة لهذا لم يحصل على منصب فى المعهد ولم يصبح بين هيئة البحث أو التدريس فقرر أن يكسب عيشه من خلال حل المسائل الرياضية كباحث فلكى ٠ فى سن الثالثة والعشرين عثر آينشتاين على وظيفة ممتحن فى هيئة تراخيص فى مدينة برن بسويسرا ٠ كان اسم الوظيفة هو « خبير تكنولوجى » من الدرجة الثالثة ٠٠

ويقول آينشتاين : وقد أنقذت هذه الوظيفة حياتى ٠٠ ذلك لانه من خلالها وجدت المأكل والمسكن ـ وعرفت زميلتى ـ كان اسمها ميلكا ماريك ٠٠ تزوجتها ٠٠ » ومن خلال فحصه لبراءات الاختراع الجديدة عرف الكثير واستطاع أن يفرق بسهولة بين ما هو حقيقى وما هو زائف !

ورفعه هذا العمل بالذات الى التفكير فى علوم الطبيعة « الفيزياء » ٠٠ كان لديه الكثير ليفكر فيه ٠ نظريات نيوتن للجاذبية ٠ وقد دخلت القرن الثانى من عمرها ٠ لم تكن هذه النظريات كافية عند آينشتاين لتفسير العديد من الظواهر ٠

وفى نهاية القرن التاسع عشر ــ كانت نظريات نيوتن تعانى من فجوات حادة ٠٠ مثلا ٠٠ يقول نيوتن : أن الضوء جزئيات ٠ أو موج من الجزئيات٠٠ولكن التجارب أكدت ان الضوء ليس جزئيات ولكنه موجات٠٠ بل ان عالمين هما سكوت جيمس ماكسويل وميشيل فاراداى Farday قد أعلنا أن المغناطيسية الكهربائية والضوء لا يخضعان لنظريات نيوتن ٠٠!

ولكن اذا كان الضوء موجات فكيف ينتقل ؟

الكون حول الأرض فراغ ٠ لكى ينتقل الضوء من الشمس للأرض لابد من شىء ينتقل من خلاله ٠٠ لابد أن هناك شيئا ما ينتقل لها ٠٠ لهذا سماها العلماء : الأثير ٠٠ ! والموجات هى موجات الأثير ٠٠ !

ولكن لابد لصحة النظرية من اثبات وجود هذا الشىء الذى سموه الأثير ٠٠ لابد من العثور عليه٠٠لابد من الامساك به٠٠فحص خواصه ٠٠! لابد من معرفة مصدره وسببه ٠٠ !

قال عالم اسمه ألبرت هيكلسون وزميل له اسمه ادوارد مورلى morley انهما أجريا تجربة هامة عام ١٨٨٧ تأكدا من خلالها من وجود الأثير ٠٠ قال : ان الأرض تدور حول الشمس بسرعة تصل الى ٣٠ كيلومترا فى الثانية ٠٠ وهذه الحركة فى حد ذاتها هى التى تولد الأثير٠٠

والتجربة هى أنه حينما يسير شخص يركب دراجة فانه يحس بشىء بارد يلفح وجهه ٠ هذا الشىء غير موجود لو كان الشخص واقفا على قدميه بدون دراجة ٠ لابد أن هذا الشىء هو الأثير !

واستمر العالمان فى تجاربهما وفرحا بنتيجة هامة ومؤكدة ٠٠ وهى انه ليس هناك شىء اسمه الأثير !

واستمرت الآراء تتدفق عن نظرية نيوتن ، حتى جاء آينشتاين ليقدم وهو فى السادسة والعشرين الاجابة المقنعة ٠٠ وهى نظرية النسبية ٠٠

كان ذلك فى عام ١٩٠٥ ٠٠ وفى بحثين لم يلتفت اليهما كثير من العلماء يومها جاءت النظرية الهامة ٠ البحث الأول والثانى لم يكن لهما اسم نظرية النسبية ــ كان الأول بعنوان « حول الديناميكا الكهربائية للأجسام المتحركة » ٠

رفض آينشتاين تماما فكرة الأثير من أساسها ٠٠ قال : ان الضوء يسير بسرعة ثابتة لا تتغير مهما تحرك مصـدر الضوء ٠٠ أى ان حركة المصدر لا تؤثر على سرعة الضوء مطلقا ـ لو انطلق الضوء من جسم ثابت فان سرعته هى نفسها سرعة الضوء المنطلق من طائرة سريعة !

شىء يصعب تصوره ٠٠ ! ليس هذا فقط ـ بل ان آينشتاين قال : ان نيوتن أخطأ حين تصور ان الوقت شىء مطلق وأنه ليس مرتبطا بشىء آخر ـ وهو يتدفق من الماضى نحو المستقبل ٠ قال ان الوقت شىء نسبى ٠٠

قال آينشتاين ان نيوتن أخطأ حينما قال ان وحدات القياس ثابتة ٠٠ والصحيح أن وحدات القياس نسبية أيضا ! وان الثابت الوحيد فى الكون هو سرعة الضوء ٠٠ !

الوقت نسبى ! والمكان نسبى ٠٠ ! والمساحة نسبية ٠٠ ! والمادة نسبية ٠٠ !

والثابت الوحيد : سرعة الضوء !

كيف هـذا ٠٠ ؟!

● النسـبية الخاصـة

RELATIVITE RESTREINTE

فى هذا البحث أدمج آينشتاين بعبقريته الزمان والمكان ، واعتبرهما وحدة لا غنى للواحد منها عن الآخرى . فليس لك آن تتحدث عن الزمان دون المكان ولا عن المكان دون الزمان ، ولا يعتقد القارىء ان هـذا مجرد رياضة للفكر أو فلسفة لا أثر لها على حياتنا ، فقد استنتج آينشتاين من هذه الوحدة أعظم قانون عرفه البشر ، وذلك ان المادة هى الطاقة وان الطاقة هى المادة وأوجد المتساوية التى نعرف بمقتضاها قدر الطاقة من قطعة من المادة أيا كان نوع هـذه القطعة . علاقة أدخل فيها مربع سرعة الضوء ، كذلك أكد ان الطاقة بدورها يمكن أن تتحول الى مادة ، وقد خلق أخيرا « لورانس » Lowrence فى أمريكا بروتونا وهو أحد جسيمات نواة الذرة من الطاقة . وعلى هذا الأساس فان هذا القلم الذى أخط به هذا

الكتاب هو مادة وهو اذن طاقة ، وهذه الوردة الجميلة التى أمامى هى مادة ، ولو أمكن تحويلها بأكملها الى طاقة لأمكن أن نسير بها قاطرة من القاهرة الى أسوان ونعود بها الى القاهرة ، ويتبقى من طاقتها ما قد نستطيع أن نسير بها هذه القاطرة مرات أخرى ٠

وهذه النسبية الأولى علمتنا أن سرعة الضوء هي سرعة كونية لا يجوز التحدث عن سرعة تعلوها ، وان انتقال الضوء فى غير حاجة الى هذا الأثير الذى فرضه العلماء لتفسير انتشار الضوء وسيران الكهرباء ٠

ترى ما الذى حدا بآينشتاين وهو فى السادسة والعشرين من سنى حياته أن يدخل بثاقب فكره فى قضية الزمان والمكان ؟ ٠٠ ما الذى حدث فى زمانه وقبل زمانه أى قبل سنة ١٩٠٥ ، السنة التى نشر فيها أول نشراته عن النسبية ، ليحمله على أن يتأمل موضوع حقيقة الزمان والمكان ويتعمق فيهما بطريقة لم يتعمق فيهما غيره من قبل ٠

ما هو الحادث الذى أثاره وجعله يفكر فيخرج على العالم بالنسبية التى هزت العالم هزا ؟ ما هى المسألة التى حاول أن يتعرض لها فى هذه السنة المثمرة سنة ١٩٠٥ ، فلما أصاب فى حلها كتب له الخلود ٠

هذا الحادث كان خاصا بالتجربة التى يعرفهـا كل من جلس فى صفوف الدرس وهى تجربة « ميكلسون » (١) و « مورلى » (٢) ٠

كانت أول تجربة لميكلسون ـ التى أشرنا اليها ـ لاثبـات سرعة الأرض فى الأثير ، هذا الوسط الفرضى الذى يملأ الكون ، وقد أجراها سنة ١٨٨١ فى بوتسدام بألمانيا وكان عمر آينشتاين سنتين !

كانت النتيجة السلبية فى تجربة ميكلسون ومورلى عجيبة بالنسبة للعقيـدة العلمية السائدة والمتأصلة من أن الأرض والكواكب تتحرك فى الأثير ، وهكذا خلقت التجربة موضوعا محل دهشة العلماء فى كل بقاع الأرض ٠

ولقد أعيدت التجربة التى أعطت هذه النتيجة الغريبة بواسطة مورلى والعالم الكبير ميلر miller سنة ١٩٠٢ وأعطت النتيجة السابقة ٠

ولو أننا اعتبرنا ان شعاع الضوء يسير مرة مع اتجاه سير الأرض

---

(١) ميكلسون : البرت ابراهام ميكلسون : استاذ فى جامعة شيكاغو بامريكا حصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٧ وتوفى عام ١٩٣١ ٠

(٢) مورلى : أستاذ الفيزيقا اشترك مع ميكلسون فى تجربته الخالدة التى شرحناها ٠

ومرة في الاتجاه المضاد ، فباعتبار ان سرعة الضوء هي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية وسرعة الأرض هي حوالي ٣٠ كيلومتر في الثانية فالمفروض في هذه التجربة الأخيرة أن تكون النتيجتان ٣٠٠ ألف + ٣٠ ، ٣٠٠ ألف - ٣٠ ٠

قد يقول القارىء ان فارق السرعتين وقدره ٦٠ كيلومتر في الثانية بنسبة سرعة الضوء وهي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية بسيط جدا لدرجة أن يكون هناك ما يسمونه الخطأ التجريبي اذ ان النسبة هنا هي ٦٠ على ٣٠٠ ألف أي $\frac{١}{٥٠٠٠}$ ، ولكن كل هذا أخذ في محل الاعتبار ، وان القياس كان دقيقا للغاية ٠

وانتظر العالم في حيرة الى أن جاء آينشتاين سنة ١٩٠٥ وبعد التجربة السابقة بربع قرن بتفسير رائع فوضع للزمان والمكان تعاريف جديدة ووضع لسرعة الضوء تعريفا ثابتا لا يتعلق بالمركبة التي تحمله ٠

وفي هذا رفض آينشتاين فكرة المكان المطلق كما رفض أيضا فكرة الزمان المطلق ، وكان ذلك سببا مباشرا ليكتشف أعظم قانون في الوجود وهو علاقة المادة بالطاقة ، ولا نود أن ندخل في المعادلات الصعبة الخاصة بهذا البحث ، وانما نذكر أن آينشتاين وصل الى هذه النتيجة الباهرة بتعليل بسيط ، فقد اعتبر ان كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد سرعته، وحيث أن الحركة هي نوع من أنواع الطاقة فان مقدار الكتلة الزائدة للجسم المتحرك تنتج من طاقته الزائدة ، وبالاختصار فان للطاقة كتلة ، وقد استطاع آينشتاين ايجاد مقدار الكتلة المعادلة لوحدة الطاقة ، واستنتج من ذلك أن :

الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء ٠٠

أي ان الطاقة المختزنة في أي جزء من المادة تعادل مقدار كتلة المادة مقدرة بالجرام مضروبة في مربع سرعة الضوء مقدرة بالسنتيمتر في الثانية ٠

●●●

ومنذ أن طالع آينشتاين مع الفهم والوعي والتعمق نتائج تجربة « ميكلسون » و « مورلي » بدأ يراجع عقيدته في الزمان والمكان ٠

منذ القدم والعلماء يعتبرون المكان والزمان شيئين مستقلين ومنفصلين تماما بعضهما عن بعض ، واذا رجعنا الى ما سطره نيوتن نجد انه عرفهما كما يأتى :

« المكان المطلق ودون الرجوع الى شيء خارجي يظل أبد الدهر متشابها وساكنا ـ الزمان المطلق يسرى بانتظام على الدوام دون الرجوع الى شيء خارجى » ·

ولقد أدرك آينشتاين ان حادثين يفصل بينهما فاصل مكانى يمكن ان يؤدى بهما هـذا الانفصال المكانى الى وجود فرق زمنى بينهما عنـد رصدهما من جهاز آخر فى حالة من الحركة ·

وهكذا برهن آينشتاين فى النسبية الخاصة بما لا يقبل الشك بانه من الخطأ الاعتقاد بوقوع حادثتين فى وقت واحـد فى عالم غـير متصلة أجزاءه ·

وكان من الضرورى ايجـاد قاعدة جديدة للمحصـلات فى الميكانيكا عند التحدث عن السرعة فى الاتجاهات الثلاثة المعروفة يدخل فيها عامل الزمن وسرعة الضوء ، كذلك فى حالة كتله من المادة فى حركة عندما يقارن الباحث وصف مجموعتين متحركتين ـ وقد وجد آينشتاين ضالته وأكد ان الزمن والمسافة كميتان متغيرتان ، فالساعة تؤخر كلما زادت سرعة الجسم ، ولكن المسطرة تنكمش ويقل طولها فى اتجاه حركتها ، فاذا وصلت الى سرعة الضوء كان طولها صفرا أى انها تنعدم أما الساعة فانها تقف تماما ·

وذكر ان العادة هى التى املت علينا معتقداتنا الأولى الخاطئة ، تلك الأخطاء التى هى من رواسب رسخت فى عقولنا فى سن المراهقة ·

وهكذا بينت النظرية النسبية الخاصة أن الفضاء والزمن شيئان سببيان يتغيران بحركة الشخص المراقب وكان من نتيجتها اولى انتصارات آينشتاين من أن المادة هى الطاقة ويمكن ان تتحول اليها وان الطاقة هى المادة وممكن أن تتحول اليها ·

●●●

● النسـبية العـامة

LA RELATIVITE GENERALE

بعـد أن حكمت العلوم قوانين نيوتن المعروفة في الحـركة وفى الجاذبية قرنين من الزمان سمحت لأمثال « لاجرانج » والذين أخذوا عنه و « لابلاس » و « فرنل » و « كوشى » والذين تتلمذوا عليهم بتوسيع فروع العلوم المختلفة والوصول الى تطبيقات غاية فى الروعة للميكانيكا النيوتونية ، والذين رغم جهودهم وذكائهم الخارق ظل التفسير الميكانيكى للكون غير مفهوم ، حتى ان قانون الجاذبية لنيوتن الرائع فى تطبيقه السهل فى معرفته لم يصبح مفهوما فى القرن الذى نعيش فيه ، اذ كيف ان الجاذبية تنتقل من جسم الى آخر دون وسط ينقلها وفى غير ما زمن ، الأمر الذى تراءى لآينشتاين انه غير معقول ·

كان قانون الجاذبية عند نيوتن يصف أن جسمين يجذب بعضهما الآخر بقوة تسـاوى حاصـل ضرب كتلة الجسمين مقسـوما على مربع المسافة بينهما دون فهم للزمن الذي يمر لتصل قوة الجذب من أحدهما للآخر ولا للوسط الذى تنتقل فيه هذه القوة ·

أما قانون الجاذبية عند آينشتاين فهو لا يشمل الاشارة الى أى قوة بل يصف سلوك الأجسام فى الكون أو فى « الفضا زمن » سلوكا يحتمه وجود المادة فى الكون ، وقوانين آينشتاين الجديدة تصف خواص المجال لمتصل « الفضا زمن » وقد أمكن تفسير بعض الظواهر الفلكية بالطريقة الجديدة ولم يمكن تفسيرها بقوانين نيوتن ·

مثال ذلك ملاحظة خاصة بمدار كوكب المريخ الذى يدور فى شكل القطع الناقص ولكنه يتقدم بمقدار ٤٣ ثانية فى الزوايا أى فى القوس كل قرن من الزمان كذلك عطارد أقرب الكواكب الى الشمس فان له فوق دورانه حول الشمس ذبذبة بسيطة وبطيئة فسرتها رياضيات آينشتاين ولم تفسرها رياضيات نيوتن وهى الظاهرة المعروفة باسم ذبذبة عطارد ·

ولقد كان ثانى انتصار لآينشتاين تنبؤه بظاهرة كونية جديدة لم يحلم بها عالم من قبل ، وهى تأثير وجود الأجسام على الضوء الذى هو فى الواقع تعديل لفكرة الجاذبية ·

لقد علمنا من النسبية الأولى ان الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء ، وباعتبار ان الضوء نوع من الطاقة أى ان للضوء

كتلة لذلك فانه يجب أن يتأثر في مجال الجاذبية أى بجوار الأجسام ، فينشأ عن ذلك انحراف الشعاع بجوار الكتلة ٠

وقد استطاع آينشتاين أن يستنتج من هذه الاعتبارات ان الضوء مثل أى جسم مادى ينحرف عند مروره فى مجال الجاذبية جسم ذى كتلة، واقترح لاختبار صحة نظريته ملاحظة مسار شعاع ضوئى صادر من نجم بعيد عندما يقترب الشعاع من الشمس ، ولما كانت النجوم لا ترى نهارا فلا توجد الا فرصة واحدة لرؤية الشمس والنجوم معا فى السماء وذلك عند كسوف الشمس ، ورأى أن تؤخذ صور للنجوم القريبة من الوجه المظلم للشمس أثناء كسوفها ، وتقارن بصور نفس النجوم فى وقت واحد وبعد الكسوف ٠

وقد حسب آينشتاين ان درجة انحراف الشعاع ستكون ١٫٧٥ ثانية فى الزوايا من القوس ، وانتظر العلماء فى كل أنحاء العالم على لهف نتائج بعوثهم التى سافر خمسة منها الى المناطق الاستوائية لتصوير كسوف الشمس الذى حدث فى يوم ٢٩ مايو سنة ١٩١٩ ، ووجدوا أن انحراف أشعة النجوم بلغ حوالى ١٫٦٤ ثانية فى مجال جاذبية الشمس ، وهو مقدار قريب جدا من نبوءة آينشتاين ، ويتفق فى حدود الخطأ التجريبى ، ولعل هذا أكبر انتصار شهده عالم معاصر فى حياته ٠

●●●

وهكذا أصبح آينشتاين بطل العلم ٠ وقد خصصت فى الولايات المتحدة الأمريكية جائزة قدرها ٥٠٠٠ دولار لملخص النظرية النسبية ، لا يتجاوز حجمه ٣٠٠٠ كلمة ٠ وقد دهش آينشتاين ، وعبر عن دهشته قائلا : « اننى فى الحقيقة لا أدرى كيف أن بعض الشخصيات النادرة فى أرجاء العالم ، بعد كتابة عدد قليل من البيانات ، هم وحدهم الذين قدروا ما وصلت اليه من شهرة » ٠

وتتويجا لهذا المجد ، منح آينشتاين جائزة نوبل للسلام ، وقد بادر بتوزيع قيمة الجائزة (٤٥٠٠٠ دولار) مناصفة بين زوجته واحدى الجمعيات الخيرية ٠ ولم يتأثر آينشتاين بما أحرزه من نجاح ، واعتبر نفسه مجرد خادم متواضع للبشرية ٠ وهو فى ذلك يقول : « ان الاهتمام بالانسان وبقدره ، يجب أن يكون دائما فى المحل الأول بين جميع الجهود الفنية ٠٠ ان الحياة التى تكرس للآخرين ، هى وحدها الجديرة بأن تحيا » ٠

ثم واصل آينشتاين أبحاثه ، ففي عام ١٩٢٩ أصدر نظريته عن « الحقوق المتحدة » لكى يلخص بها ، عن طريق مجموعة من المعادلات ،

القوانين التى تتحكم فى القوتين الرئيسيتين فى الكون ، وهما الجاذبية والكهرومغناطيسية · وقد ظل يعمل فى بحث هذا الموضوع طيلة الثلاثين سنة الأخيرة من حياته ·

● النتائج الفلسفية والمعلومات العامة نتيجة نظرية النسبية

قد يهم القارىء بعد دراسة هذه النظريات العويصة التى اصطحبناه فيها محاولين التبسيط قدر المستطاع أن نذكر نتيجة تلك الأبحاث التى قام بها ذلك العالم العبقرى ·

فقد أمكن لآينشتاين آن يستنتج من بعض الحقائق الفلكية ومن مجهوداته السابقة ان الكون ليس كما تصوره اقليديس وكما ظنه العلماء بأنه كون لانهائى — انما هو كون محدود ، وقرر ان التركيب الهندسى للكون كمجموعة يجب أن يتشكل بتأثير مجموعة الأجرام المادية فيه ، فكل تركيز مادى فى الكون لابد أن يصحبه تحريف فى متصل « الفضا زمن » ، وكل جرم سماوى وكل مجرة لابد أن تخلق حولها وبين نجومها تحويرات محلية وغير منتظمة ، وكلما زاد تركيز المادة كلما زاد انحناء الفضا زمن ، والنتيجة النهائية أن يصبح متصل الفضا زمن كله منحنيا يتبع تحويرا وانحناء ناتجا من مجموعة الأجرام المادية فى الكون التى تسبب انحناء المتصل حول نفسه ، ويصبح الكون كله مقفلا على نفسه ، وعلى ذلك فالكون محدود وليس كما تصوره اقليدس ، وأحسن تشبيه له ما قاله السير جينز jeans : « انه كفقاعة الصابون التى بسطحها تجعيدات والكون فى هذه الحالة ليس داخل الفقاعة بل انه مادة السطح نفسها ولفقاعة الكون أربعة أبعاد ثلاثة منها الفضاء والبعد الرابع الزمن » ·

وحيث ان انحناء الكون يمكن تقديره بالأجرام الموجودة فيه فان المسألة الكونية ممكن حلها بالحصول على الرقم الذى يبين متوسط كثافة المادة فى الكون — وقد قدر العلماء المعاصرون ، بدراسة عينات من مساحات السماء لمدة عدة سنوات من أن يعرفوا متوسط المادة فى الكون ، وأن يقدروا ان متوسط الكثافة يبلغ واحد على ١٠ أس ٢٨ جرام فى كل سنتيمتر مكعب من الفضاء ، وبتطبيق هذا الرقم على معادلة المجال

لأينشتاين حيث قدر ان نصف قطره كرة الكون تبلغ ٣٥ بليون سنة ضــوئية والبليون هو ألف مليون ، والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة بسرعته المعروفة وقدرها ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، ولو أراد القارىء أن يحسب هذا الطول فما عليه الا أن يضرب هذا الرقم في ٦٠ لكي يحصل على المسافة التي يقطعها الضوء في الدقيقه ثم في ٦٠ ليعرف المسافة التي يقطعها الضوء في ساعه ثم في ٢٤ ثم في ٣٦٥ يوما ليعرف المسافة التي يقطعها الضوء في السنة وسيرى ان الرقم يساوى تقريبا ١٠ أس ١٣ أى ١٠ مليون المليون كيلومتر .

وقد قدر آينشتاين أن يكون لنصــف قطــر الكون علاقة بالجــذر التربيعى لمربع الكثافة فيه ، فقد كان تقديره ٢ × ٢٣٢٠ ميل وبحساب السنين الضوئية نجد انها قريبة من ٣٣ أو ٣٥ ألف مليون سنة ضوئية ، وبهذه الطريقة أمكن بواسطتها لآينشتاين وليتر وغيرهم من حساب كتلة الكون في مجموعه بل معرفة عدد ما به من ذرات .

كل هذا كان خاف على عقولنا ، ولقد قال آينشتاين « المؤمنون هم الذين يعلمون علم اليقين ان هناك أشياء تخفى على علمهم » .

ورغم ان غالبية العلماء يميلون الى تجنب كلمة « الله » عندما يشيرون الى غوامض الكون ، فان آينشتاين لم يتبع هذا الطريق ، ورغم ان البعض وصفه بالكفر ، ومع ذلك فقد قال : « ان دينى يشمل الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة التي تكشف في ثناياها بعض التفصيلات القليلة التى لا تستطيع عقولنا المتواضعة ادراكها ، وهذا الايمان القلبى العميق هو الذى يدفعنى الى الاعتقــاد بوجود قوة حكيمة عليــا نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض الذى يلهمنى بفكرتى عن وجود الله ! » .

ويقول لينكولن بارنت في كتابه « العالم وآينشتاين » انه يوجد الآن في العلوم الحديثة نافذتان يطل منهما الانسان :

الأولى : المنظار الجديد فوق جبل بالومار في كاليفورنيا الذى يبلغ قطر مرآته العاكسة ٢٠٠ بوصة .

الثانية : النظرية الجديدة لآينشتاين الخاصة بالمجال الموحد .

●●●

● مراجع مختارة

١ ـ أصول الكتب الثلاثة عشرة

٢ ـ ابن سينا — تأليف : د. أحمد الأهوانى

٣ ـ أفلاطون — تأليف : د. أحمد الأهوانى

٤ ـ آينشتاين والنسبية — تأليف : بارنت ، ترجمة محمد عاطف البرقوقى

٥ ـ تاريخ الانسانية — تأليف : أحمد حسين

٦ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه — تأليف : د. عبد الحليم منتصر

٧ ـ تاريخ الفكر السياسى — تأليف : جان توشار

٨ ـ الخالدون العرب — تأليف : قدرى حافظ طوقان

٩ ـ دائرة معارف الشعب

١٠ ـ ديكارت — تأليف : د. نجيب بلدى

١١ ـ الطب والأطباء — تأليف : د. محمود دياب

١٢ ـ العلوم عند العرب — تأليف : قدرى طوقان

١٣ ـ الفكر الصينى من كونفوشيوس الى ماوتسى تونج — تأليف : هـ. ج كريل

١٤ ـ قادة الفكر الاقتصادى — تأليف : روبرت هيلبر وتنز ـ ترجمة د. راشد البراوى

١٥ ـ قصة الحضارة — تأليف : ول وايريل ديورانت

١٦ ـ كارل ماركس — تأليف : ايسيابرلين ـ ترجمة عبد الكريم أحمد

١٧ ـ محيط العلوم — تأليف : نخبة من العلماء العرب

١٨ ـ المذاهب الاقتصادية الكبرى — تأليف : جورج سول ـ ترجمة د. راشد البراوى

١٩ ـ من اعلام الطب العربى — تأليف : أبو الفتوح التوانسى

٢٠ ـ مؤلفات ابن سينا — تأليف : جورج شحاتة قنواتى

٢١ ـ نظرية التطور — تأليف : سلامة موسى

٢٢ ـ نفائس الفلسفة الغربية — تأليف : د. عثمان أمين

المؤلف فى سطور

- رئيس قسم الوثائق والمعلومات بدار الهلال منذ عام ١٩٦٨ ·
- عضو نقابة الصحفيين ·
- كتب فى عدة مجلات أدبية واسلامية مختلفة منها : الهلال ــ المصنور ــ الكواكب ــ التصوف الاسلامى ــ الدوحة ــ الامة الاسلاميه ··

فهـرس

●● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل ٠
٢	ـ الألكترونيات والحياة الحديثة	ي ٠ رادونسكايا ٠
٣	ـ نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى ٠
٤	ـ الجغرافيا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
٥	ـ الثقـــافة والمجتمـع	رايموند وليامز ٠
٦	ـ تاريخ العــــلم والتكنولوجيا ٠ جـ ٢ ٠ القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر ٠ ج ٠ فوربس
٧	ـ الأرض الغامضـــة	ليستر ديل راى
٨	ـ الرواية الانجليزية	والتر ألن
٩	ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس ٠
١٠	ـ آلهـــة مصر	فرانسوا دوماس ٠
١١	ـ الانسان المصرى على الشاشة	د ٠ قدرى حفنى وآخرون
١٢	ـ القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف ٠
١٣	ـ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس ٠
١٤	ـ مجمـــوعات النقـــود صيانتها ٠٠ تصنيفها ٠٠ عرضها	ديفيد وليام ماكدوال ٠
١٥	ـ الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦	ـ عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د٠ محسن جاسم الموسوى
١٧	ـ ديلان توماس مجموعة مقالات نقدية	اشراف س٠ بى٠ كوكس
١٨	ـ الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩	ـ الرواية الحديثة ٠ الانجليزية ـ والفرنسية جـ ١	بول ويست
٢٠	ـ المسرح المصرى المعاصر ٠ أصله وبدايته	د ٠ عبد المعطى شعراوى
٢١	ـ على محمود طه ٠ الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢	ـ القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدنبيت
٢٣	ـ فن الترجمـــة	د ٠ صفاء خلوصى

اسم الكتاب	اسم
٢٤ ـ تولستوى	رالف ئى ماة
٢٥ ـ ستندال	فيكتور بروه
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوج
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيا
٣٠ ـ أدب الأطفال ٠ (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان ال
٣١ ـ أحمد حسن الزيات ٠ كاتبا وناقدا	د ٠ نعمة رح
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د ٠ فاضل ا
٣٣ ـ فكرة المسرح	فرنسيس فرجو
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب بروز
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د ٠ روجر س
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	أ ٠ سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د ٠ ناعوم بيز
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهم
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تش
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د ٠ جون شد
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبري
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نع
٤٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث جـ١	فرانكلين ل ٠

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٩ ـ الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعي
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د . محيي الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج . دادلي أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د . جوهان دورشنر
٥٤ ـ مبادرة الدفاع الاستراتيجي حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية (دراسة في سياسات التعاون الدولي)	د . السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د . مصطفى عناني
٥٧ ـ مختارات من الأدب الياباني (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
٥٨ ـ الفكر الأوروبي الحديث جـ ٢ (الاتصال والتغير في الأفكار) من ١٦٠٠ ـ ١٩٥٠	فرانكلين ل . باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
٦١ ـ الفكر الأوروبي الحديث . جـ ٣	فرانكلين ل . باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكي ف . س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوي
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر ر . داي
٦٦ ـ سبعة مؤرخين في العصور الوسطى .	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س . م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د . عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د . سمبسون و نورمان د . أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصري والفكر .	د . أنور عبد الملك

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧١ ــ حوار حول التنمية	والت روستو
٧٢ ــ تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ ــ العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
٧٤ ــ التذوق السينمائي	آلان كاسبر
٧٥ ــ التخطيط السياحي	سامى عبد المعطى
٧٦ ــ البذور الكونية	فريد هويل شندرا ويكرا ماسينج
٧٧ ــ دراما الشاشة جـ١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ــ الهيروين والايدز	روى روبرتسون
٧٩ ــ الفكر الأوروبى الحديث جـ ٤	فرانكلين ل٠ باومر
٨٠ ــ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ــ صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
٨٢ ــ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د ٠ محمود سرى طه
٨٣ ــ دراما الشاشة جـ ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ــ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ــ وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
٨٦ ــ الهندسة الوراثية	ويليـام بينز
٨٧ ــ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ــ كتب غير الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى

رقم الايداع بدار الكتب ٤٨٢٥/١٩٩٠

ISBN — 977 — 01 — 2459 — 1